وَرد جوري

وَرد جوري (رواية)

براءة محمد الأيوبي (كاتبة لبنانية)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-425-2

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2021 /12 /6718)

306

الأيوبي، براءة محمد

ورد جوري/ براءة محمد الأيوبي. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2021

(318) ص

ر. إ: 6718/ 12/ 2021

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

براءة الأيوبي

وَرد جوري

إهداء . .

إلى أولئك الذين عاشوا شبهَ حياةٍ في انتظار نبوءةٍ تتحقّق،

ولم يحصدوا سوى مزيدٍ من مواسم الهَطل والحنين . . !

كُن مستعدّاً لتلقّي الصدمات، فالحياة مفاجآت، قد تأتيك من البعيد وقد تأتي من أقـرب النـاس إليك.

مالكوم إكس

أمسكَت يدي بحزم، وأخذت تعتصر أصابعي وهي تشدّني لأتمكّن من اللحاق بها.. في يدها الأخرى ثمّة كيس كبير مليء بأشياء لا أعرفها.. خطواتها واسعة وسريعة تلائم حتماً قامتها الفارعة، وتتعارض مع هشاشتي كطفلة لم تتجاوز السادسة من العمر. بدوتُ في تدحرجي خلفها كالشاة في محاولاتها الأوّلية للسير ومحاكاة أقرانها ..

أمّي شابّةٌ فاتنة بكلّ ما للكلمة من معنى.. أرى نظرات الإعجاب بها عندما أرافقها في أيّ مكانٍ نرتادُه.

أشبهها كثيراً خصوصاً في لون البشرة الورديّ، وشعرنا الطويل المنساب كنهرٍ في موسمٍ خريفيّ يجمع بين الأصفر والأحمر. عيناها سوداوان واسعتان تكلّلهما أهدابٌ طويلة، وهذه تماماً أوصافي وإن كانت تكاوينُها أكثر نضجاً ووضوحاً.

قوامها طويل، رشيق، لا شائبةَ فيه، وتكاد في مشيتها تحاكي فراشةً ربيعيّةً.

عندما أتطلّع إليها أرى الجمال متجسّداً في تكاوينها دون استثناء.. ولا أبالغ إن وصفتُها بأميرةٍ هاربةٍ من كتاب الحكايا.

كان البرد قارساً، خصوصاً مع غياب كليّ لأشعة الشمس، وتساقطٍ مستمرٍ للثلوج منذ ما يقارب ثلاثة أيام. الأمر الذي دفع والدتي إلى حشوي داخل طبقات من الصوف، وتغليفي بمعطف جلديّ جعلني أقرب إلى كرة ثلجية أو دبٍّ قطبيّ مثير للشفقة و.. الاستهزاء.

هي المرّة الأولى التي قررت فيها أمّي أن تصحبني معها في مشوارها الأسبوعيّ المتكرر منذ زمن مضى، والذي كنت أجهل تفاصيله ويشعرني بفَقدٍ كبير وغربةٍ لا تزول إلا مع عودتها مساءً منهكة وعلامات البؤس تنسج غَزلها فوق ملامحها الهادئة.

كطفلةٍ صغيرة، لطالما استغربتُ سلوكها، خاصّة أنها كانت تلازمني طوال الوقت، وتأبى أن تتركني بمفردي حتى عند وجودنا في المنزل، ممّا جعل تعلّقي بها أشبَهَ بالتآم الروح بالروح..

في غياباتها السابقة، كانت أمي تُودِعني مكرهةً عند جارتنا العجوز..

«لطيفة» امرأة طيبة جدًّا، في الثمانين من عمرها وتحتفظ بكامل لياقتها الفكرية والبدنية.. لطالما شعرتُ بعاطفةٍ جيّاشة، تجاهها فكثيراً ما أعطتني الحلويات والهدايا، وقامت باحتضاني ورعايتي في فترات وجودي معها..

منحتني أماناً وقت الحاجة، وواسَت خوفي ووَحدتي بحكاياها المبهرة مِراراً وتكراراً..

أسميتها جدّتي، وفي كلّ مرة أناديها أشعر بي أهديها سعادةً لم تختبرها من قبل..

هذا السلوك لطالما ولّد انزعاجاً عند أمي..كنت ألمح توتّرها في شحناتٍ حركيّة تضرب أناملها فجأة، فتصير كعازفة بيانو تنسج لحناً من تيهٍ وضياع. ثم لا تلبث عصبيّتها أن تشتد مع بروز تشنّجات واضحة المعالم في عروق رقبتها ووجهها.

هي لم تعترض مطلقاً على سلوكي، لكن هدأةَ ملامحها كانت تنسحب بمجرّد أن تسمع ندائي لها، فتحاول افتعال أيّ سبب لتدثّر هزّةً تضرب أرضها وتبعثر سكينةَ خَفقها.

منزل الجدّة يقع مقابل شقتنا مباشرة، لكنه أكثر رحابة، وأثاثه الفاخر يوحي بانتماء صاحبته إلى عائلةٍ ثرية جدًّا، لم يحالفني الحظّ للقاء أحد منها مطلقاً ولو بالصدفة، طوال سنوات طفولتي وحتى وفاة الجدّة فيما بعد في يومٍ كثيب السطوع متلبّد الخَفق..

لم أعرف لوالدتي أقارب، ولم تحدّثني مطلقاً عن أصدقاء لها.. حتى والدي لا أدرك عنه سوى ما يكفي لأشتاق إلى حضوره الجميل.. المستحيل.

***

في ذلك اليوم البارد، كنت غارقةً في سريري الدافئ، ومئات الفراشات تتراقص فوق وسادتي وتتغلغل في مسامات حلمي..

موسمي بدا ربيعياً رغم عَصفٍ ورعدٍ وبرق..

رائحة زهر الليمون ملأت فضاء نـومي وتسلّلت إلى حنايا غرفتي حتى كادت تَشي بهدأتي لكل من يَلجها..

فعلاً، كنتُ طفلةً من ياسمين، عشقت عالمي الصغير الذي أهدته لي الحياة - أمي، جدتي لطيفة، لعبي، وأحلامي - وما خطر ببالي يوماً أن وحوشَ الحكايا المخيفة، خرجت ذات زمن من بين صفحات كتاب، حتى فاضت بها الأمكنة والقلوب..

في ذلك الصباح، فاجأتني قبلات أمي على جبيني، وكلماتها الحانية تدعوني للنهوض.. فها قد حان موعدي لأرافق مسيرها نحو ما أجهل وأنتظر!

بفارغ صبري وجنوني، طفولتي وذهولي، استفقت.. !!

طرحتُ كل متطلباتي الصباحيّة جانباً، فلا وقت اليوم لدلالٍ أو غنج.. ثمّة ما هو أهم..

استسلمت كاملاً لوالدتي وهي تغدق على جسدي ملابس من كل شكل ولون.. طبقة فوق أخرى، دون أن أُبدي غضباً ورفضاً كعادتي.. رغبتي في الخروج أحالتني وديعةَ الطباع مع ابتسامةٍ تحمل بريقاً وانتظاراً..

مشياً على الأقدام انطلقنا.. وبرغم صقيعٍ صفع وجنتيّ وأقضّ مضجع دفئي، سرتُ برفقتها بكامل انصياعي، تشدّني لهفتي وذاك الغموض المتراكم بين ملامح أمي وحضورها الحزين.

الطرقات بدت خالية إلا من بعض السيارات التي أخذت تقطع جليد الصمت بين آونةٍ وأخرى.. فمن ذا الذي يجرؤ على مغامرة الخروج في توقيتٍ أشبه بسباتٍ شتويّ النبض!

الثلج المترامي على جانبَي الطريق حمل إلى طفولتي رهبةً من فراغٍ بدأتُ أستشعر وجوده، رغم امتلائي بالأحلام.

بعد سيرٍ طويل لم تعكّر رتابته أيّ استكانة، توقفنا.. كنت ألهث من تعبٍ، ويكاد قلبي الصغير يتقافز بين الضلوع.

قطعنا مسافة لا بأس بها ونحن نسرع الخُطى، حتى تجلّت أخيراً أمام ناظري بوابة حديديّة ضخمة تتوسط سوراً حجريّاً مرتفعاً، وتتهادى من خلفه قامات أشجار باسقة، من حور وشربين وصنوبر..

بدا المشهد مهيباً، أشبهَ بقلعة ملكيّة سبق وراودت خيالي الصغير، أثارت دهشتي، وحلمت بي أقطنُها أميرةً بفستان من مرمر، وطوق من ياسمين.

اجتاحني الحماس، ووقعتُ في قبضة الترقّب اللذيذ لما سأُعاين وأختبر..

كانت البوابة مغلقة، وما إن دنونا منها، حتى ظهر رجل ضخم الجثّة مفتول العضلات ويرتدي زيّاً غريباً أشبه برجال الشرطة. تأمّل والدتي للحظات، ثمّ شرع بلامبالاة بإزالة السلسال الضخم لنتمكّن من الدخول.

عندما نفَذنا إلى الحديقة، شعرتُ بتوتّرٍ يضرب أصقاع أمي، وبدأُت يدها بالتعرّق ممّا دفعها إلى إطلاق سراح أناملي، ربّما في محاولة لحجب

مشاعرها المضطربة واستعادة شيءٍ من تناسقها الروحيّ بعيداً عن صخب تساؤلاتي.

على عكس توقّعاتي، ظهر المكان كئيباً.. فالورد الذي رجوتُ وجوده ما عثرتُ له على أثر، والأشجار الباسقات تراءت هزيلة وبأعداد محدودة، حتى الأعشاب تلاشت واختفت التربة تحت أرضيّة من الإسمنت الذي أصيب بنتوءات من جرّاء زمنٍ عابر، ومواسم من جفافٍ وصقيع..

تقدّمت أمي بحذر، وأنا خلفها أتدحرج رهبةً واتّقاداً، وأمام مبنى من ثلاثة طوابق مَثَلنا.. بابٌ خشبيٌّ مهترئ، تجلّى أمامنا، بقبضةٍ حديديّةٍ ضخمة يتأكلها الصدأ..

طرقٌ خفيف على الباب من يد أمّي المرتعشة، وإذا بي أعثر بموازاة رأسي على جسدٍ صلبٍ لامرأةٍ عجوز.

ويا لها من أنثى!!

قصيرة القامة، ممتلئة الأرداف، ترتدي فستاناً قصيراً يُظهر ركبتين منتفختين، وساقين عفا عليهما الزمان فكادت التجاويف ترسم خرائط على الجلد المتشقق..

رفعت ناظري لتلتقي عيناي بحدقتين حادتين لعينين جاحظتين محاطتين بخطوطٍ كالأثلام، وبسوادٍ ينمّ عن زمنٍ وتعبٍ وقسوة.. أما في وسط الوجه، فثمّة حفرتان ربّما تستخدمان في عملية التنفس.. بصعوبة.

فجأةً، انبثق من شفتين غليظتين صوتٌ أشبه بصفيرٍ حادّ، لا يلائم مطلقـاً كتلة اللحم المترامية بين دفتّي الباب..

«أهلا..»..

من هَول المفاجأة، تراجعتُ إلى الخلف، واحتجبتُ وراء أمي التي بـدت في حالةٍ يرثى لها، وعلى وشك الإغماء..

قلقها العارم بدا جليّـاً وغيـر قابـل للتوريـة.. وبحركـةٍ رأسـيّة سـريعة ردّت التحية، وتقدَّمت بارتباك داخل المبنى، تجرّني خلفهـا، محتضـنةً في يـدها ذاك الكيس غريب المحتوى.

القلق..

هـذا الإحسـاس الـذي ينسـرب إلـى دهـاليز الـروح.. وكلّمـا توغـل أكثـر، يقتطع من السَّكينة نتفـاً ويرمي بها في قعرٍ سحيق..

يضـعنا في مهـب الهـذيان.. تصـفعنا الهـواجس، ونصـير قـاب قوسـين مـن انهيار وشيك..

لا يميز بين طفلٍ وراشد.. إذا مـا أتـى، يعصـف كإعصـار، يقتلـع الجـذور، يعرّي القلوب، ويخطف من الحياة زهو ألوانها والبريق.

ولكن، رغم ذلك.. لـم أكـن يومها أطـوي بـين جنبـاتي اضـطرابـاً يليـق بهيبـة المكـان والتبـاس الحضـور ، ذلـك أن الطفلـة التـي كنتُهـا حملَـت مـن الـبراءة عالمـاً خصبـاً، أحاطها بهالة من دَعةٍ واطمئنان.

ما إن تخطّيتُ عتبة المكان، حتى استنشـقتُ رائحـة زمـنٍ غـائرٍ في القـدَم.. وتـراءى أمـامي دهليـزٌ طويـل، لـم تقطـع رتابتـه سـوى جـدرانٍ متآكلـة، باهتـة

الألـوان، بعضـها غزَتـه الشـقوق والـبعض الآخـر تعـرّض لمحـاولات إعـادة تأهيل فاشلة بامتياز..

نفحةُ عفونةٍ اخترقت شعيرات أنفي الصغير، ورطوبـةٌ زادت مـن ارتعـاش بدني النحيل، الغائر تحت درع التحصينات الصوفيّة.

لم نحتَج إلى دليلٍ يرافقنا، ذلك أن أمي بدت مدركةً تمامـًا لوجهتهـا، فقـد تخطّينا العديد من الأبواب المغلقة قبل أن نستقر أمام بابٍ مواربٍ تنبعث منـه رائحة بخور طيّب.

لطالمـا عشـقتُ المفاجـآت، وانتظـرتُ أعيـاد مـيلادي لأَسـعدَ بغمـوض الهدايا وبخبيئاتٍ أقتحم أغلفتها اللامعة، فتزداد ضربات قلبـي كلمـا أوشـكتُ على سبر محتواها..

وهذا بِعينه ما حصل لي وأنا شبه متصلّبة، في انتظار ما سيكون!

ترى من ينتظرنا في الداخل؟ هل هـو قريـبٌ لوالـدتي؟ لمـاذا يقبـع في مكـانٍ غريب كهذا؟ هل وجوده هنا هو جزءٌ من إبهارٍ، واسـتكمالٌ لإدهـاشٍ وحيـرة أُريدَ لي أن أعيشَهما؟

تسـاؤلات كثيـرة عصـفَت كزوبعـةٍ في البـال، رفعـت منسـوب احتـدامي، ورأيتُني أغرق في تيـارات شـكٍّ جارفـة.. وبانـدفاع لا إراديّ، اقتحمـتُ الغرفـةَ لأقف مشدوهةً، بدون حراك..

***

في الغرفة التي دخَلتُها عثرتُ على خيبتي تتأرجح بين الزوايا.. لمحتُ براءتي في حال انهزامٍ، وأشباحاً ضاحكةً تهزأ من اشتعال حماسي وتجترح بحق طفولتي خطيئة كبيرة.

الواقع ليس حتماً بجمال الخيال وإبهار حكاياته، لذلك لا داعي لأنْ تغلبنا التوقّعات، أو أن ننساق خلف تصوّراتنا التي قد تبدو مثاليّة في كثير من الأحيان، فقد يضعنا ذلك في مواجهة مريرةٍ مع الذات، لا تخلو من ملامةٍ وخذلان..

وبالرغم من صغر سنّي آنذاك، إلا أن ما عاينتُه جعلني ولمدّةٍ طويلة أتقوقع كشرنقة، وأفقد ثقتي بأحلامي الطريّة عن أميرات وحدائق ورد وفراشات بألوان قوس قزح.. بل وأؤمن بتلك التعويذة التي صنعَتها ساحرةُ الشرّ في يومٍ أسود مطير، وأطلقت بواسطتها وحوشَ الحكايا لتجوب الطرقات وتفترس قلوب البشر، فيغدو هؤلاء بأجساد باردة وفراغٍ في الصدور تهوي فيه المشاعر وتستغيث..

رائحة الطِّيب التي استشعَرتُها في الممرّ، تجلّت في الداخل مشوّهةً بروائح كريهة تُخالطها، ليخرج لنا مزيجٌ من عطرٍ فاسدٍ يوحي بغثيانٍ ودوار..

المكان على صغره بدا رحباً، بسبب غياب ما يملأ شغورَه من أثاثٍ أو.. بشر.

المحتويات اقتصرت على سريرٍ حديديّ صغير، تجاوره طاولة صدئة متشقّقة الجوانب، عليها مجموعة من علب الأدوية بأحجام متباينة.

ثمّة شبّاك صغير يواجهه حائط كبير حاجبٍ للرؤية!!!

ترى ما حاجتنا لنافذةٍ تطل على اللاوجود، وتقطع عن الرئتين أيّ احتمالٍ للحياة!! وما فائدة هذه الستارة المدلّاة، في غياب عيون تترصّد!!

هي ليست ستارة بالمفهوم الشائع للكلمة، لكنها قطعة قماش بالية، فَقدَت بفعل عوامل الوقت والإهمال وغياب النظافة ألوانـاً ربّما كانت – ذاتَ حضورٍ – زاهيةً مثيرةً للتعجّب!

وقفتُ بكامل حيرتي، وعلامات الاشمئزاز ترسم خرائط فوق ملامحي..

أنينٌ خافتٌ، بعيدٌ، انتشلني من وضعية غثيانٍ كنتُها.. فتنبّهَت حواسّي المترهّلة صقيعاً وخيبة، ورأيتُني أتلفّتُ باحتراس لأُمعن النظر في وجه أمي علّها تفيدني بتفسيرٍ لما أنا فيه من ضياع..

كانت في حالة اضطراب جَليّة، لم تُعِر ارتيابي انتباهاً، بل تقدّمت في خَطوها لتنحني فوق السرير في وضعية احتضانٍ وتقبيل..

أمّي.. ما بكِ!!

شيءٌ ما بدا منكمشاً على نفسه في زاوية السرير.. أهي كومة ملابس! أم مجموعة أغطية!..

بل هو جسد إنسانٍ يتنفّس بصعوبة!! كيف لم ألمح وجوده رغم اتّقاد انتباهي عند الدخول؟؟!!

قشعريرةٌ سرَت في عروقي، لم أدرِ بعدها أهو الهذيان ما أعيشُه، أم أن خَفقَ الواقع دهَمَ انتظاري بقسوة، فأربَك لهفتي وأَسَر الكلمات!!

كائنٌ غريب.. فاقد الملامح من كثرة التجاعيد، تكاد تُحصي شعيرات رأسه البيضاء، المنتشرة فوق جمجمةٍ عظمية واضحة الترسيمات.

العينان غائرتان في تجويفين عميقين، الشفاه تكاد لا تبين، ووحده الأنف يبدو بارزاً لغياب أي معالم أخرى حوله.

أما الجسد فحدّث ولا حرج..

قليلٌ من العظام المتقوقعة على بعضها بعضاً، والمغلّفة بطبقة جلدية رقيقة تكاد تتمزّق من هشاشتها.

لحظةُ احتضانٍ من أمي لهذا الكائن، تلتها دموعٌ منهمرة منها وشهقاتُ نحيب طويلة..

دقائق مريبة، استعادت والدتي خلالها بعضاً من جأشها.. ثمّ نادت عليّ بصوتٍ مرتعش أجفَلَ سكوني، وانتشلني من ذهولي والشرود..

«جوري صغيرتي، أقبلي.. دعي جدتكِ تنظر إليكِ، علّها تسعد بكِ فتستكين روحها»..

جدّتي!!!

أنا لم أعرف طوال سنوات عمري القصير، سوى جدّةٍ واحدة!

جدّة بالعطف لا بالدم.. جارتنا «لطيفة» الطيبة.

إذن، كيف لي أن أستسيغ هذا الهذيان، وأن أمضي لأحضان يابسة أشتَمُّها وأقبّلها، وكأن ما يحدث أمرٌ اعتياديّ؟!

وكيف لطفولتي أن تتقبّل هذا الجنون، وهي التي استدعَت الخيال في كل مرّة كنت أحلم فيها بجدّتي..

تصوّرتُها مِراراً بوجه كالقمر، رغم تجاعيده الأنيقة.. بملامح من نور تقطر حناناً كلمّا تأمّلتها.. بجسدٍ طريّ يصلح لإغفاءة تمسح هموم كونٍ بأكمله..

كلّما لمحتهُا تخطر في البال، أشتمّ عطرَ وردٍ جوريّ فأدنو من طيفها لأتحسّس تجاعيدها وأتيقّنَ من كونها لا تحمل فوق جسدها أوراقَ الورد، وأنها، مثلنا، بشرٌ من دمٍ ونبض وروح..

حكاياها التي ما نطقَت بها، سمعتُها بقلبي وجعلت مني أميرةً في أمسيات البرد الطويلة. تلك الحكايا كانت ستَرويها لي حتماً لو أنني نعمتُ بحضورها ..

جدّتي، كما أراها في المخيّلة، تحب غزلَ الصوف وهي مسترخيةٌ على كرسيّها قرب موقدةٍ خشبية.. وخزانة ملابسي تفيض بفساتين وكنزات صوفية نسجَتها أناملها لي، وأرتديها كل ليلةٍ عندما أرتحل في أحلامي إلى مملكة البنفسج والأقحوان..

في جعبة جدتي مفاجآتٌ كثيرة، ودائما تعتنقني الدهشة وهي تستخرج منها خبيئات تُبهر قلبي الصغير..

هكذا أتصوركِ جدّتي..

فكيف أستطيع أن أتجاوز أمنياتي الرطبة هذه، وأقبل الانصياع إلى واقعٍ ليس لي، ولا يشبه رقرقة مشاعري الجنينيّة!!!

تمسمرتُ مكاني في إشارةٍ مني إلى رفضٍ وتمرُّد..

ولأول مرة ألمح شرارات غضب تتطاير من ملامح أمي العذبة، وأراها تنتفض من مكانها. وبقسوة ما عهدُتها، تشدّني من يدي وتسوقني كنعجةٍ، لأجد نفسي في مواجهة الخوف..

اعترضتُ بصمت، بنظرات عنيدة.. وانتَحَيتُ جانباً ألملم بعضاً من هدأتي التي أُزهِقَت على حين دَهم..

كلا..

لن أقترب أكثر.. لن أحتضن كائناً شنيعاً، تحت مسمى «جدتي».. بل سأرفع رايتي، وأعلن التخلّي عن دهشتي وانتظاراتي..

تسارع خَفقي، ورحتُ من زاويتي أرقب أمي وهي تنظر إليّ شزراً، ثمّ تُخرج محتوى كيسها الكبير من أطعمة مختلفة، لتبدأ، وبعنفٍ، محاولات متكرّرة وفاشلة في معظمها، لحَشوِ بعضٍ منها في جوف الجدّة..

أثارني ما يحدث.. بل أُصابني بتقزّز شديد، فكأن المرأة المائلة أمامي غريبة عن تلك التي أعيش في كنَفها.. تكاد براحتيها أن تسحق عظاماً هشّة، وتترك بصمات أناملها على جلدٍ مهترئ!

من أين لها هذه الحِدّة في السلوك! وكيف تتعاطى بخشونةٍ مع من يُفترض أن تُكِنَّ لها مشاعر خاصّة!!

صحيح أن وجودي في هذا المكان بدا لي خاطئاً ولا يعنيني. كما أنه أهداني خيبةً ما توقّعتُ حدوثها، إلا أن تعاطفاً غريباً سرى في أوردتي ودفعني إلى إطلاق صيحة استياء أجفلت أمي وجعلتها تتراجع إلى الخلف في قمّة الذهول..

«كفففففى..»..

❋❋❋

الخيبة الأولى موجعة، أمّا البقيّة فدروس تقوية لا أكثر.

مالكوم إكس

لا أحد يحبّ العُزلة، أنا فقط أكره الخيبة.

هاروكي موراكامي

إذا أرَدتَ أن تعـيش حيـاةً سـعيدة، فاربطهـا بهـدف ولـيس بأشخاص أو أشياء.

ألبرت أينشتاين

الفصل الأول

على مقعدٍ في محطّة الباصات جلستُ، وبجانبي غَفَت حقيبةٌ صغيرة فيها بعض الكراكيب وذكرياتٌ معتّقةٌ في خوابي الوجدان. ما زال أمامي وقتٌ طويل وترقّب فادح الثمن.

لم يخطر يومـًا لقلبي المُنهك أن مشهداً سبق وعايشتُه بكل ارتباكٍ في ماضٍ سحيق، سيتكرّر وبحيرةٍ أكبر، وأنّني أملك تلك القوّة الروحيّة لأنخرط في قرارٍ حاسمٍ كهذا..

ولكنّي الآن، وقد بلغتُ تسعة عشر عامـًا، لن أستمرّ في التحامل على ذاتي التَّعبة منذ طفولةٍ وأكثر.. ما عدتُ أستطيع الاستمرار في حكايةٍ لستُ منها في شيء.. الضغوط كثيرة، وفؤادي الهشّ ما عاد يطيق صبراً..

الزحام في المحطّة بدا شديداً مثيراً للتوتّر، وعليَّ حتمـًا أن أشدَّ وثاقَ روحي، وأكون على قدْرٍ من الثّبات، لأتمكّن من تخطّي عتبة مخاوفي..

أخذتُ أُسلّي نفسي بتأمّل العابرين، واختراع قصصٍ لهذا الغادي وتلك المهرولة..

حتمـًا ثمّة حكايا كثيرة تخفيها الملامح، ولا أحد يستطيع مهما بلغ من دهاء أن يُحصي كمَّ التراكمات التي تُثقل كاهل الأفئدة.. كما أنّ ضجيج البشر قد لا يكون وليدَ كلمات أو نحيبٍ أو قهقهات.. فهناك صخبٌ أكثر حدّة، كما أن ثرثرة الأرواح أشدّ وطأةً على السمع من أيّ دويّ آخر.

في شرودي، رحتُ أُحصي عدد الحقائب المترامية على الرصيف، وأتأمّل ألوانها. تراءى بعضها في حالةٍ يرثى لها من الوهن، وبعضها الآخر بدا في لمعانه شهيًّا يوحي بما تحمله بين ثناياها من خبيئاتٍ لذيذة.

كان ثمّة مجموعةٌ من الفتيات يتضاحكن، وعلى ظهر كل منهن حقيبةٌ صغيرة.. بَدَون في قمّة السعادة والحماس. لا بدّ أنهنّ على وشك القيام بمغامرةٍ رائعةٍ ومثيرة.

غصّةٌ عميقةٌ اجتاحَت خَفق أنفاسي، ورأيتُ نفسي أتساءل عن طفولتي وصباي وأيامي التي انسربَت من توقيت حلمي دون أن أحظى بفرصةٍ لتكوين صداقاتٍ حقيقية.. أو حتى بإذنٍ لممارسة الحياة.

ربما لو منحني القدر رفيقةً مقرّبة، لكانت اليوم عوناً لضعفي وسنداً لوحدتي في مسيرة إعادة ترميم ذاتي المتآكلة.

حانت منّي التفاتةٌ إلى طفلةٍ صغيرةٍ رثّة الثياب، تجلس القرفصاء في زاوية قريبة. كانت تجهش بكاءً، ثمّ تغرق في صمت ثقيل الترددات.. لا أدري لم عبرَتني كآبةٌ وضاقت بيَ الأنفاس..

ربّما رأيتُ بين عَبرات الصغيرة تلك الـ«وَرد»، الطفلة التي كُنتُها منذ أكثر من عقد انقضى!

نعم، أنا «وَرد»..

هكذا أسمَتني جدّتي لأمّي التي وُلدتُ على يديها. كان ذلك تحديداً عندما وضعت الحرب القذرة خطاياها وأسرارها في جعبةٍ وجثَت عند الحدود تترقّب عودةً محتملة.

آنذاك قالت جدّتي أنها ومنذ أن لمحَتني بخدودي الطريّة المتّشحة بحَمارٍ خفيف، تذكّرت شجرة الورد الجوريّ القابعة منذ سنين على مدخل بيتهم القديم.. عندها صرخت مبتهجة «وَرد .. نعم سيكون اسمك ورد»..

وهكذا كان..

والدتي، لم تعترض على التسمية ولا حتى والدي.. الأمر كلّه لم يكن يحتل اهتمامهما طالما أن المولودة فتاة.. كانا يرغبان في صبيٍّ يحمل اسم العائلة، ولكن الواقع أتى مغايراً لطموحهما. وما زاد من نقمتهما عليّ أن الطبيب حذّر أمي من تجربة الحمل مرة ثانية لما في ذلك من خطرٍ على حياتها.

إذن.. لا ولد سيأتي، وسأبقى أنا وَرد الطفلة الوحيدة في منزلٍ يفتقد أدنى درجات الحنان.

تربَّيتُ في كنف جدّتي التي اصطحبَتني معها من المستشفى إلى البيت مباشرة، بعيداً عن والديّ رغم كونهما على قيد الحياة.

لا أذكر أنهما قدّما إليَّ نبضـًا أو اهتمامـًا، أو حتى تلقّيتُ منهما كلمات طريّـة في ذكـرى مـيلادي المتكـرّرة.. وحتـى بلـوغي الثامنـة، لـم أتعثّـر بملامحهما ولا أتاني منهما أيّ مواساة أو تبرير..

جدّتي كانت في قمّة الطيبة، ولم تتوانَ لحظةً عن جَمع محبّتها في جعبةٍ من حرير، لتغدق منها على قلبي بما يكفي لتمرّ سنوات طفولتي بأقلّ قدر من الخسائر الروحيّة.. لكنّ ما جرى لـم يكـن بـالطبع هيّنـًا ليعبُر كنسيمٍ طريّ في نهارٍ صيفيّ شديد القسوة..

ربّما استطَعتُ بعض الشيء أن أتناسى موقف والدي آنـذاك، فقـد كـان رجلاً عسكريـًا فظّ الطباع مع الجميع، حتـى مع زوجتـه التـي تصغره بمـا يتجاوز العشرين عامـًا.

بالطبع أنا لا أعطي مبرّراً لخشونة قلبه، ولن أفعل، لكنّني قرّرتُ - ذات وجعٍ – أن أُلغي وجـودَه مـن حسـابات نبضـي وأمحـو ذكـرى غِلطتـه عـن مخيّلتي إلى الأبد.. ولي أسبابي!

لكـن كيـف تمكّنـت والـدتي مـن إغفـال حضـوري بهـذا الغيـاب فاقـدِ المعنى!!

مشـاعر الأم هـي الأنقـى والأصـدق في هـذا العـالم. هـي رفيـفُ روحٍ ونبض.. وغيمةٌ رطبةٌ تزيح عن القلب جفافـًا وتشقّقـًا ونزيفـًا.

الأم ياسمينةٌ طريّة تفوح ضوعـًا وحبّـًا، وتقطر شـهداً لتشـفي عـذابات وجراحـًا.. فراشةٌ بتراقصها يحلّ الربيع وتستكين الأفئدة.

ولكن هل والدتي كانت كذلك!!

للأسف..

خلال سنوات طويلة ظلّت روحي وحيدة. وجود جدّتي لم يكن كفيلاً بتعويضي عن حنان أمومة طلبَتها روحي مِراراً..

براءتي وأنا طفلة دفعتني إلى إعطاء تفسيرات وتبريرات لاحتجاب أمّي، ولكن الفراغ النفسيّ الذي عشتُه والأزمات التي استنفدت صبري، جعلتني أحمل نقمةً على امرأةٍ أنجبَتني في يوم كئيبٍ، وغادرَت دون أن تطبع قُبلةً على جبيني.

عندما بلغتُ الثامنة توفيّت جدّتي في يومٍ بكت فيه روحي مع الجدران والنوافذ والأثاث، ونزَفَت وردتنا الجوريّة القابعة أمام الباب لدرجة الذبول.

يومها سقْتُ كنعجةٍ إلى منزل والديّ الذي لم أطرق بابه يومـًا ولا عرفتُ حتى موقعَه. عندما أوصلتني جارة جدّتي المقرّبة إلى ذاك البيت الغريب، لم أجد من ينتظرني، رغم معرفتهما بموعد وصولي.

جلستُ وحيدةً على حقيبتي الصغيرة بجانب الباب في انتظار قدوم أحد. للأسف لم تتمكّن الجارة من البقاء معي بسبب ارتباطها بعملٍ ضروري، فغادرت بعد أن قدّمَت اعتذاراتها لضَعفي وأوصتني بالمكوث وعدم الابتعاد، ثمّ تركتني مُكرَهةً، على شفا حزنٍ وارتباك.

إنه الخذلان.. ويا له من خذلان!

أن تعيش عمراً ترتّق جروحـاً عميقة في انتظار يوم مطير تغتسل فيه مـن التعب، وعلى حين فجأة يأتيك ذاك الإعصار ليفتّت براعم القلب، فيتنـاثر نُتَفـاً وتنسحب الروح منك رويداً رويداً..

«مسكينةٌ وَرد».. كانت آخر كلمة نطقَت بها الجارة، قبل أن تُغادرني..

فعلاً حالي تدعو للشفقة..

تراكمت عليَّ الأحزان، وعرفتُ الخوف والوَحدة في موسم البراءة. لم يمنحني القدر فرصةً لانتقاء الزهور من حديقتي، بل فرض عليّ اقتلاع الأشواك وأغفَل حاجتي لعطفٍ ورحمةٍ ومواساة.

وها أنا اليوم، بعد مرور ما يقارب العقد وأصبحتُ شابّة من وَرد، أختبر الشعور المثير للخيبات نفسه.. أودَعتُ براءةً منهَكةً واستقبلتُ نضجـاً لن يأتي إليّ إلا بمزيد من الحسرات والتشوّهات النفسيّة.

***

ساعةٌ من الخيبة، وأنا لا أزال أمكث على حقيبتي في ارتقاب من سوف يأتي وينتشلني من هذا الضياع. مخاوف كثيرة غزلت نَسجها بين أوردتي، وجعَلَتني في حالةٍ من التوتّر المريب..

ماذا لو طال انتظاري ولم يأتِ أحد!؟

ماذا لو أن العنوان الذي قصدتُه خاطئ، وهذا احتمالٌ كبير، طالما أنّني لم أحضر قَبلاً لزيارة من يُفترض بهم أنهم أهلي!؟

بـل مـاذا لـو رُفـض وجـودي في هـذا المكـان، ولـيس هنـاك مـن جـدّة تحتضن حزني وتواسي وَحدتي!؟

الوضع عاصفُ الرّيبة، والروح تَعبة من تيهٍ وفزعٍ، وذاك الرابض في الصدر –على هشاشته –لم يعد يطيق صبراً بترقّب المجهول.

مواءُ قطةٍ صغيرة عابرة أثار فضولي، وأخرجني من توجّسٍ كاد يُرديني في نحيبٍ شـديد. بـدت القطـة في غايـة اللطـف وهـي تحـاول الـدنو منّـي والتمرّغَ بحذائي..

عادةً، يعتبر وجـود أيّ كـائنٍ مـرتبط بالطبيعـة مثيـراً لمخـاوفي، رغـم أن منزل جدّتي قابعٌ وسط حديقة فيها مـزيجٌ مـن حشـرات وجـرذان وقطـط.. لكن وسط هذا الخواء الروحيّ والهـواجس التـي تـؤرق انتظـاري، تجلّـى وجود أيّ نَبضٍ نجدةً من غرقٍ حتميّ..

رحتُ أؤنس خوفي بملاطفة القطة أحيانـًا، والشرود في طريقٍ ممتدٍّ بين حضوري والغياب..

«وَرد!؟».

صوتٌ أنثويٌّ حادّ خرق تردّدات صمتي. ومـن شـدّة ارتبـاكي انتصبتُ واقفة وضرباتُ قلبي تكاد تُماثل قرعـًا على الطبول.

«نعم..».

ردّدتُ بتلقائيّةٍ دون أن أملك إرادةً للنظر في صاحبة النداء..

«أحضري حقيبتكِ»..

تقدّمت المرأة باتجاه باب المنزل ووَلَجَت فيه، دون أن تُعير اهتمامـاً لي أو حتى ترمي عليّ قُبلةً عابرة.

أهذه الفظّة عديمة المشاعر، والدتي!!!

أيُعقل بعد سنواتٍ عِجافٍ من الإبعاد والتغافل عن وجودي، أن يكـون اللقاء بهذه البرودة!!

شعرتُ بانهيارٍ في الخَفق.. بانكسارٍ في الروح.. وبانهزامٍ يحتاج ألف نصرٍ لتُرتَقَ بعض شوائبه. وبتثاقلٍ مخيف، رفعتُ الحقيبة ودخلتُ إلى غامض المصير.

صالةٌ كبيرةٌ مليئة بالتحف كانت في استقبالي.. وقفتُ مشدوهةً أتأمّل التماثيل المترامية في هذه الزاوية وذاك الركن.. اللوحات المعلّقة على الجدران، ، الستائر الحريرية المدلّاة فوق النوافذ الكبيرة المحيطة بالقاعة، والسجاد الملوّن الممتد تحت قدميّ.. كل ذلك جعلني في حالة من الذهول لم تغادرني إلا مع صيحةٍ خرقت جدار دهشتي وأعادتني إلى واقعٍ كئيبٍ لا يمتّ إلى هذا الجمال بصِلة.

«أما زلتِ مكانكِ.. أدخلي وأفرغي الحقيبة في تلك الغرفة ولا تغادريها حتى أناديك..».. ثم استدارت لتغيب في دهليز طويل بحيث لم يبقَ منها سوى ظلٍّ لامرأة تعانق الشرّ وتلتحف بغِلظةٍ وخشونةٍ وجسدٍ بلا روح.

هذا اللقاء المشوّه كان كفيلاً بتقديم إجابات لكثير من الأمور التي امتنعت جدّتي عن توضيحها.. ولو أنها فعلت آنذاك لوفرّت عليّ الآن وجعًا وإحباطًا وسلسلةَ انهيارات وعذابات.

انقباضٌ شديدٌ مصحوبٌ بدوار اعتراني، فارتميتُ على سريرٍ قابع في غرفةٍ يُفترض أنها تخصّني منذ ما يقارب ثماني سنوات، ولكن لظروفٍ تتعلّق باحتجاب الإنسانية والمحبة والعطف ظلّت خاويةً إلا من أثاثٍ باهظ الفَقد. وبرأسٍ صاخبٍ بالصور والاحتمالات، اتّكأت على الوسادة وغبتُ في سحيق الخيال..

«بيتٌ صغيرٌ وسط غابة يعلوه قرميد أحمر، أشجارٌ باسقات كثيفة الأغصان. صوتُ خريرٍ قادم من جدولٍ قريب يجثو على ضفته مركبٌ صغير على استعداد لخوض مغامرةٍ وإنجاز ارتحال.. تقدّمتُ من الباب الموارب لمنزل والدي، وبخفّةٍ وحماسٍ وَلجتُ إلى الداخل لأعثر على ذاتي قابعةً فيما يشبه بيت الدمى.

كم هو جميل هذا المكان! ليت والدي استدعاني باكراً للعيش هنا.. وكم فاتني من سعادةٍ ومتعةٍ!

وقع خطوات متدافعة أثارَتني، فالتفتُّ لأجد نفسي في مواجهة امرأةٍ صغيرة الحجم، لطيفة الملامح، مع ابتسامةٍ تضفي عليها مسحةً من طيبٍ وجمال..

أهي والدتي؟!

سبعة أولادٍ صغار بأحجام قزمة متباينة، يتضاحكون حولها..

أتراهم إخوتي!!

اقتربت أمّي منّي، وبرغم صغر حجمها حاولَت احتضاني بحنانٍ، ثمّ دَعَت صغارها للترحيب بي.

موجةُ من التدافع والقُبل جعلتني أفقد التوازن وأهوي على الأرض ضاحكة مستبشرةً بقادمٍ جميل..

جَلَبَةٌ كبيرةٌ ضجّ بها المكان، توقف على أثرها المزاح والضحك.. فاستقمتُ في جلستي في محاولةٍ لاستيضاح ما يجري..»

«وَرد.. كل تلك النداءات وأنت تمارسين طقوس النوم وكأن كل شيء يحدث ليس في حساباتك.. وحقيبتُكِ أيضاً ما زالت مغلقة!! بدايةٌ موفّقة لوجودِك هنا.. استعدي للقاء والدكِ، سيحضر إلى المنزل خلال دقائق..».

أفرغت هذه المرأة القاسية كلامها الغليظ بوجهي، واستدارت مغادرة.. مواجهةٌ كهذه بدت كفيلة لجعلي أنسحب من ظلالي وارفة الحلم لأهوي من جديد في واقع سمجٍ ثقيل.. مرعب.

إذن، سألتقي والدي بعد قليل!

ربّما يكون أكثر لطفاً من والدتي، وبمجرّد رؤيتي سيفتح حضناً دافئاً ويدعوني إليه.. عندها فقط سأفكّ أسرَ عَبراتٍ أكبّلها بين الجفون وأستشعر سعادةً سمعتُ بها في حكايا الجدّة دون أن أختبرها.

نعم.. الحياة ليست دائمـاً قاسية.

هناك فسحة أمِلٍ تطلّ منها الابتسامات وتتحقق بعض الأحلام.. هناك نورٌ وسط العتمة، وصوت قيثارةٍ وسـط ضـجيجٍ ونحيـب.. هنـاك توقيـتٌ للأهازيج ومواسم للفرح والغناء..

***

لـم أشعر مطلقـاً بتلك الحميميّة التي تربط الأشخاص عـادةً بأشـيائهم، بحيث تصبح لهم عالمـاً وملجأً وسَـكنـاً.. بقيـتُ غريبـةً عـن غرفتي منذ اللحظة الأولى التي دخلتُها، وحتى موعد مغادرتها للمـرّة الأخيـرة في يـومٍ غريب الملامح..

جدران الغرفة لم تمنحني شعوراً بالأمـان، تـراءت بالنسـبة لـي مجـرّد أسوارٍ وُجدَت لتَحول بيني وبين أفـرادٍ مـدرجين تحـت مسـمّى العائلـة.. واللون الأبيض الذي تمّ اختياره ليطغى على الجدران والأثاث والستائر، حمل إليّ رائحة الموت ورغبةً مستمرّةً بالغثيـان لـم أتمكّـن مـن الـتخلّص منها رغم محاولاتٍ قمتُ بها فيما بعد لتشويه امتداده من زهور ملونة إلى رسومات أنجزتُها لكسر الرتابة التي ظلّت سيّدة المكان وصاحبة القرار.

انتظرتُ طويلاً في غرفتي دون أن يلتفت أحدٌ إليّ. حتى والـدي الـذي يفترض به موجـوداً منـذ مـدّة، لـم أحـظَ برؤيتـه.. يبـدو أن حضـوري بـات منسيّاً، فلا نداء أتاني ولا حتى دعوة لغداءٍ أو عشاء..

حلّ المساء بصعوبة، وأنا على سريري ماكثة في انتظار «اللا شيء».. غلبني النّعاس رغم جوعٍ عاصف، فأغمضتُ أهداباً موجعةً وغرقتُ في نومٍ قَلقٍ مضطرب.

عندما صَحَوتُ كان الليل قد انتصف،والجوع قد تمكّن منّي وسرَى في أوردتي ليسبّب لي صداعاً قويّاً. نهضتُ من السرير بعد أن قرّرت البحث عن أيّ شيء أسدّ به رمقي، طالما أن أحداً لم يَرِد له هذا الخاطر.

سرتُ مترنّحةً في دهليزٍ طويلٍ دون أن أعرف لوجهتي مقصداً. صرتُ أتنقّل بخَطوٍ حذِر، وأدعو أن لا أتعثّر بأحد، فما عدتُ أملك طاقةً لخيبات إضافية.

جميع الأبواب كانت موصدة، باستثناءِ واحدٍ بدا موارباً. تقدّمتُ وكلّي رجاءٌ أن أجد ضالّتي، فكان لي ما أردت..

نشوةُ انتصارٍ تسلّلت في شراييني، فأسرعتُ الخطى لأُلقي القبض على صحنٍ من الفاكهة مستقرٍّ على الطاولة.

هي قضمةٌ واحدةٌ من تفاحة، انهدم بعدها حلم الشبع الروحيّ، وارتفع سدّ حصينٌ بين قلبي الصغير ووجودٌ غليظٌ لرجلٍ صار منذ تلك اللحظة غريباً عن خفقي وبراءة مشاعري.

«هذا ما تلقيتهِ من جدّتك، السرقة!!.. حتى هذه الأخيرة، لم تُفلح في تلقينها لكِ.. أغربي واختفي عن ناظري لأن بقاءِك هنا لن تُحمد عقباه..».

عبارةٌ واحدةٌ كانت كفيلة بتقويض أسطورة الأب التي عِشتُ سنوات أحيكُها وأُطرّز ملامحَها كما أشتهي. بالتأكيد لم أستطِع حينها، وأنا وَرد الصغيرة جدًّا، أن أدرك سبباً لما يجري.. لكنْ للصغار قدرةٌ على الولوج إلى أرواح الآخرين، والتغلغل في مسامهم.. على براءتهم يملكون مفتاح القلوب.. يتذوقون نكهاتها، ويميّزون بين صفاء روحٍ وخبث أخرى..

لذلك، ومنذ ذلك التوقيت البائس، أدركتُ أنّني يتيمةٌ بوجود أبٍ ينبض فظاظةً ولؤماً..

بعد يومٍ محتدم الترقّب، بتُّ شبه أكيدةٍ من رفضٍ مكبوتٍ لوجودي من والدَين ما احتضناني طفلةً وليدة، ولا عَبَرا ذاتَ توقيتٍ للسؤال عنّي، ولا حملا لبراءتي على حين غفلةٍ هديةً تعبيراً عن محبةٍ أو ودٍّ أو حتى معرفة..

بذلَت جدّتي على مدى ثماني سنوات مجهوداً لتحيطني بهالةٍ من حنانٍ فلا أشعر بفَقدٍ أو يُتمٍ.. نجحَت مرّات وأخفَقَت أخرى، لكنها استمرّت بسرد الحكايا عن والدَين سيأتيان يوماً وفي جعبتهما وَفرةٌ من مشاعر يغدقانها، فتفيض السعادة وتغدو الحياة أجمل وأشهى.

ليتها ما حَكَت أساطير..

ليتها أخبرت طفولتي أن العالم فيه قسوة وشجن..

وليتها أيضاً لم تمُت..

بعد هذا اللقاء الشنيع أسرعتُ إلى غرفتي ودموعي فَيضُ ثلجٍ في موسم الذوبان يحجب عنّي بشاعةَ المكان.. انزويتُ في ركنٍ صغير، وصرتُ أرتعش خوفًا وذهولاً..

أذاك الكائن الغريب، والدي؟!

لم يُسعفني الخوف على التأمّل فيه، لكن نظرةً خاطفةً كانت كفيلةٍ بجعل ذاكرتي تتمنّى نسيانًا واندثارا..

أخرجتُ من حقيبتي رسمًا لرجلٍ أنيق، لطيفِ الملامح باسمِ الثغر.. هذا أبي كما قدّمه لي الخيال.. هكذا قرّرتُ ذات أملٍ أن أخطّه على الورق.. وهكذا تمنّيتُه.

تُرى أهو الكُره ما يدفع أمّي وأبّي إلى نبذي وتحقيري؟

أنا لم أحضر لأرتكب إثمًا بحقهما، ولم يخطر ببالي حتى أن أعاتبهما على إغفالهما لي طوال سنوات.. وجودي هنا جاء قسراً بعد أن أصبحتُ وحيدة، ولكم تمنَّيتُهما حضنًا ودفئًا وسعادة.

ولكنْ للأقدار خَيارُها!!

***

الفصل الثاني

قد يبدو صباحي هذا مختلفـاً!!!

أراني في ذروة التفاؤل، فها أنا أستيقظ وكلّي يقين أن إعصاراً لن يأتي ويقتلعني من سكينتي.. أن سحراً أسود لن يستحيل حبلاً يلتفّ حول رقبتي ويصيب نهاري بلعنةِ سوء الطالع.. ولأول مرة أجد نفسي صاحبة القرار في تحديد توقيت صَحوي ومضمون يومي ولائحة خياراتي ..

دائمـاً كنتُ أُحملُ على المكوث في مكان ليس لي، وعلى الاستظلال بقلوبٍ لم أُخلق لها..وفي كلّ مرّة كنت أخرج بتشوّه جديد، حتى خلتُني سأستحيل مَسخاً هارباً من خرافات الجدّات وحكاياهنّ القديمة. ربّما سأمارس اليوم طقوسي الاعتيادية، بدءاً من تسريحة شعري وصولاً إلى ارتشاف قهوتي مع ذاكرتي الضبابية..

ولكن.. ثمّة ما هو مختلف..

فجدائلي الطويلة..

تلك التي طالما جعلتُها بامتداد زمنٍ وعمرٍ وحكايا.. والتي عاهدتُ نفسي على ضمّها والاعتناء بانسيابها، فارتسمَت بألوان قوس قزح، وتطايرت منها آلاف الفراشات والابتسامات..

تلك الجدائل، سأبتر حضورَها، في محاولة لإثبات قدرتي على التغيير.. ولأخبر ذاتي والآخرين أن فتاةً ضعيفةً كنتُها قد صارت بإرادةٍ

صلبة، وأنها لن تستمر في تقمّص دور شجرةِ ليمون مزهرة يستنشق الآخرون ضوعها، ويتشبّثون بها في صعودهم نحو أمنياتهم، ثمّ يُغفِلون وجودها وعطرَ مشاعرها.

تسلّلتُ بخَطوٍ حذرٍ إلى مخدعي خوفاً من أن تشي بي الجدران، وبغفلةٍ عن براءتي، ارتكَبتُ إثماً بحق أنوثتي فقطعتُ أوصال الجدائل، جمعتها في صندوق، وأقفلتُ عليها خَفقي والأحلام.

أنا لستُ أنثى ضعيفة.. وقد أدركتُ ذلك منذ اللحظة التي تصدّعَت فيها أمامي أسطورة الأب في تلك الليلة المصيريّة، وبدأتُ بعدها أرمّم ذاتي بكامل وَحدتي وعزلتي وانقباضي..

في هذه المدينة الساحليّة والعاصمة الجميلة حطّيتُ الرحال يوم ميلادي التاسع عشر، بعد سفرٍ مضنٍ استمرّ ساعات وانتظارات.

لا أعرف أحداً هنا، لكن إعلاناً باغَتني في صحيفةٍ عن وجود منزلٍ قديمٍ فيها معروضٍ للبيع وبسعرٍ مناسب.

جاء العرض في التوقيت الملائم، حين أضحى مكاني عبئاً يُثقل روحي، يعطّل مشاريعي، ويبعث في النفس شعورَ احتضارٍ وشيك.. عندها فقط لملمتُ نفسي وتعبي، ودون سابق قرارٍ انطلَقتُ نحو غامض المصير.

لا أتحدّث طبعاً عن وجودي السابق في منزل والدي.. فمكوثي هناك استمرّ ما يقارب العام فقط، فيما بعد تمّ نقلي كبضاعة فقدت صلاحيّة

حضورها إلى مدرسةٍ داخليةٍ، صُعقتُ عندما أدركتُ أنها مستقَرٌّ سأُدفن فيه وأنا على قيد الأهل وحياتهم.

هو الأسبوع الأول لي في العاصمة وأنا بكامل حرّيتي..

سعيدةٌ أنا جدًّا - وهذا نادرُ الحدوث- لأن ما عاينتُه حتى الآن يوحي بانتهاء موسم حروبي الداخلية.. أو على الأقل هكذا رجَوت.

بيتي الجديد ذو مساحةٍ صغيرة. يتألّف من غرفة وصالة ومطبخ. هو بناءٌ قديمٌ في التصميم وعوامل التعرية التي ضربت أصقاعه. لكنه في نظري بدا قصراً من مرمرٍ ومرجان، فهنا سأحتضن سكينتي بعيداً عن قلوبٍ قضيتُ عمراً في محاولة فكّ طلاسمها دون أن أنجح.

تقع شقَّتي في الطابق الخامس والأخير. ولعلّ أهم ميزة فيها أنها محاطة من جميع الجهات بشرفةٍ لا يقطع امتدادَها حائطٌ أو باب.

لطالما تأمّلتُ في صغري شرفات المنازل القريبة والبعيدة. في كلّ مكان دُفعتُ إليه عنوة، شكّلت الشرفات مصدر شغفٍ لي.. ربّما لأن جميع البيوت التي سكَنتُها – دون أن تسكُنني – بدت كئيبة، فلا شرفات مطلّة، والنوافذ دائماً مقفلة ومحتجبة خلف الستائر.

الشرفة بنظري ليست مجرّد حيّز للرؤية.. هي فضاءٌ رحب تتطاير منه الأمنيات ويلتصق بعضها بأرواحنا الهائمة.. فيها نختبر أولى معاني الحرية، بعيداً عن جدرانٍ تُطْبق على أحزاننا وتهزأ من آهاتٍ نذرفها في سكنات الليالي الطويلة.

لذلك، كان شَرطي الأول لأيّ مكان سأقصده وجود شرفة علوية مطلةٍ على أمنياتي الهاربة، علّها تُسعفني في التقاطها.

هذه المنطق من العاصمة حيث استقرَّيت هادئة بطريقة لم أعتدها..

فأنا فتاةُ الصخب!!

حياتي صاخبة بالأحداث، مشاعري صاخبة بالتردّدات السلبية، وأحلامي صاخبة بالفراغ.

فكيف لي بعد كلّ ذلك أن آلف هذا المكان سريعًا!

إنه حتمًا قرار التغيير قد سرى في الوريد، وألبسني إرادةً راسخةً في التناغم مع كل نقيضٍ، علّ حياتي تأخذ منحى مختلفًا، فأنبعث من جديد.

هذا التباين الغريب لمحتُه أيضًا في المكان.. فمنذ إطلالتي الأولى على شارع سكني الجديد، أثارتني المباني الحديثة التي شُيّدت وفق أشكال هندسية بديعة توحي بثراءٍ فاحشٍ ورفاهيّة عذبة. وزادت دهشتي مع تناثر مجموعة من المباني القديمة - وبيتي من ضمنها – بقناطرها وبواباتها الخشبية الضخمة، بحيث تجلّى المكانُ متحفًا يروي حياةً عبرَت من هنا، وينبض بضحكات ونداءات وأصداء من سحيق الزمان.

من بين مجموعة المباني القديمة، ثمّة عمارة نال منها الزمان بطريقة مريبة .. وتجلّت على جدرانها آثار أحقاد سكنَت قلوب البشر ذات ضياع، فكان النتاج مدنًا تنهار خوفًا وانهزامًا..

هي الحرب مرّت من هنا..

ورغم انقضاء عقدين وأكثر على شبه عودةٍ بالحياة إلى هَدأتها، إلا أن شواهد كثيرة لا تزال قائمةً في أكثر من مكان لتفضح ما جرى لحظة تعارض المصالح الفئوية والحزبية والطائفية، وانهزام أيّ شعور بالانتماء إلى وطنٍ ما عاد قادراً على بعث الأمل في النفوس.

أخبرتني جدتي كثيراً عن الحرب الأهلية التي أصابت البلاد بمقتل.. كانت تسمّيها الدّاء الذي نهش الأجساد والأرواح حتى بات الجميع على شفا يأسٍ ودمار.

في كلّ مرّة حدّثتني فيها عن الحرب، كانت تأخذ بيدي لنخرج إلى حديقة منزلها. ومن هناك تدعوني للتأمّل في جدران المبنى الخارجية المليئة بالثقوب والفجوات العميقة، التي بالرغم من محاولات كئيبة لرتقها، ما تزال واضحة المعالم، وتوحي ببؤسٍ عميق.

تقول جدّتي إن إعادةَ تأهيل المبنى مسألةٌ بسيطة، لكنها أصرّت مع جيرانها على الاحتفاظ بآثار جرح لم ينجُ من تقرّحاته أحد، لعلّ أجيالاً قادمة تَعتبر، فتمضي في بناءٍ وطنٍ جديد يكون حصناً لأبنائه ومرتعاً لأحلامهم ونجاحاتهم.

ومن أجل التخفيف من وطأة مشهدٍ رديء للمبنى، غرست جدّتي شجرة وردٍ جوريّ قرب باب الدخول - مُنحتُ اسم ورد تيمّناً بحسنها – وراحت تعتني بها وتسقيها حبّاً ولهفة، حتى امتدّت بجذوعها على

الحائط الكبير وصارت تطلّ على نوافذ الجيران وتلقي عليهم تحيّةً بعطرها ورقّة انسيابها..

أنا لم أعايش الحرب، فقد وُلدتُ في توقيت انتهائها، لكنّ قصصاً مرعبة عن أحداثها أفردت في قلبي مساحةَ خوفٍ من أيّ خلاف، ولو عائليّ.

رَوَت لي جدّتي كثيراً عن مآسي الحروب. وحكايةُ العائلة المنكوبة - كما أسمَتها – تركت بالغ الأثر في نفسي وما زالت تقضّ مضجع هدأتي كلّما اختليتُ بأحزاني.

«أثناء احتدام الحرب الأهليّة، ومع انتشار الحواجز الحزبية في معظم المناطق، تعَّرضَت سيارة وليد أحد معارف جدتي لتوقيفٍ على حاجزٍ في منطقة التّماس. كان برفقة زوجته وابنه الصغير. وبناءً على انتمائه الديني المتعارض مع العناصر الحزبية تمّ ذبحه أمام زوجته وابنه.. نجت الزوجة مع الطفل بأعجوبة، لأن اتصالاً هاتفياً شغل العناصر وأتاح لهما الفرار. لكن القدر لم يكن طيباً بما يكفي معهما، حيث هبطت قذيفة صاروخية على المنزل أثناء وجودهما هناك ممّا أدّى إلى وفاة الأم.. اعتقد الجميع أن الصغير قد وافته المنية أيضاً، لكن بعد مرور ثلاثة أيام انتبه الجيران إلى أنين صادر من تحت الركام ليكتشفوا وجود الصغير المتألّم الذي تمّ نقله إلى المستشفى، حيث تعرّض لعملية بتر لأطرافه الأربعة»..

قصّةٌ مأساوية نامت في عمق ذاكرتي، وصارت تطفو على السطح في كلّ مرّة يجتاحني الحزن فيها ويشطر هدأتي نصفين.

في الحروب، ليس هناك من رابح.. الكلّ خاسر لا محالة. حتى أولئك الذين يظنّون بأنفسهم النصر، غَرموا الكثير من بشرٍ وحجر ، وصرفوا أموالاً باهظة قد تكفي لسدّ عجزٍ وتغطية حاجات وتحقيق تقدّم.

فعلاً، أنا أكره الصراعات.

حياتي السابقة كانت مجرّد حروبٍ شنّها الآخرون على ضعفي وبراءتي، ومعاهداتٍ أبرمتُها مع الذات لأظلّ على مستوى ممكن من التوازن النفسيّ والأناقة الروحيّة. نجحتُ في ذلك مرّات وفشلت مرّات أخرى..

بالطبع لم يكن ذلك سهلاً، لكنّني استمررت في التحدّي.. وما زلت.

***

سنةٌ من عمري، أضَعتُ فيها بوصلتي بين كره أبٍ وأنانية أمّ. تناسلَت روحي مني وأنا أكتشف كلّ يومٍ حقداً تجاه أنوثتي، متغلغلاً في مسام والدي ومتطايراً من أنفاس والدتي..

عامٌ تمخّض عن فتاةٍ مصابةٍ بآلام الفَقد، وعبثيّة الوجود، وبمطبّات نفسيّة تحتاج إعادةَ تأهيلٍ سريع.

بعد استقبالٍ مقيت لي في منزل يفترض به منزلي، ولقاءٍ جمع خشونة العالم بطفولةٍ محطّمة، اتّخذتُ قراري:

«إقامتي الجبرية هناك لن تفرض عليّ واجبات تجاه أحد. ولن أترك مساحةً في قلبي لاستجداء عطفٍ أوحنان. سيكون حضوري على هامش المشاعر، فربّما يساعدني ذلك على إنعاش رغبتي بالحياة..».

لكن.. في منزلٍ فاقد الانتماء لأيّ عاطفة، لا يمكن التنبؤ بما سيكون.. عليك أن تبقى متيقّظًا، وعلى استعدادٍ لأي مواجهة.

وأنا لم أنتظر طويلاً..

فها هو ذهولي قد أورق وأزهر وأينع في نهارٍ أشبه بليلتي القاتمة الأولى.

صحوتُ من غفوتي المتقطّعة على صخبٍ منسرب من باب غرفتي. من فرط الجوع، لم يُسعفني جسدي على النهوض، فرحتُ أرقب الباب بحذرٍ خشيةَ أن يُشرّع على وجوهٍ عِفتُ خشونتها. لكن شيئًا لم يحدث!

صارت الأصوات أكثر وضوحًا مع ارتفاع نبرتها.. ذات الصوت الأنثويّ الحادّ لـ«أمّي»، والدويّ الأجشّ لرجلٍ كرهت حضورَه ليلةَ أمس، مع تردّدات عالية لصراخ صبيّ..

أهي مجرّد تهيّؤات!

لم تتَح أمامي فرصةُ التفكير الطويل، فما خشيتُه حصل، وفوجئتُ بالباب مفتوحًا على مصراعيه، وعلى عتبته يقف صبيّ يقاربني قليلاً في العمر، وربمّا يكبُرُني بعامين لا أكثر، وبملامح تنطق شرّاً.

«لماذا جئتِ إلى هنا؟.. هذا ليس مكانكِ.. ارحلي بلا عودة.. أكرهكِ.. أكرهكِ..».

ماهذا الجنون الذي أنا فيه! ومن يكون هذا الفتى!

أحيانــاً يبـدو جهلنـا بـبعض المسـائل مصـدر راحـةٍ لأرواحنـا التعبـة، وتكون العتمة أفضل من نورٍ يشي بخبيئات مريرة.

أن تكتشف على حين وجع أن مكانك وسط عائلتك - بعد اقصائك - لم يبقَ شاغراً، وأنّ غريبـاً أتى في يوم فاقد الملامح ليحتلّ قلوبـاً كانت لك لحظةَ ولادة، ويأخد دفقـاً من المشاعر بينما أنت ترزح تحت وطأة اليُتم القسري.. فذلك هو الحرمان.

ليتـكِ لـم تمـوتي جـدّتي.. كـم أحتاجُـكِ وسـطَ هـذا الكـمّ الهائـل مـن الخيبات.. من الشتات والخراب النفسيّ؟!

ولكن.. ما يفيدني التمنّي، وأنا أراني كلّ يومٍ أغوص في مستنقعٍ ضحل، تلتفّ الطحالب حول عنقي، وتمنحُني شعوراً باختناقٍ قريب؟!

تُرى، هل يُعتبر انتمائي إلى عالم الأنوثة جريمةً عليّ أن أدفع ثمن ارتكابها؟! وهل يُفترض بي أن أكون ضحيّةً لمجرّد أنّ أسرةً أنتمي إليها ترفض أن تعترف بإنسانية فتاة، لها حقوقُ عطفٍ واستقرارٍ وأمان؟!

ما فعله والدي لحظة ولادتي، أنه منحني لجدّةٍ عجوزٍ لترعاني دون أن يكلّف خاطراً هو ووالدتي بعدها ليقوما حتى بعبء السؤال والاطمئنان..

ما فعله والدي بعد مَنحي، أنه سارع ليحتضن طفلاً - ذكراً - غريبـاً ويُغدق عليه مع والدتي حبّاً ومالاً واهتمامـاً.. واسمـاً ليكـون لـه زينـةً في الحياة وفخراً بعد الممات..

ما فعله والدي بعد وفاة جدّتي، أنه صفَعني في روحي ولملم حقداً كان قد سكَن في غيابي، لينثره أمام حضوري ويخبرني أنني ما زلت كائناً غير مرغوب فيه..

كان ذلك الاكتشاف نقطة تحوّلٍ كبير في حياتي.. ومنذ تلك الهزيمة، أيقنتُ أن وَرد التي كنتُها من قبل قد تبدّلَت ونضجت رغم صغر سنّها، وأن ما ينتظرني يفرض عليّ أن أصبح أنثى بقلبٍ من رماد.. وهكذا كان.

***

مرّت أيّامٌ عِجافٌ على طفلةٍ مثلي.. لم أشعر خلالها مطلقاً أنني في كنف والدين اشتاقا لحضوري ورعايتي بعد غيابٍ استمرّ عمري اليافع الحزين.

صدمتُ بهما شخصين غريبين عني، عن أحلامي ومشاعري ولهفتي لحنانهما. لم يعبُر يوم إلا وأخبراني، ولو بالتورية، أن وجودي بينهما خطأٌ كبيرٌ وأن ولادتي أصلاً جاءت في غير رغبتهما.

كلّ أمرٍ قمتُ به، جلب لي الكثير من الانتقادات والاتّهامات وحتى الشتائم، لدرجة أنني صرت أفضّل تناول الوجبات وحيدة في غرفتي، وهو الأمر الوحيد الذي لم يلقَ اعتراضاً على عكس ما توقّعت.

في المقابل، كنت أرى بنفسي دلالاً يُمنح وبدون حسابٍ لأخٍ ليس مني في شيء.. أخ خُلق من فراغ، وعشت معه في خواءٍ عاطفيّ كبير..

عانيتُ كثيراً وأنا أتلقّى بصمتٍ تعنيفاً معنوياً من أمّي وأبي، ثم تطوّر الأمر إلى تعنيف جسديّ بدأ ذاك الرجل المقيت يمارسه على طفولتي وهشاشتي.

في كلّ مرّة تعرضت فيها للأذيّة، كانت أمي تقف متفرِّجة، تَرقُب بسكونٍ ما يحدث لي، ثم تضرب يداً بيدٍ في محاولة لإظهار أسفٍ أو عدم رضا.. وأحياناً كثيرة كانت تأتيني وأنا متألّمة لتعصف في أذني لوماً وعتباً.

أمّا أخي «بالتبني»، فلطالما رأيت نظرات شماتةٍ ترتع بين نظراته، وسمعتُ قهقهاته تتردّد ليلاً وأنا في غرفتي أبكي وجعاً ووحدة.

من أين أتى بهذا القدر من الحقد تجاهي، وأنا من يُفترض بها أن تحمل هذا الشعور الأسود لارتدائه بنوّةً هي لي، وممارسته حقوقاً حرمتُ لذّتها وغرق هو في نعيمها!

فعلاً.. لا أدري.

أحداثٌ كثيرةٌ عبرت لِحاظي وأنا مقيمةٌ في منزل والدي..

أحداثٌ مزّقتني حتى كدتُ أصاب بانفصامٍ روحيّ، لولا طيف جدّتي الذي صار يأتيني من حينٍ لآخر، ينفض عني أعقاب الحزن ويواسي وحدتي ووَحشةَ الأيّام.

أذكر نهاراً شديد البرودة، كنت فيه متعبة، أقبع في غرفتي بعيداً عن صخب احتفاليةٍ أقامتها أسرتي بمناسبة تقاعد أبي من منصبه كضابط (كما يقول)..

المدعوون كثُر، والضحكات ملأت الصالة الكبيرة التي شهدت بذخاً غير مسبوق في النفاق الاجتماعي وفي الاستعدادات لهذا الحدث الجلل من زينة مبهرة ومأكولات من كلّ صنف ولون، إلى الهدايا التي تمّ توزيعها على الحضور كنوعٍ من التباهي وعرض القدرات الماديّة بعيداً عن أيّ عاطفة صادقة..

يومها، عدتُ من المدرسة منهكة وعلامات المرض باديةٌ على ملامحي الذابلة.. حتى الغداء لم يستقرّ في معدتي التي لفظَته بعد دوارٍ شديدٍ ضرب أصقاعي. صرتُ أتأوّه من الألم، وارتميتُ على الأرض عاجزةً عن الكلام.

لمحتُ أمّي بكامل أناقتها وزينتها تتقدّم نحوي. ومع غياب أيّ لهفة أو قلق، سمعتها تنادي أبي لتخبره بحالي.. وأنا على وشك الإغماء، أتاني هدير صوته ليزيدني وجعاً ويُعمّق الشرخ بين قلبي الصغير وفظاظة روحه:

«عليها اللعنة من فتاة.. حتى في يومي هذا أراها سوسةً تنخر بهجتي.. أدخليها إلى غرفتها قبل مجيء الضيوف.. وإياكِ أن تحدّثيني عنها..».

عندما استيقظتُ من غفوتي، رأيتني على سريري.. في غرفتي.. وحيدةً في عتمةٍ مطبقة.

راودتني الأحداث الأخيرة، فغرقتُ في دوامة بكاءٍ ونحيب..

لا أستطيع حتى الآن أن أتفهّم سلوك أمّي معي، أو حتى أن أمنحها عذراً يخفّف من نقمتي عليها، التي بدأت تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى مشاعر سلبية، نالَت من هدأتي كثيراً وجعلتني أحمل فوق قلبي عبئاً استحال مع الأيام عقدةً يصعب فكّها!!

أشعر بأنها تخفي فزعاً بين جنباتها من وحشيّة أبي وأنانيّته.. وقد عرفت لاحقاً أنها، وبعد ولادتي، عانت الكثير مع أبي وتعرّضت لتعنيف قوي استهلك طاقة روحها.. لكن كلّ ذلك لا يلغي كونها أمي، وأن من أبسط حقوقي عليها أن تضمني بين جناحيها بعد هذا الغياب الطويل.. أن تحتويني لحظة ضعفي، وتُظهر تعاطفاً مع خوفي بدلاً من مجاراة ذاك الكائن المسمّى أبي في عملية تحطيمي وتحقير أنوثتي.

عندما هدأ انفعالي، قرّرتُ أن أشغل وقتي بالانغماس في كتبي ودفاتري.. وهذا ما كان.

استمرّ الاحتفال حتى وقتٍ متأخّر، دون أن يتفقّد ضعفي أحد..

فجأةً، ساد صمتٌ جنائزيّ تبعه صوت تصفيق حادّ، فتسرّبتُ من غرفتي لألقي نظرةً على الصالة..

لمحتُ «أخي» بأناقةٍ مبهرة يتوسط الضيوف والكلّ يغدق عليه قبلات وابتسامات.. بدا نجماً متلألئاً، لم يلبث أن انطفأ بريقه في نفسي وأنا أرى أبي متبوعاً بأمي يقتربان لاحتضانه. ثمّ، وبصوته الغليظ أعلن أبي أنه ما عاد يخشى أفولَ اسمه وسيرته، فها هو وريثه الوحيد وفلذة كبده بات على استعدادٍ ليحمل صولجان الأسرة ويكون فخراً واعتزازاً لأبويه..

أسرعتُ إلى غرفتي لاهثة، وقلبي ممتلئ بالفراغ.. ألهذه الدرجة أبدو نكرةً في نظرهما!..

يا لأنوثتي المقزّزة التي لم تحمل لي بين جنباتها سوى خزيٍ ووجعٍ وانهزام.

الأصوات على ارتفاعها غابت فجأةً عن دائرة انتباهي، لتنساب مكانها دندناتٌ هادئة بصوت جدّتي المرتجف الحاني، وهي تغنّي مقطعاً من أغنيةٍ لفيروز محبّبةٍ إلى قلبها:

«قمرة يا قمرة لا تطلعي عل شجرة

والشجرة عالية وإنت بعدك زغَيِّرَة

يااا يااا قمرة..».

غمرتني نشوة حنينٍ طفوليّ، وصرتُ أردّد معها بصوتي الباكي، حتى رحتُ في نومٍ عميق.

* * *

الفصل الثالث

أسبوعٌ مضى على إقامتي في منزلي الجديد، قديمِ العهد والتصميم والروح. كنت بحاجةٍ للتآلف مع المكان والتمتّع بفترة نقاهةٍ صغيرة أعيد فيها هيكلةَ خياراتي وتحديدَ أولوياتي، لذلك آلَيتُ المكوث بين جدراني الرطبة المتآكلة والتواصل مع ذاتي الهاربة من حكايا ماضٍ حزين.. لم أخرج مطلقـاً، حتى احتياجاتي صرت أطلبها من حارس المبنى، فيحضرها لي دون أن أتكبّد عناءً وطاقة.

إنه العم «خلدون»..

رجلٌ في السبعين من العمر. يعمل حارساً للمبنى منذ أكثر من عشر سنوات. هكذا أخبرني في أول لقاءٍ لنا عند وصولي إلى البيت. بدا نشيطاً ومتحمسّاً ومتعاوناً إلى أبعد حدود.

رجلٌ طيب، أتى من الريف مع زوجته منذ ما يقارب النصف قرن. كان شاباً في مقتبل العمر، هارباً من وضعٍ أمنيّ مأساويّ في الجبل.. الحياة في المدينة لم تكن ساكنةً بالتأكيد، لكنها منحته فرصةً للنجاة من موتٍ حتميّ.

اختبر شعور الخوف في الحرب، وعاش متنقلاً من عملٍ إلى آخر حتى استقر في النهاية حارساً للمباني، وآخرها حيث أقطن.

العم «خلدون» يعيش مع زوجته في غرفة صغيرة أسفل المبنى، تأتي ابنته مع أولادها لزيارتهما كلّ أسبوع وأحياناً تقيم معهما فترة قبل أن تغادر. لم أسمعه مرّةً يرفع صوته لتأنيب زوجته. ولا رأيته منفعلاً أو في وضعية تعنيفٍ لأيّ من أحفاده رغم شقاوةٍ نالت من هدأة المكان..

في الواقع، أثار دهشتي هذا الحارس بطيبته ولباقته وأسلوب تعامله مع الجميع. رجلٌ ريفيّ لم يتلقّ تعليماً وعمل صغيراً في أرض والده.. تزوج باكراً وصار ينتقل بزوجته من مكانٍ لآخر سعياً وراء رزقٍ كان نادراً في توقيت حربٍ مقيتة. رُزق بفتاةٍ أحبّها كما يُفترض أن يحبّ أبٌ ابنته. لم يبحث عن ذَكرٍ يفاخر به أمام الجميع، ولا ألبس ابنته عقدةَ ذنبٍ لأنها أتت معاكسةً لأمنياتٍ ذكورية.

رجلٌ مشذّب الطباع، لطيف المَعشر، يحمل في صدره قلباً من وَردٍ ونبضاً من ياسمين.

كم تمنّيتُه أباً لي.. لم أنظر إلى واقع حاله الكئيب، ولا إلى ترتيبه في تسلسل الطبقات الاجتماعية. ولكن إنساناً برتبةِ طيّبٍ وتصنيفِ نبيلٍ لا يمكن أن يعبر كظلّ، ولا بدّ أن يرسم نقشاً على جدار الروح في زمنٍ أصبح فيه القابض على إنسانيته كالقابض على الجمر.

عندما أخبرتُه باسمي أول مرّة بدا مشدوهاً.. لا أدري أهي دهشة الإعجاب أم الاستغراب!!

صمت قليلاً.. ثمّ زرع ابتسامةً على ثغره أظهرت صفّاً من أسنان متآكلة بفعل عوامل التعرية، وصدح بصوته مهلّلاً:

«ما أروع اسمك آنستي! سأمنحه لحفيدتي الجديدة، إذا لم يزعجكِ الأمر، عسى أن تماثلكِ في الشكل والصفات»..

هل اسم «وَرد» جميل لدرجة الدهشة فعلاً؟! أم أن إنساناً ولد وعاش في الريف فترة، لا بدّ وأن يحمل في نفسه حنيناً لكل ما يرتبط بالطبيعة أو يأتي ببعضٍ من نسماتها!!

أيّاً كان السبب، فإن إنساناً دمثاً كالعم خلدون، يعرف تماماً كيف يزرع ابتسامات في أوردة الآخرين.. تعلّمتُ منه الكثير وعرفت كيف يمكن للمرء أن يعبر الذاكرة تاركاً أثرَ حنينٍ فوق الملامح..

ولعلّ أجمل ما أتاني به هذا الحارس الطيّب، نصبة وَردٍ أحمر جوريّ.. بعد طرقاتٍ خفيفةٍ على الباب، تقدّم واضعاً النصبة أمامي قائلاً:

«اهتمي بها آنستي، وسترين عندما تزهر كيف تشبهكِ وردانها في الرّقة والجمال»..

فاجأني عمّي العجوز.. وعلى حين شوقٍ، تبدّل وجهه ليرتدي ملامح جدّتي، التي لمحتها تبتسم لي قائلة:

«هذه هي شجرة الورد الجوريّ التي راودت فكري عند ولادتكِ، وأسميتكِ «وَرد» تيمّناً بجمالها الذي يحاكي جمالك»..

يا إلهي كم أشتاقكِ جدّتي.. حتى بعد مرور أحد عشر عاماً، أشعر بكِ قربي وأذكر تفاصيل أحداثٍ وكلماتٍ وخَفقٍ عشتُها معكِ، وكانت بمثابة عطر بخورٍ التصق بروحي ورطّب لِحاظي بأملٍ جَنين.

هدية العم «خلدون» رفعته إلى درجة أبٍ حقيقيّ، وانتشلتني من حالة اليتم القسري الذي ارتداني عنوة، فاستحَلتُ طفلةً وانبعثتُ فراشة.

صرتُ ألجأ إلى فراشي، وشعورُ سكينةٍ ينساب كالدّم بين أوردتي، ويُهديني إغفاءةً طريّةً افتقدتُها منذ طفولةٍ وخيبات.

＊＊＊

كان ثمة خوف قابع في عتمة روحي حال بيني وبين حرية نَشَدتُها كثيراً، ورأيتُني ساعةَ انعتاقٍ عاجزةً عن الانطلاق.

غريبةٌ أنا!!

لهفتي المعهودة لشرفاتٍ مطلّة تنبعث منها نفسي وأمنياتي، ضاعت بين كراكيبي وحيرتي وترقّبي. وطوال أسبوع قضيتُه في البيت، لم أتجرأ على الخروج إلى شرفتي واسعة الامتداد، التي كانت سبباً وراء انتقالي إلى هذا المنزل رغم قِدَمه.

صرتُ كلّما تقّدمتُ بخطوي نحوها لأفتح الباب يعتريني انقباضٌ شديد، وأحسّ بأنفاسي تتلاشى وبجسدي يتهاوى. فأسارع إلى غرفتي، أرتمي على السرير، ورفيف قلبي يحمل إليّ شعوراً بانهيارٍ وشيك.

لذلك رحتُ من وقتٍ لآخر أطلّ على شرفتي من خلف الستائر، أُشبِعها حلماً، وأبني في الخيال صوراً عن سهراتٍ وضحكات وحكايا، ثمّ أعود لركوني بين الجدران ممتلئةً بظلالٍ وأوهام.

المرّة الأولى التي خرجتُ بها إلى الشرفة، عندما قررتُ وبعد فترةٍ من اقتنائي لوردتي الجوريّة، هدية العم خلدون، أن أُعرّضها لأشعة الشمس بعد أن أوشكت على الذبول. خرجتُ بها وأنا أتلصّص كسارق. خشيتُ أن يلمحني أحدُ الجيران ويجعلني موضع رقابة واهتمام، وهذا ما لا أطيقه..

بدايةً وضعتُ نَصبة الورد قرب الحائط، لكن ظلالاً حجبت عنها أشعة الشمس، فعدتُ لأرفعَها وأضعَها عالياً على حافّة الشرفة.. وقبل أن أستدير لأدخل الصالة، جذب انتباهي صخبُ أطفالٍ بعيد. رحتُ أتلفّتُ وأرقب الطريق بحثاً عن مصدر الصوت، وإذا بأفقٍ متلألئ لشاطئ رمليّ ممتدٍّ يفرض سطوته على ناظري.

بالرغم من سكني في الطابق الخامس للمبنى، إلا أن ظنّي حملني إلى الاقتناع بعدم وضوح الرؤية من الشرفة بسبب كثرة المباني وارتفاع بعضها.. لكن ما عاينتُه بدا معاكساً، فزاويتي حيث أقف تكشف أمامي لوحةً بديعة جعلتني أقف مشدوهة وقتاً غير قليل.

كم فاتني وأنا حبيسةُ جدراني!

وكم من حلمٍ كان بإمكاني التقاطُه وأنا جاثيةٌ في حضن هذا الأفق المرمريّ!

ومنذ تلك الدهشة، قررتُ أن أصنع من شرفتي فضاءً لأمنياتي، وأن أَزينَها بوردٍ وزهرٍ وخَضارٍ يزيد من رونقها، فتكون لي جنّة وأكون حوريَّتَها الحسناء..

بقائي في المنزل مدّة جعلني أتنبّه إلى كآبةٍ تسطو على جدرانه البيضاء المتآكلة رطوبة.

أنا أمقت اللون الأبيض، لا أرى فيه مسحةَ سلامٍ أو سكينةٍ أو صفاء. بل هو بالنسبة لي لون اللاحضور، ومؤشرٌ على فراغٍ كبير.. وأسوأ ما في الموضوع أنه يذكّرني بغرفةٍ في منزل عشت فيه غريبة وغادرته بنتوءاتٍ روحيّةٍ جسيمة. فكان مشروعي الأول الذي قرّرتُ القيام به، المباشرة بطلاء جدران بيتي بألوان تلائم انسياب حلمي وتُداوي ترهلات ذاتي التَعبة..

ولأني حديثة العهد بالمكان، تمنّيتُ على العم خلدون أن يساعدني في شراء المستلزمات، وهو لم يتوانَ طبعـًا عن مساندتي بجذَلٍ كبير.

ممتنةٌ أنا لهذا العجوز.. لوجوده، لاندفاعه، وحتى لابتسامات زرعها في قلبي وقتَ حاجةٍ وفَقد.

ثلاثةُ أيام لم أفعل بها شيئـًا غير طلاء منزلي دون مساعدة أحد. اخترتُ ألوانـًا ربيعيّة من بنفسج وأصفر وأزرق سماويّ.. ألوانـًا قد تبدو غريبةً

على حائط منزل، لكنها ناسبت تماماً حالةَ التمرّد التي اجتاحتني، وانغمستُ فيها.. لم أخشَ انتقاداً، ولا تسلّل الخوف إلى مخدعي وبلّل وسادتي.

لأول مرّة أجد نفسي سيّدةَ خياراتي.. لا يعكّر صَفوَ نبضي شيء، ولا أراني مضطرةً للقبول بما لا أحب. أرتكب حماقاتٍ طفوليّة، ثم أجالس ذاتي وأستمرّ في الضحك ساعات.

وشيئاً فشيئاً صرتُ أنظر إلى أنوثتي بشيء من الرضا، دون أن أقع في قبضة ضميرٍ لائم..

أن أكون فتاةً، لا يعني أن ثمّة خطأ ارتكَبتُه في حق الآخرين، أو أنّ قدراً أسود سيكون من نصيب كل من سيرتاد حياتي.

أن أكون فتاةً، يعني أنني أملك كسواي الحقّ في أن أنعم بحياةٍ وانبعاث، لا أن أتقوقع بعيداً عن أحلامي خوفاً من تبكيتٍ وتقريع.

أن أكون فتاةً، يعني أن فراشةً بداخلي ستنطلق ذات حياة، وسينبت الزهر حيث تتطاير ويصير للوجود عطرٌ ومعنى.

أنجزتُ طلاء منزلي الصغير وكلّي فخرٌ بما فعَلْت.

عملي لم يكن مثاليّاً بالتأكيد، فهي المرّة الأولى التي أمارسه فيها، لكن النتيجة بدَت مُرضيةً مع مرتبة ابتسامة.

اللون الأزرق السماوي انتقَيته ليزين الصالة، والأصفر جعلته يملأ جدران المطبخ، أما البنفسجيّ فقد صار يعزف نغماته على جدران غرفتي الصغيرة ويُضفي عليها بهجةً بنكهة الأمل.

أنا أعشق اللون البنفسجيّ. وقد أدركت جدّتي ذلك منذ صغري، فجعلت معظم مقتنياتي بلونٍ بنفسجيّ. من فساتين وأحذية ودفاتر ودمى، حتى وسادتي وأغطيتي معظمها أخذ اللون البنفسجيّ.

أنا فتاةُ البنفسج..

لقبٌ أضفته عليّ إحدى جارات جدّتي المقرّبات- تلك التي أوصلَتني ذات كآبةٍ إلى منزل والدي - فصرتُ أترقّب مرورها في الذهاب والإياب، أسرع إليها لإلقاء التحيّة، فتمسح بيدها على شعري الطويل قائلة: «اشتقتُ إليكِ يا فتاةَ البنفسج»..

أذكر وقتها أن ثمّة شعور غريب كان يتسلّل إليّ.. يتغلغل بين مساماتي، فتزداد ضربات قلبي، وتعبُرني رغبةٌ بالتحليق والغناء..

الآن فقط.. وبعد مرور سنوات، عرفتُ أن أمّـًا افتقدتُ حضورَها، كانت تتجسّد في أيّ كلمات حانية تتوجّه إليّ، فيرتدي أصحابها روح أمٍّ من مرمرٍ وياقوت.

لا أريد الآن أن أستعيد الماضي حتى لا تخترق ذاكرتي صورٌ كرهتُ ألوانَها وتوقيتَ التقاطها، فأنا على عتبة حياةٍ جديدة وعليّ أن أمتطي صهوة أيامي وأقودها نحو ما ينبض له قلبي ويستكين.

* * *

أجمل ما في وضعي أنّي بدأتُ أتابع دراستي الجامعية عن بعد في إحدى أشهر الجامعات الخاصة التي تعتمد هذا الأسلوب في التدريس.

في كلّ لحظة تمرّ عليّ لا أستطيع سوى أن أتذكّر طيبة جدّتي وقلبها الذي ينبض ورداً. حتى بعد أن غادرَت الحياة، لم تترك عالمي وظلّت حارسةَ أحلامي ويداً أتشبّث بها لتدفع عني شرور الكون وأحقاده.

بعد وفاتها تركت لي إرثـاً من مشاعر تُغنيني عن استجداء أفئدةٍ من رماد، ومالاً أستند عليه في معركتي مع مستقبل مجهول الهوية. كانت مدركة أن كونـاً لفَظني ساعة ولادةٍ لن يعود ليضمّ ضعفي على حين حاجة، فبذلَت لي كل ما تملك ولم يكن ذلك بالقليل. هذا ما عرفته مؤخراً عندما أتممتُ الثامنة عشرة، وتسلمتُ أوراقـاً ثبوتيّة بالإرث. حتى بيتها الذي ترعرعتُ فيه آل مصيره إليّ، ولكن باعتباره مبنى قديم عاف عليه الزمان وتركت عليه الحرب بصماتها، فقد أصابته التشقّقات وما عاد قابلاً للاستقرار والسكن. وقبل انتقالي إلى منزلي الجديد قمتُ بزيارته بعد سنواتٍ من الهَجر، زرعتُ بين حناياه قبلاتي، ثم جمعتُ بعضـاً من ذكرياتي المُودعة في صندوقٍ خشبيّ، وغادرته تاركةً حكايا طفولتي تغفو هانئة وادعة..

وحدها شجرة الورد الجوريّ التي استدعَت عبَراتي، ووجدتُني أقف أمامها تملأني غصّةٌ موجعة. أعرف أنها لن تخسر بريق وجودها، فمن رعاها طوال سنوات إثر وفاة جدتي وغيابي الطويل لن يدعها لقدرٍ أسود

ينال من حُسنها. ورغم ذلك، أوجعني فراق تلك الجميلة التي ارتديتُ اسمها وصارت كتوأمٍ.. كصديق.

صحيح أنّ إرث جدتي كان كافياً لأهنأ بحياةٍ جميلة، لكن الالتفات للدراسة فقط بدا لي كئيباً وباعثاً لتضجّرٍ كبير. وهذا أمر طبيعيّ طالما أن عزلتي وانطوائي لم يشملا فقط الجيران بل تجسّدا في غيابٍ كامل للأصدقاء.

منذ طفولتي، لا أصدقاء لي.. لم أنجح مطلقاً في التقرّب من زميلة في الصف، ولا تركتُ مساحةً للآخرين للتودّد إليّ.. كنت دائمةَ الهروب من أيّ اختلاط، حتى لو أدى ذلك إلى حرماني من رحلات وحفلات..

هي مرّةٌ واحدة دُعيتُ فيها إلى حفل عيد ميلاد إحدى زميلات الصفّ، ورأيتُ نفسي مجبرةً على الحضور.. بالطبع الدعوة لم توجّه إليّ مباشرة، وإنّما كان للمصادفة دورٌ كبير. حدث ذلك عندما التقت جدّتي بوالدة زميلتي عندما كانت تشتري بعض المستلزمات.. توقفتا لبرهة وتبادلتا أطراف الحديث، ثمّ كانت الدعوة التي لم تردّها جدّتي واعدةً السيّدة بحضوري، ظنّاً منها أنها تهديني سعادةً ورضا.. بالطبع لم أتمكّن من الرفض ووضع جدّتي في موقف محرجٍ، فآثرتُ الصمتَ مع تمرّدٍ يرغي ويزبد في داخلي وأحاول قمعه.. إثر ذلك، وقبل موعد عيد الميلاد بيوم، أصبتُ بوعكةٍ صحيّةٍ طرحتني فراشاً وما عدتُ قادرةً حتى على

الكلام.. يومها أخبر الطبيب جدّتي أنّي لا أعاني من أيّ مؤشراتٍ مرضيّة خطيرة، وقد يكون السبب مجرّد إجهادٍ عاديّ!!

بالتأكيد أنا لم أفتعل المرض، لكنّ بركاناً قُمع في الأعماق، ثار ذات إرهاق، ونالَ منّي.

لم أكن أبالغ في إحجامي عن الآخرين، وردّة فعلي المأساويّة.. فأنا على يقينٍ بأن النأي بالنفس عن أيّ شخصٍ أو حدثٍ يبدو الحلّ الأمثل للاحتفاظ بالقدر اللازم من التوازن النفسيّ..

الصديق هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يتغلغل في تفاصيل أيامك وحياتك، وأن تشاطره أحزانك قبل فرحك.. وهذا ما لم أُردْه ولم أُطِق احتماله. لا أريد لأيّ شخصٍ أن يعرف من أمري شيئاً.. ولا أتمنى لوَرد أن تكون موضع استهزاءٍ أو شفقةٍ من أحد.

لطالما شعرتُ بخِزيٍ كبير من كوني أنتمي إلى والدَين من صلب، من يُتمٍ قسريّ عِشتُه بينما يغرق من يُفترض بهم أهلي، في سعادةٍ فادحة دون أيّ تأنيب ضمير..

لذلك ابتعدتُ قدر المستطاع عن أيّ حياةٍ اجتماعية، واستغنيتُ عنها بدايةً بحضن جدّتي السخيّ، ثمّ بذكراها التي رافقت خَطوي فاكتفَيتُ، وما زلت، بحضورها في قلبي رغم الغياب.

في مثل هذه الظروف، تراءى الحلّ الأمثل العثور على عملٍ يملأ فراغي، ويشتّت وَحدةً تصحو على وقع أنفاسي، ترافق أرَقي، ثمّ تغفو معي على الوسادة..

ولكن، ماذا تستطيع فتاةٌ في هشاشتي المتوارية أن تعمل؟ سؤال ظلّ حائراً بين تلابيب الفكر، حتى تعثّرتُ بالإجابة على عتبة بابي ذات صدفة.

كان صباحاً مكتنزاً بالغرابة ذاك الذي صحوتُ فيه مبتهجةً دون أن أدري سبباً لذلك.. سارعتُ إلى مرآتي وصرتُ أتأملّ شعري الذي كان منساباً قبل أن تأتي عوامل التغيير وتنال من امتداده.. ابتسمتُ لجرأةٍ صارت في قبضتي، بعد سنوات من الارتباك النفسيّ..

أشعر أن ثقتي بذاتي بدأت تزهر. أحتاج بالتأكيد موسماً كي تنضج ويحين موعد القطاف، لكن سكينةً كالتي وصلتُ إليها تعتبر خيرَ بدايةٍ لما سيكون.. وهكذا تمنّيت.

طرقٌ خافتٌ على الباب راود سمعي.. ظننتُني أهذي، لكن تكرار الطرقات حمل إليّ اليقين بوجود زائر..

ترى من سيأتي لزيارتي في مثل هذا التوقيت الصباحيّ؟..

عمّي العجوز «خلدون»، حارس المبنى، هو الاحتمال الوحيد، فلا أحد غيره يرتاد بابي ليتفقّد أحوالي.

ظنّي غدا صواباً عندما فتحت الباب لأجده أمامي بوجهه المتجعّد المبتسم. ألقى التحيّة سريعاً وقبل أن ينتظر ردّاً، مدّ يديه الممتلئتين قائلاً:

«هـذا خبـز طـازج صـنعَته زوجتـي، وهـي تتمنـى أن ينـال استحسـانك آنستي»..

رائحـة الخبـز اخترقـت أوردتي وسـرَت في الشـرايين، ورأيتُنـي أتلقـف الهدية بشغف ونهـمٍ كبيرين. وقبـل أن أبـادر بالشـكر، كـان «خلـدون» قـد توارى في المصعد مغادراً..

مطوَّقـاً بأوراق الجرائد، بدا الخبز شهيّاً بحيث لم أتمكّن من مقاومته، ورحت أقضم منه وأتلذّذ بسخونةٍ وطراوةٍ لم أتذوّقها منذ أن كانت جدّتي تصنع لي خبزها الطيّب كلّما أرادت تعويضي عن اهتمامٍ افتقدتُـه.. هكـذا ملأها الاعتقاد أن إغداق العطاء مـن أيّ شـيء سيكون وسيلةً لمَحوِ أثـر جُرمٍ ارتُكبَ بحقّي. لكن نظريةً كهذه أثبتـت فشـلها مـع تقـدُّمي في العمـر، ذلك أنّي تيقّنتُ من أن العطـاء المـاديّ لـم ولـن يكـون موازيـاً أبـداً لمَنحٍ عاطفيّ يُشبع الروح والوجدان.

انتهت جولتي الأولى مع خبزي الطـازج، فوضعـت مـا تبقـى منه علـى الطاولة وارتميتُ على الكرسيّ وقد اعترتنـي ضـحكةٌ مزّقـت هـدأةً كامنةً بين جدراني المطليّة ثورةً وتمرّداً..

عندما هدأت هيستيرية الضحك، أخذتُ لفافة الجرائد بما تحويـه مـن بقايا خبز واتّجهتُ إلى المطبخ لأُودِعَها هناك..لفـت انتبـاهي كتابـةٌ بخـط عريض على الواجهة العلوية للجريدة، فكان أن وضعـتُ محتواهـا داخـل كيس وبدأت بقراءة ما كُتب..

هـو إعـلانٌ عـن وظيفـة نـادل شـاغرة في مطعـم فـاخر يُـدعى «حوريّـةَ البحر». والغريب أنه يقع في الشارع الموازي للمكان الذي أقطن فيه.

وقفـتُ مذهولـة، ورحـت أعيـد قـراءة الإعـلان حتـى خلتُني حفظـت سطوره بنقطها وفواصلها.

أيُعقل هذه المصادفة؟!

هل يمكنني أن أمارس عملاً كهذا؟!

ولِمَ لا؟!..هي تجربةٌ جديدةٌ أخوضها.. فإن لم تلائمني أغادرهـا دون أيّ خسـائر، طالمـا أن الهـدف يكمـن في مجـرّد الـتخلّص مـن ملـلٍ بـدأ يستشري في الروح والجسد.

شعرتُ برضا تشوبه نشوةُ انتصارٍ على خيباتٍ سبق وضـرَبت أرضـي، وتبعيّةٍ عشتُها كنت فيها برتبةٍ مهمّشة.

هو القرار قد أُخِـذ.. قـد يحتمـل الخطأ أو الصـواب.. لكـن حريّتـي في الاختيار تعتبر بحدّ ذاتها نصراً جاء بعد انهزام مرير.

***

الفصل الرابع

إنه يوم ميلادي التاسع، وأنا أفتقد حضوركِ جدّتي..

أنتِ أضفَيتِ على هذه الذكرى أهميّةً قد تكون أعظم ممّا أستحق، وأعلم أنّكِ تقصّدتِ ذلك.. كنتِ تريدين مني أن أنظر إلى ذاتي وأنا راضيةٌ عن وجودي وواقعي بل وفخورةٌ بتفاصيل أعيشها معكِ، وتمنحني الثّقة بالحياة.

احتفيتِ بي كما لو كنتُ أميرة، ورفَعتِني على عرش اهتماماتك وكأنّ الكون لم يشهد ولادةً تفوق انبعاثي.

بدت لي هذه الاحتفاليّة حدثاً مهيباً، عليّ أن أستعد له وأكون على مستوى رِفعته. لذلك وقبلها بأسابيع، كنت أخرج مراراً وتكراراً معكِ لشراء احتياجات المناسبة من زينة وفساتين وهدايا كثيرة أنتقي بعضها بنفسي ويظل الباقي خبيئةً أنتظر اكتشافها، لحظةَ دهشة.

وبعد أن تنتهي جولاتنا الشرائية، كنتِ تعبُرين بي إلى مرحلة الإعداد في المنزل.. نعلّق الزينة المبهرة في جميع أرجائه، وحتى أمامه، فيدرك الجيران أن حدثاً استثنائياً لجدّتي قد حان توقيته، دون أن ننسى شجرة الورد الجوري فنجعلها بمنظرٍ مبهر كما تحتفي الأشجار عادةً ليلةَ رأس السنة..

ومع الهدايا، تبقى الذكرى مبهجة ومفعمة بالحنين.. كنتِ تتفرّغين وحدكِ لتغليفها وتوزيعها على الغرف لأقوم فيما بعد بعمليّة حماسيّة للبحث عنها واقتناصها.. ما زلت أذكر حجم البهجة التي تعبُرُني كلّما عثرتُ على واحدة، وتراقُصَ خَفقي وأنا أرفع الأغلفة لأتعثّر بدهشتي قابعةً في لعبٍ وأحذيةٍ وقصصٍ عن جنيّات، لا تقلّ عنهن جدّتي في قدراتها العجائبيّة على تحقيق الأمنيات..

أمّا عن الأطعمة، فيطول الحديث ويصير أكثر شهيّة.. لطالما رفضت جدّتي شراء حلويات جاهزة، وكانت تصرّ على تمضية وقتٍ طويلٍ في المطبخ تعدّ فيه أنواعاً لذيذة أحبها وأُخرى تبتكرها، وأشهد أنها سيّدة الاكتشافات.

استطاعت جدّتي أن تتفهّم رغبتي في العزلة عن أيّ وجودٍ صاخب، فصارت تحتفي معي بعيد ميلادي دون أيّ حضورٍ آخر.. ومع ذلك، لم نشعر مطلقاً أنّ ثمة شيئا مفقودا يعكّر صفو فرحتنا، بل رأينا دائماً أن احتفاليتنا ساحرةٌ وممتعة لدرجة الإبهار..

ولكن.. أروع ما في هذا الحدث كان أنتِ جدّتي.

لا أملك القدرة على أن أحصي عدد الجدّات في هذا العالم، لكن على الأقل أستطيع أن أجزم أنّ جدّتي من بينهنّ هي الأكثر دفئاً ورحمةً وملائكيّة..

أتصوّر ميلادي التاسع وأنت قربي جدّتي، كان سيغدو بهجةً وفَيض حنان. ولكنك رحلتِ في يوم مطير العبَرات، وتركتِ قلبًا صغيراً كاد يسكنُ لولا عباراتٌ أشبعَتني رضا ورجاء..

قلتِ لي:

«صغيرتي، أريدكِ أن تدركي أن الأمور لا تبقى على حالها، فما يوجعكِ اليوم، سينهار مع الزمن.دائمًا تتبدّل الظروف، ويأتي القدر بما هو جميل ورائع.. لا تيأسي، أو تسيئي الظنّ بالله.. سأغادركِ يومًا، وقد يكون ذلك قريبًا، فلا تبتئسي، وأنا سأكون رفيقة خطوكِ، وسيُنشد قلبي الفرح لو استمررتِ كما عهدتكِ فتاة البنفسج الطيبة المميّزة والناجحة باستمرار.. متأكّدةٌ أنكِ لن تخذلي إيماني بكِ، فالورد الجوري يبقى أصيلاً وعَطراً وفريداً مهما تنوعّت الزهور وكثرت العطور»..

يا لكلماتكِ التي انهمرت سلامًا على روحي، وجعلَت ضيقي الذي بعثرني ونال من سكينتي ما يقارب العام، في منزلٍ مشوّه الملامح لوالدين من سراب، يَعبُر كما السحاب الصيفيّ.

إذن، هو يوم ميلادي التاسع..

لكن مواسم الاحتفالات انقضَت منذ أن وطِئتُ عتبةً ليست لي، وخلّفتُ ورائي بيتًا من وردٍ ونبض.

نهاري يبدو عاديّاً جدًّا، بل أقلّ من اعتيادي.. وبالرغم من إجازةٍ بدأَت، وفراغٍ ملأ أروقة الروح، إلا أنني لم أجد ما يستحق عناء القيام به.

فبقيت في فراشي لساعةٍ متأخرة دون أن يثير ذلك قلق أحدٍ، أو يطرح تساؤلاتٍ عندهم عن سبب احتجابي..

معتادةٌ أنا على هذا الإهمال من أبٍ وأمٍّ وأخٍ ليس بأخ.. لكنه يوم ميلادي الذي جهدَت جدّتي لتَجعلني أرتدي قناعةً أنه الأروع.

أعرف أن الوضع بات مختلفًا، لكن تغييراً سريعًا لن يدخل حساباتي بهذه السرعة، وانتفاضةً في الفكر لن تتحقق إلا بمرور زمن..

تُرى هل يتذكَر والداي يومًا أتيتُ فيه إلى العالم دون أن أكون على مستوى توقعاتهما، وأرتدي لقبًا ذكوريًا يفخران به!!

عادةً يحتفظ الأشخاص في ذاكرتهم بتواريخ لأحداث تحتل أهميّة في وجدانهم، ولكن ولادتي كانت هامشيّة لدرجة أنهما سَهَوا عن اصطحابي إلى المنزل مدّة ثماني سنوات..

هي مفارقةٌ غريبةٌ.. مؤلمة..

في غرفتي قرّرتُ أن أمضي نهاري، فهو المكان الوحيد الذي أستطيع الاختلاءَ فيه بذاكرتي، معانقةَ حكاياها ، ومناجاةَ جدّتي التي بدت روحها حاضرةً وبقوّةٍ في كل ركنٍ من أركان روحي.

أعرف أنها ترقُبني، وتتمنّى أن لا تُصيبَني الوَحدةُ بالبكاء، وأنا لن أخذل ثقتها وسأُريها كيف صارت فتاة البنفسج قويّة، تعرف كيف تلملم ما انتثَر منها لحظةَ وهن.

جلستُ مع ذاتي أواسيها، ألملم حزنها، وأنفض عن كاهلها غبار الخيبة.

هكذا علّمتني جدّتي.. أن أقدّم لنفسي طبقاً شهيّاً من أمنيات رغماً عن توقيتٍ مُرِّ المذاق.. أن أوجّه دفّةَ شراعي نحو أفق ورديّ بعيداً عن عصفٍ وأعاصير.. وأن أصنع من الخيال وشاحاً أرتديه ويكون على قياسي ورغبتي..

❋❋❋

كنتُ أُسرع الخُطى لأتمكّن من اللحاق بجدّتي التي أصرّت على الاستعجال رغم تعبٍ ومرض ألمّا بها، دون أن أتيقّن مغزى لذلك.. التفتَت نحوي مراراً بوجهها المضيء، وصارت تدعوني لعدم التباطؤ.. ورغم غموضٍ غزل نسجَه فوق ملامحي، إلّا أنّني استشعرتُ سعادةً ملأتني حماساً ونشوة.

تُرى، ماذا تخفي جدّتي في جعبتها؟ اعتدتُ على مفاجآتها، لكن ثمّة ما هو مختلف هذه المرّة!

سِرنا في طريق ترابيّ، تسوّره أشجارٌ باسقاتٌ من الجهتين، ويتراءى من خلفها امتدادٌ لغابةٍ تبدو بأفقٍ غير محدود. رائحة الورد عبّقَت في المكان، ففاضَت دهشتي، وصرتُ أفتش عن مسبّبٍ لها دون أن أعثر على أثر.

نحن نعيش في بلدةٍ جبليّة صغيرة، لكن مكاناً كهذا لم يعبر أمام ناظري من قبل.. رغم جماله، يطوي بين جذوع الشجر وأوراقها هدأةً غريبة!!

وعلى حين شرود، أتاني صوت جدّتي الرقيق يناديني.. لا أعرف كيف فقَدتُها خلال لحظات!!

نداءٌ آخر جاء من عمقٍ غير بعيد، فرحتُ أتتبَّع مصدر الصوت. أوغَلتُ في الغابة بشيء من التوتر، حتى بَهَت النور وأضحت العتمة أشدّ، ووجدتُني فجأةً أمام بابٍ حديديٍّ ضخم نالَ منه الصدأ. دنوتُ بحذر، وما إن ولجتُ حتى وقفتُ مشدوهة!

مئاتٌ من أشجار الورد الجوريّ فاض بها المكان، حتى غدا أشبهَ بحديقةٍ لجنّيات الحكايا الطيبات..أصابني العطر بخدر في الشعور، فمكثتُ مكاني عاجزةً عن البهجة.

ومن فرط الذهول، نسيت أمرَ جدّتي، ورحتُ أتنقّل بناظري من شجرةٍ إلى أخرى وأذوب أكثر في ضوعٍ مَلكَ مني الوجدان.

نداءٌ جديدٌ وصلني من كوخ صغير عثرتُ عليه جاثماً وسط خَضار كثيفٍ مهيب. مشيتُ بخَطوٍ سريع، أُسابق خَفقي، وكلّي يقينٌ أن دهشةً ستعانقني.

كانت العتمة حالكةً في الكوخ، لكن سلاماً داخليّاً غلّف قلبي بهالةٍ من نور. فتقدّمتُ وكأني أعرف تفاصيل المكان. الصمت بدا سيّداً، والسكينة ملأت فراغ الروح.

فجأةً، سطع ضوءٌ باهر، ووجدتُني في قاعةٍ مليئة بعلب الهدايا ذات الأغلفة المبهرجة.. وغير بعيد عني استقر بيانو أبيض خطف قلبي قبل النظر..

هو البيانو نفسه الذي تمنّيته عندما خسرت أول أسناني..يومها وضعتُه في ورقةٍ كتبتُ عليها أمنيتي وأخفيتها تحت الوسادة، وعندما خلدتُ إلى النوم قبّلتُ خبيئتي ثلاث مرّات ورحت في إغفاءةٍ طويلة. هكذا أخبرتني جدّتي أن أفعل، ومن يومها وأنا في انتظار جنيّتي أن تأتي وتحقق الأمنية..

صارت أصابعي تلامس مفاتيح البيانو بغنج وشعرت بها تتراقص بطلاقةٍ وانسياب وكأنها على أبواب ابتداع سمفونيةٍ جديدة. بدوت في قمّة النشوة، وأنا أرى حلمي يرتاد واقعي. الآن فقط صار بإمكاني أن أعيش الموسيقى حياةً، أن أحكي حكاية أنوثتي المتعبة عبر نغماتٍ وترنيمات.. والآن صار لي صديق!

سأتعلّم العزف لأستحقّ صداقة الحلم.. وحتى أكون وردةً جوريّة لا بدّ وأن أفوح ضوعًا ولحنًا وبسمات..

في غمرة هذياني، جاءني صوت جدّتي ضاحكًا.

اعترَتني قشعريرةٌ عندما لمحتها بلباسٍ أبيض فضفاض، تقف عند الباب، دون انحناءةٍ أصابت جسدها مؤخراً بسبب مرضٍ في العظام صفعها على حين بغتة.. مسكينةٌ جدّتي، رغم سنوات عمرها السبعين إلا

أنها نعمَت بصحةٍ جيّدة حتى أتاها ذاك المرض الغريب وسبّب لها ضموراً سريعـًا في العظام.

ضحكةٌ أخرى منها أعادت إليّ سكينتي ووجدتني أرتمي بين أحضانها لأخبرها أنها جنيّتي التي أنتظر، وأن أحلامـًا تسكن النبض لا يمكنها أن تكون إلا معها وبها..

بيدها الطريّة، مسحت على شعري الطويل، وراحت تدندن بنبرتها الدافئة:

«ريما ريما الحندقّة.. شعرك أشقر ومنقّى

واللي حبّك بيبوسك.. واللي بغضك شو بيترقّى»..

صوتها الملائكيّ نفذ إلى عمق الوجدان.. ورفع عن النبض عبءَ فَقدٍ كاد أن يولّد أزمة.

يا لها من احتفاليّة رائعة بعيد ميلادي.. أردتها أن تطول أكثر، وأغفو زمنـًا بين أحضان جدّتي التي اشتقتُها منذ رحيلٍ كئيب.

***

صحوتُ من غفوةٍ ناعمةٍ في توقيت الغروب.. سحابةٌ من سكينةٍ عبَرَت فوق سريري، حملت بين ثناياها مطراً من حنين.. أشعر بسعادةٍ افتقدتُها منذ خسارةٍ فادحة، مع أنها المرّة الأولى التي أعثر فيها على ذاتي وحيدةً يوم عيد ميلادي.

أبَت جدّتي رغم رحيلها أن تتركني في مناسبةٍ أرادَتها الأروع، فأتَتني على جناح الحلم وأشبعَتني دهشة..

كان حلماً أشبهَ بفرحٍ.. باحتفال..

حمل إلى قلبي راحةً، وقوّض نظرية الفقد والانهزام. فعلاً ستبقى جدّتي دائماً، رغم غيابها، المرأة التي أستند إلى تجاعيدها الطريّة وأستمدّ منها حكمةَ التصرّف ورهافةَ الشعور..

ومع هدأةٍ عبق بها المكان، استشعرتُ لهفةً عارمةً لمحادثتها والبَوح لها بالكثير..

أمسكت قلمي ورحتُ أخطّ لها رسالةً، مع يقينٍ أنها ستأتي لتقرأها وتزرع بين حروفها قُبلات من وَردٍ وحُبّ..

«جدّتي.. أشكرك بدايةً على حضوركِ يوم ميلادي، وإهدائك لي أماناً هو أثمنُ ما أريد. أدركتُ اليوم أن الاحتفال بأعياد الميلاد ليس غايةً بحدّ ذاته، بل وسيلةً لتدارك بعض الخسائر النفسيّة ولملمة ما تبعثر من الذات جرّاءَ أخطاء الآخرين.

شعرتُ أنّ الأهم من الاحتفال هو الإحساس بالرضا والتصالح مع الواقع رغم تحدّياتٍ وأزمات.. وأنّ التفكير في الغدّ يجب أن يحتلّ المكانة الأولى من الاهتمام حتى لا يكون الوجود هامشيّاً.

أعدكِ، كما فعلتُ دائماً، أن أجهَد لأكون.. واطمئنّي، فإن قلباً صافياً احتضنني علّمني أن لا أردّ الصفعة بأخرى، بل سأبقى وفيّةً لطيبة استنشقتُ عطرها منكِ ذات حياة..».

وضعتُ رسالتي داخل صندوقٍ خشبيّ وغلّقتُ عليها الأقفال، ثمّ همَمتُ بالخروج من غرفتي لأستبين سببَ هذا السكون الجنائزيّ. تجوّلتُ في أرجاء المنزل دون أن أعثر على أحد.. الجميع خرج أثناء إغفاءتي الطويلة، وعلى الأغلب لم يأتِ على بال أحدهم أن يطرق بابي ليسأل أو يتبيّن سبباً لاحتجابي.

اكتشاف الفراغ هذا أتاني كبشرى خير.. سعدتُ بوَحدتي وخَلوتي.. لم أتمنَّ أكثر من هذه السكينة لأنهي بها نهار ميلادي. سئمتُ صخباً بائساً يتشّح به هذا المنزل الباذخ خشونة، والغارق في عتمة مصالح لا تعترف بالمشاعر. لا أريد من هؤلاء الذين أشاطرهم السكن أن يعودوا قبل أن أستلهم من عزلتي مزيداً من البهجة.

أحسستُ بالجوع ينهش معدتي التي استمرّت خاويةً طوال ساعات مديدة. أسرعتُ إلى المطبخ لألتقط ما تجود به الثلاجة من الأطايب خاصة وأن عزومةً على العشاء كانت مقامةً عندنا ليلة أمس.. عزومةٌ لم أتذوّق منها سوى مزيدٍ من الأوامر بالمكوث مكاني، وعدم الظهور أمام ضيوفٍ على قدْرٍ من الأهمية..

في الواقع لم أفهم معنى هذا «القدْر» الغريب، ولا كيف يمكننا أن نقيس أهمية الأفراد بالرجوع إليه!! وما هي المعايير التي يمكن الاستناد إليها حتى نعرف متى يتّسع هذا المقدار أو يضيق!!

في المطبخ، تبيّنتُ فعلاً من كمّ الأطعمة وتنوّعها أن حدثًا جللاً جرت تفاصيله على الطاولة أمس.

ولكن ما بالي بكل ذلك؟! فليستضيفوا من يرغبون، وليناقشوا قضايا عظيمة الشأن، فأنا أنتمي إلى عالمٍ مختلف، وروحي هائمةٌ في بلدةٍ جبليةٍ صغيرة حيث ألهو مع ذكريات هي الأغلى..

أنجزتُ مهمّتي بشراهة وعدتُ أدراجي لأستكمل مراسم احتفالي الفريدة.

غرفتي، هذا الركن المتّشح بالبياض، ينقصها الكثير لتشبه مكانًا كان لي في بيت جدّتي الدافئ.

هناك، شعرتُ بي أميرةً.. ليس لأن الحيّز الذي احتواني كان باذخًا في الغلاء، بل على العكس. فوالدي يعدّ من أغنياء العاصمة ويهوى جمع التحف الباهظة واللوحات النادرة، حتى الأثاث يستقدمه من الخارج ليتمكّن من المباهاة به أمام الأقارب والأغراب في الحفلات التي يقيمها باستمرار. رغم كل ذلك، لم أشعر مطلقًا بالتآلف مع الأشياء المحيطة بكياني، بل خاصمتُها فأشبَعَتني فراغًا..

أمـا في منـزل طفـولتي السـابق، فلـم أتـرك رُكنـاً إلا صـادَقتُه.. حتـى الجدران كان لي معها لقاءات وحـوارات.. وكثيـرةٌ هـي المغـامرات التي عشتُها في غرفتي مع كراكيبي ولعبي.

لـم يمـرّ يـومٌ دون أن أنفـرد بأغراضـي لأحكـي لهـا تفاصيـلَ نهـاري.. وخبايا تزعجني وأمنياتٍ دغدغَت قلبي الصغير.

حتـى سـريري كـان مركبـاً بـلا شـراع، يحملنـي كـلّ ليلـةٍ في رحلـةٍ سندباديّة، وأظلّ طـوال الوقـت أحكـي لـه عـن أحـلام عبـرَت وأُخـرى مـا زالت تتبختر في البال.

إذن، عـدتُ أدراج وَحـدَتي، وجثمـتُ علـى سـريري محاطـةً ببيـاضٍ كئيب.. وعلى الرغم من وقتٍ طويلٍ أمضيته في نـومٍ عميـق، إلا أن نعاسـاً بدأ يفرض سلطته على الأهداب.فتغلغلتُ تحت الغطاء وكدتُ أرتحل في سبات عميق..

ولكن!!حدث ما لم يكن في البال..

على حين بغتة، فُتح الباب ليطلّ وجه والدتي بملامح أقـرب للابتسـام. طوال ما يقارب العام لـم ألمحهـا تبتسـم، ولا فكّـرَت أن تـأتي لتتفقـدني في غرفتي.. إذن، ما بالها!!!

استقمتُ في جلستي والعيون تكاد تمطر دهشة..

تُرى هل تحقَقت أمنيتي يومَ ميلادي، وصارت أمـي أطيـب لدرجـة أن تأتي لمعايدتي!!

لم يطل الاستغراب كثيراً، إذ تقدّمت أمي وجلست بجانبي، ثمّ همّت بالحديث:

«أتمنّى أن تكوني قد قضيتِ نهاراً مسليّاً عزيزتي.. في الواقع لم نرد أن نوقظكِ قبل أن نخرج، إذ رأى والدك أنه ليس من داعٍ لذلك..».

صمتَت قليلاً، وهي تنظر في عينَيّ.. فاعترت قلبي رعشةٌ وغصّة.. هناك شيءٌ بالتأكيد.. هي لم تأتِ لمعايدتي، ويبدو أنها على غير علمٍ بالمناسبة..إذن ماذا تريد!!

أخذَت نفساً عميقاً، وعاودَت الكلام:

«تعرفين عزيزتي أنك ومنذ وصولك إلى المنزل منذ ما يقارب العام ما زلتِ غير قادرةً على الانسجام معنا كعائلة واحدة.. دائماً تعيشين عزلة ووَحدة، وهذا أمرٌ غير اعتياديّ..»..

همهَمَت بعض الحروف، ثمّ تابعَت:

«نعرف أنكِ لستِ سعيدة هنا، ولا تشعرين بالراحة..مممممممم ..لذلك قرّر والدكِ، أقصد قرّرنا أن نجد حلّاً لهذا الفراغ الروحي الذي يسيطر عليكِ.. البارحة استقبلنا في المنزل أعضاءً من الهيئة الإدارية المشرفة على أكبر مدرسةٍ داخليةٍ في العاصمة. واتّفقنا على أن تلتحقي بها نهاية الإجازة الحاليّة. سيكون الاهتمام بكِ خاصاً تقديراً لموقع والدكِ.. مممممم.. ما رأيك؟ أليست فكرةً جميلة؟؟».

صارت تسرح بنظراتها في أنحاء الغرفة، في محاولةٍ منها للهرب من آثار صدمةٍ ضربت أصقاع ملامحي، ودون أن تنتظر ردّاً استوَت في وقفتها وغادرت غرفتي تاركةً روحي في وضعية انهزام.

لم أكن أعلم أن وجودي في المنزل بات عبئًا لدرجة الإقصاء!! رغم كل المعاناة التي أعيشها، لكن فكرة إبعادي مرّةً أخرى من قِبَل والدي بدت بغيضةً لدرجة الغثيان.. فعلاً لم أعد أحتمل مزيداً من الأفكار البائسة والإرهاق الروحي!!

يا له من يوم ميلادٍ.. غدرَني لحظةَ إيماني به.. غادرني حاملاً معه آخر رجاءٍ بحضنِ أمٍّ قد يغدو دافئًا ذات صدفة.. وأبى، رغم حضورٍ اشتقتُه لجدّتي، أن يهجرني دون أن يعصف هزيمة.

***

الفصل الخامس

عند السابعة صباحًا، توقّفت سيارة المرسيدس التي تقلّنا أنا وأمّي أمام مبنى ضخم يسوّره حائط حجريّ مرتفع، جعله أشبهَ بثكنةٍ عسكرية. ترجّل السائق حاملاً حقيبة أغراضي ووضعَها على الرصيف حيث استقرّ بانتظار نزولنا.

في السيارة، بدا الصمتُ سيّدَ المكان. فلا أنا عثرتُ بداخلي على طاقةٍ لأيّ كلام، ولا أمي أظهرت رغبةً في الحديث. كان على أحدنا أن يكسر هذا الجدار الجليديّ الذي ارتفع وتجذّر منذ ولادةٍ بائسة، لكن أحدنا لم يمتلك شجاعةً لذلك.. وصرتُ أسأل نفسي، ما جدوى الكلام وبثّ عبارات العتب أو الغضب، بل ما فائدة ابتداع حوارٍ في لقاءٍ قد يكون الأخير؟؟

عندما قرّر والدي أن يتخلّص من حضوري الذي لم يطل عنده، وإقصائي إلى ما يشبه المعتقل، لم يفكّر في استشارة أحد ولا حتى أمي التي عاشت عمراً بوجودٍ سلبيّ وكأنَّ على إرادةٍ قيودها. كان بإمكانها أن تعترض.. أن تطالب باحتضان ابنتها الوحيدة التي حُرِمَت منها طويلاً.. وأن تقف سدّاً يمنع إبعادي دون أيّ اعتبارٍ لمشاعري الطفوليّة.. لكنها لم تفعل!

والآن، وأنا على عتبة الرحيل، أراها تقف صامتةً غير مبالية.. حاولتُ أن أطيل مكوثي قربها فربما تستحضر أمومتَها قليلاً، تحتضن خوفي، وتزرع بداخلي أملاً بلقاءٍ قريب.. لكنها أيضاً لم تفعل!

فليتوقّف هذا العبث!

هكذا خاطبتُ ذاتي. ثمّ، فتحتُ باب السيارة وغادرتها دون أن أبثّ حرفاً من أبجديةٍ كادت أن تتلاشى لحظةَ خيبة.

تقدّمتُ باتّجاه باب الدخول، وأنا أجرّ حقيبتي دون أن أنتظر أحداً. وعند الباب توقّفتُ مع فيض من الدموع يأبى أن يسيل. لم ألتفت ولا حاولتُ طرح أيّ سؤال، وإنما رغبتُ أن أستعجل الزمن لأتخلّص سريعاً من لحظةِ وداعٍ لن تكون عاطفيّةً، بقدر ما ستحمل مزيداً من التمرّد والعصيان.

في مكتب الإدارة تحدّثَت أمي مطوّلاً مع المسؤولة وقامت بتوقيع عددٍ من الأوراق. ثم أجرت اتصالاً هاتفياً، عرفتُ من ضحكةٍ مجلجلةٍ انسربت من السماعة، أنها تحادث والدي الذي تجلّى في ذروة الانشراح.. وكيف لا يكون، وقد تخلّص من ذاتٍ يخجل من وجودها في حياته لارتكابها جرم الأنوثة!!

أخيراً حان التوقيت لإنتهاء عرضٍ استمرّ ما يقارب العام، لم يكن يوماً على المستوى المطلوب، ولا عرف أبطالُه كيف يرتدون أدواراً لم

تكن لائقةً بهم.. وحدي أنا من جهدت لتحسين الأداء، ووحدي من خرجت بخسارةِ روح..

كانت المسؤولة الإدارية قد غادرت الغرفة لتترك لنا فسحةً لتبادل مشاعر طبيعية تختلج بين أمٍّ وابنتها الوحيدة لحظة فراق.. لكنها أخطأت التقدير، فلا أنا في وضعيّة فتاة مدلّلة ستعيش وحدةً لأوّل مرة، ولا والدتي كانت يومًا امرأةً تنبض أمومةً فطريّة ويعتصر قلبُها لفراق فتاتها البائسة..

عندما اقتربت أمي مني في محاولةٍ لافتعال تأثرٍ لم أشعر به، تراجعتُ إلى الخلف ورحتُ أفتش في حقيبتي عن -اللاشيء- في رسالةٍ واضحة لرفض أي عناقٍ أو كلام.. ولأول مرّة تكون أوتار التفاهم بيننا شديدة الحساسيّة، بحيث أنها أدركت سريعًا ما أريد، فحملت حقيبة يدها وغادرت المكان، تاركةً قلبي في توجّسٍ وحيرةٍ وترقّب.

هكذا.. صرتُ غريبةً في مكانٍ لا أقارب فيه ولا معارف.. مكانٍ لا أعرف كيف ستكون تردداته على نبضي، ومتى ستنتهي محطّتي فيه.. الشيء الوحيد الذي ارتديتُه يقينًا أنني الآن على أبواب حياةٍ جديدة، وعليّ أن أمسك قلبي بقبضةٍ من نار..والأهم من كلّ ذلك، أن تبقى وصيّة جدّتي لي حاضرةً دائمًا، فأنا الوردة الجوريّة الأصيلة والقويّة، وسأكون دائمًا كما أرادت.

لحظات مرّت وأنا متصلّبة في مكاني، عاجزة عن اتّخاذ أيّ خطوةٍ، في انتظار ما سيكون..شعرتُ بالفراغ يُطبق على الفكر ويزيدني شغوراً وخواء..

ولحظةَ شرود، فاجأتني المسؤولة الإدارية بصوتها الجهير، توجّه إلى سكوتي الكلام:

«إذن أنتِ الصغيرة وَرد.. حسناً، أنا السيّدة جلنار المديرة المسؤولة عن إدارة هذا المكان بكل تفاصيله..».

نظرتُ إليها، فصعقني ذاك الجمود المريب في الحدقتين، فأشحتُ بصري عنها في ارتباكٍ واضح..

دقيقة صمتٍ، ثمّ عاودَت الكلام:

«تعلمين أنكِ الآن في حرمِ مدرسةٍ داخليّةٍ نظاميّة، وستمكثين هنا مدّة طويلة، ربّما حتى تُنهي سنوات دراستك.. لذلك عليكِ أن تعتبري المكان بيتاً لك مع ما يترتّب على ذلك من ضرورة الالتزام الكامل بكافة الأوامر والتعليمات المتعلّقة بنظامنا الداخلي.. وطبعاً لا هوادةَ مطلقاً ولا لين مع كلّ من تخالف أو تتجاوز.

التوصيات التي أتتني بشأنك لن تعفيكِ من المسؤوليّة. بل على العكس، ستجعلكِ محطّ أنظارنا. فاحذري من أيّ خطأ.. »..

عبارات قد تبدو طبيعيّةً في الأحوال العاديّة، لكن يختلف الأمر كثيراً عندما تعيش وضعية خذلانٍ روحيّ.. تكون عندها مشبعاً بانكسارات وانتظارات يائسة، ويصبح لكل شيءٍ وقع زلزالٍ على الذات المنهكَة..

وأنا، كطفلةٍ في التاسعة، شعرتُ حينها أنّي على شفير صرخةٍ وبكاء. فعلاً، لم أعد أستطيع أن أحتمل مزيداً من الوجود السلبيّ والقلوب المشبعة جليدا..

بعد أن أنهت السيّدة جلنار كلامها، راحت تتمشى أمامي ذهاباً وإياباً وكأنها على وشك اتخاذ قرار وطنيّ مصيريّ.. في تنقلها، صرتُ أتأمل تفاصيلها لأتعرّف على هذا الكائن الذي سيتولى مهمة متابعتي خلال فترة طويلة.

امرأة أقرب لقائدٍ عسكريّ بصوتها الأجشّ ووقفتها العامودية ولباسها الرسميّ المؤلّف من بنطالٍ كحليّ وقميصٍ أبيض.. حتى ملامحها توحي بحدثٍ كارثيّ.. نظارات تواري خلفها عينين قاسيتين حادّتين، الأنف دقيقٌ رفيعٌ وبارز، والفم مع صغره يخفي أسناناً كبيرة ترسم بتعرجاتها خارطة العالم. أما الحاجبان فيشبهان في امتدادهما وسوادهما سكّةَ حديدٍ بانتظار قطار يدكّ جنباتها بعنف..

هي امرأة فارعة القوام، بعظام ناتئة.. تستطيع أن تتبع مسيرة دورتها الدمويّة عبر شرايين بارزة تمتد من رجليها وحتى أعلى رقبتها..

تُرى هل يمكنني رؤية الطعام وهو يتسلّل في جوفها وأرقب رحلته منذ لحظة دخوله بين أسنانها باذخة التشوّه!!

ناسيةً وجودها الفظّ وكلماتها الصارمة، دفعتني هذه الخاطرة للابتسام الذي لم ينسحب عن ملامحي إلا مع صرخةٍ مدويّةٍ زلزلت غرفة المكتب وبعثرَتني نتفاً..

«ورد.. ما الذي يدعوكِ للابتسام!!! أتستهزئين بكلامي؟! يبدو أنني أمام فتاةٍ عنيدة وتحتاج فعلاً إلى إعادة تأهيل كما أخبرني والداكِ..حسناً سنرى ماذا سنفعل.. استعدي وجهّزي حقيبتكِ سأرافقكِ إلى مخدعك حيث سترتبين أغراضك.. استعجلي الحركة فأنا لا أطيق بلادةَ الأشخاص.»..

ومضَت في سبيلها..

***

هل أنا فتاةٌ عنيدة؟ وهل أحتاج فعلاً إلى إعادة تأهيل ليتمكّن الآخرون من تقبّل حضوري؟

أهكذا وصفتني أمي، وتحدّث عني أبي!!

احتدمتُ غيظاً ورغبتُ في الاعتراض على كلام السيّدة جلنار، لكنها لم تترك لي فرصةً لأيّ ردّة فعل. خرجَت من الإدارة بملامح غاضبة، وتركتني بوضع توتّرٍ واشمئزاز.

أمسكتُ حقيبتي وأسرعتُ للّحاق بها قبل أن تستشيط غضبـًا، وأدخل معها في خصومةٍ لا أحتمل تردداتها.

سرنا في ممرٍ طويل تصطف أبواب الغرف على يمينه ويساره.. المكان أشبه بسجن قرأتُ عنه كثيراً في قصصي البوليسيّة التي أعشقها، إذ تُخَصّص كل غرفةٍ لمجموعةٍ من السجناء يتشاركون فيها الإقامة والمنامة وحتى دورة المياه..ولكن مع اختلافٍ واضح. فجميع السجون التي عرفتُها قراءةً وتصوّرتها بفكري كانت بجدران رطبة لا ألوان فيها ولا حياة، وترك الزمن بين ثناياها آثار عفنٍ واصفرار.. أما هنا، فالمشهد مختلف.

الألوان تبدو زاهيةً، واللوحات تملأ الجدران في عرضٍ بديع. كل شيءٍ تراءى نظيفـًا ومرتّبـًا، وازدانت الزوايا بشتولٍ متنوعة من الزهور والورد، حتى الأرض تبدو لامعةً كبلورٍ نقيّ. شعرتُ براحةٍ تتغلغل بين ثنايا الروح، وارتديتُ تفاؤلي وشاحـًا حريريّـًا.

ربّما ما ينتظرني في هذا المكان سيكون أكثر رِفقـًا بطفولتي من عذابات عرفتها..وربّما أعثر هنا على قلوبٍ دافئة، ولكن بعيداً عن هذه السيدة جلنار، بالتأكيد..

أمام بابٍ لا يختلف عن سواه توقّفنا. ودون أن تلفظ كلمة، طرقت السيّدة جلنار على الباب ثلاث طرقات خفيفة وفتحته. كان ثمة صخب منبعث من الداخل، وما إن ولجنا حتى ساد السكون.

وجدتُني في غرفة واسعة الامتداد وتتراصف الأسرة فيها على الجانبين في ترتيب متناسق. الجدران بلونٍ ورديّ باهت وتتخللها الستائر الحريريّة المدلّاة بلون بنفسجيّ رائع.. الأَسِرَّة وعددها ستة، لونها أبيض وأغطيتها تجمع ألوان قوس قزح.. وغير بعيدٍ عن مكان وقوفي خزانة بيضاء ضخمة تغطيها المرايا من جميع الجوانب.

خمس فتيات بلباس النوم وقفن في تحيّة شبه عسكريّة، بمجرّد أن مثَلَت السيّدة جلنار على الباب.

وكأني كائن فضائي، أسرفت الفتيات في النظر إليّ والتمعّن في تفاصيلي. صارت كل واحدة توشوش الأخرى عن اكتشافٍ ربّما عثرت عليه في مظهري.. حوالي خمس دقائق، والسيّدة جلنار في وقفتها تتأمّل تصرّف الفتيات في صمت مطبق. ثمّ، على حين بغتة، صدح صوتها الغليظ:

«هذه ورد.. شريكتكنّ الجديدة في الغرفة، هي أصغر منكنّ سنّاً وبالتالي ستكون في صفٍّ آخر.. ستحتلّ السرير الشاغر، وتقع عليكن مهمة تعريفها على كل الواجبات المترتّبة عليها كطالبة وكنزيلة في مدرستنا. أتمنى أن تحسنّ معاملتها كما اعتدنا أن نفعل مع كل فتاةٍ تنضم إلينا.. مممممم.. لا أريد أيّ تأخير عن موعد الإفطار، عليكنّ جميعاً الحضور في الوقت المناسب في غرفة الطعام..»..

وكرجلٍ آليّ استدارت مكانها وخرجت مخلّفةً وراءها فتاةً ترتعش رهبةً، وتنفث خوفها زفرات.

ما إن غادرت السيّدة،حتى عادت الفتيات إلى صخبهنّ وصرن يتضاحكن ويتقافَزن على الأسرّة بطريقةٍ غريبة متناسيات وجودي نهائيّاً.

تنفّستُ الصعداء، وزال عني بعض التوتر.. سأقوم بترتيب حاجيّاتي بمفردي بعيداً عن أيّ تدخّل.. كم خشيتُ أن أضطرّ إلى الحديث معهنّ والإجابة عن تساؤلاتهنّ والقبول بمساعدتهنّ وأنا التي أكره أيّ اختلاطٍ أو تجمّعٍ..

أنا فتاة الوَحدة التي تستكين بعيداً عن الآخرين.. أستمدّ طاقتي من اختلائي بذاتي، أزداد راحةً في تواصلي معها، وأكتفي بقلبي أنيساً..

فكرة أن أتقاسم مكاناً واحداً مع غيري لم أستسغها مطلقاً، وأثارت في داخلي قلقاً وريبة. كيف لي أن أفعل ذلك وأحتفظ بخبيئاتي وسط ثرثرتهنّ؟ كيف سأحتمل أن أعثر على حكايتي تتقافز على الشفاه وترتاد جلسات الفتيات وسهراتهنّ؟!

ماذا لو وجدتُني مكشوفة الماضي أمام الجميع، ومحطَّ شفقةٍ أو استهزاء؟!!

هذا ما لن أطيقه أو أسمح به.. وسأصرّ على إحكام قبضتي على ذاتي وخباياها، فهي تعنيني وحدي، وأيّ محاولة لإقتحام خصوصيتي سأتصدى لها بشراسة.

***

مكانٌ غريبٌ بكل معنى الكلمة، جمع كل التناقضات بين حناياه!

لم أختبر نظاماً دقيقَ التفاصيل كالذي عايشتُه هنا، حتى مع مواعيد الوجبات الثلاث التي تبدو شبه مقدّسة.

في البداية، لم أفهم معنى عبارة «ضرورة الالتزام» المرتبطة دائماً بمواقيت الطعام الجماعية. وهذا أمر اعتياديّ بالنسبة لي، أنا التي لم أعرف ما يسمى «الجماعي» منذ الصغر.. عند جدّتي، كنت أتناول وجباتي وحدي، تحت رعايتها بالتأكيد، نظراً لخصوصيّة مواعيد وأنواع أطعمتها التي تلائم أمراضها المتراكمة.. وعندما انتقلتُ إلى منزل أهلي، بقيت طوال عام لا أفارق غرفتي إلا للضرورة القصوى، لانعدام إمكانيّة التواصل مع أيّ فرد وبسبب شعورٍ مقيتٍ بالرفض لوجودي من الجميع.

فجأةً وجدتُني ملزمةً بتحرّكات جماعيّة دقيقة، لم أدرك أهمية الالتزام بها بادئ الأمر، مما وضعني في موقف لا أحسد عليه.

كان ذلك أولَ يومٍ وصلتُ فيه إلى المدرسة، وبعد أن رتّبتُ أغراضي شعرتُ بإنهاكٍ شديد.. فتمدّدت على السرير وكدتُ أرتحل في إغفاءة طريّة. لكن صخب الفتيات وكلامهنّ في غرفتنا المشتركة، نبّهني إلى موعد الإفطار الذي جاء. هممتُ بالوقوف، لكن طاقةً انسحبت مني وعدتُ إلى الاسترخاء، ثم غبتُ قي نومٍ عميق..

لا أعلم مقدار الوقت الذي مضى، وجلّ ما أذكره صوتًا متوحشًا للسيّدة جلنار يزعق فوق رأسي، ممّا سبّب لي رعبًا بدا واضحًا على الملامح.

«نائمةٌ والكلّ بانتظاركِ!! ما هذا الاستهتار!!

وما هذه اللامبالاة المرتسمة على وجهك؟؟ أغبيةٌ أنتِ، أم تتقصّدين الاستفزاز؟؟.. عرفتُ منذ رأيتكِ أنّني أمام فتاةٍ لئيمة.. لا أستغرب ما قاله والداكِ عنكِ.. فعلاً تحتاجين إلى نظام حياةٍ صارم حتى تعودي إلى رشدكِ وترتسمي كفتاةٍ مهذّبة من سلالة عائلةٍ عريقة..»..

هذه هي المرّة الثانية التي أسمع فيها وصفًا قبيحًا لي من أهلي على لسان هذه السيّدة الفظّة، شعرتُ بدمي يغلي، واستشطتُ غيظًا.. وقبل أن أطلق أيّ اعتراض، صدح صوتها من جديد:

«عقابًا على استهتاركِ وعدم انضباطكِ، ستظلّين بدون طعام مدّة يومين كاملين.. ويُمنع عليكِ الخروج من الغرفة حتى في مواعيد الدروس الصفيّة، كما يُمنع عليك التعاطي مع أيّ أحد.. »..

بدا وجهها على وشك الانفجار جرّاء احمرارٍ صبغ كل زاويةٍ فيه، واعترتني رعشةُ خوفٍ من أن تقترب مني أكثر وتغرز أنيابها الضخمة في جسدي على غرار ما تفعله وحوش الحكايات.. هذه الفكرة دفعتني أيضًا للابتسام في وقتٍ غير ملائم لذلك، مما جعل السيّدة جلنار أو «جلجل» –

كما أسميتها فيما بعد – تبرق وترعد وتمطر شتائم غريبة ربّما استحضرَتها من مشعوذات القصص الشريرات..

عندما أنهَت حالة الهستيريا التي اعترَتها، خرجَت من الغرفة وهي تتمتم عباراتٍ غير مفهومة باستثناء كلمة «سنرى» التي تكرّرت أكثر من مرّة..

نتيجةَ هذه العقوبة، انفردتُ بذاتي في الغرفة بعيداً عن زميلاتي اللواتي لم يتجرّأن على الاقتراب مني خوفاً من عقوبةٍ قد تطالهنّ.. بدا ذلك الوضع مناسباً لي، فغرقتُ في سريري وسرحتُ مع حكايا الذاكرة والنسيان..

لكن.. بعد مرور ساعات،شعرتُ بالجوع يغرس مداميكه في جوفي.. منذ غداء اليوم السابق لم أتناول شيئاً، بسبب التوتر الذي اعتراني في انتظار عمليّة تهجيري من مكان إلى آخر..

حلّ المساء، ومن فرط التعب عجزتُ عن الوقوف للذهاب إلى الحمّام. شعرتُ بدوارٍ شديد، فانغمستُ في سريري وغبتُ في هواجسي.

صباح اليوم التالي كان التعب قد نال من جسدي، وشعرت بألمٍ حادّ في الرأس والمعدة وبعجزٍ تامّ عن الحركة.. حاولتُ أن أصرخ فلم تطاوعني الأبجدية.. شريكاتي في الغرفة بدونَ في غاية البهجة لسببٍ أجهله، فلم يُعِرنَ انتباهاً لحالتي وغادَرن المكان وسط ضحكات ومزاح.

وحدي على السرير، رحتُ أتألّم بصمت.. وشيئاً فشيئاً صارت ترتفع حدّة الألم حتى تخطّت قدرة جسدي الضعيف على الاحتمال.. وآخر ما أذكره، صرخةٌ مدويّةٌ أطلقتُها ثم غبت عن الوعي..

عندما صحوت، وجدتُني وحيدةً على سريرٍ غريبٍ، في غرفةٍ تعجّ بالأدوية والمحاليل..

أنا في المستشفى!!

استجمعتُ ذاكرتي وتيقّظتُ لما جرى.. قسوة تلك السيّدة «جلجل» مريبة، كيف تتركني بدون طعام فترةً طويلة، وحتى في هذا المكان أراها غائبةً بدلاً من حضورها للسؤال والاطمئنان!

شعرتُ برهبةٍ شديدة،وحنينٍ عاصفٍ لقلب جدّتي الدافئ.. لو كانت على قيد الحياة، لما وصلتُ لما أنا فيه من تعبٍ ووَحدةٍ وانهزام!

عدّةُ أيّام قضيتُها وحيدةً في المستشفى، لم يأتِ فيها أحدٌ لزيارتي، حتى أمي لم تفعل ذلك، ممّا زاد من شرخٍ عميقٍ امتدَّ بيننا منذ زمن..

عندما تماثلتُ للشفاء عدتُ برفقة السائق إلى المدرسة والدراسة والأنظمة المشددّة، وإلى عالم غليظ الملامح تحت رعاية امرأةٍ بلا نبض..

الغريب في الأمر أن نظاماً صارماً طُبّق عليّ، قابله استهتارٌ واضح من قبل الإدارة في التعامل مع بعض الفتيات كشريكاتي في الغرفة مثلاً.. كنّ يخرجنَ في نزهات مستمرة، ويتغيّبن عن الصفوف كثيراً، ويقضين وقتاً لا بأس به من الليل في حديقة المدرسة يتمازحن ويتضاحكن بصوتٍ عالٍ..

هذا الأمر أثار استغرابي بدايةً، ثم ما لبث أن زال عندما عرفت أن للحريّة في هذا المكان ثمنًا يجب تأديته للسيّدة «جلجل»، وأن مساحة هذه الحرية تزيد أو تنخفض على قدر المبلغ الذي تستوفيه..

وأنا، كفتاةٍ منسية، لا أملك بالطبع مبالغ نقدية أدفعها، إذ تولّى أهلي مهمّة دفع المستحقات المفروضة على إقامتي ودراستي مكتفين بذلك عن أيّ تدخلٍ آخر، مما اضطرني إلى المثول لأشدّ القواعد غِلظةً دون قدرةٍ على الاعتراض.

كانت ثمّة شرفة واسعة شهيّة تمتد على طول الطابق الثاني لمبنى المدرسة، المخصّص فقط لغرف الإدارة ومكان استراحة المُدرِّسات وإقامة المشرفات.. إنّه الطابق المحظور على الفتيات إلا أولئك اللواتي يملكن ثمنًا غير قليل لرفاهيّة زيارته وقضاء أوقات ممتعة على الشرفة، خاصّة في وقت الحرّ الشديد.

لطالما حلمت بنفسي أقف على تلك الشرفة وأرقب مشاهد رائعة تختلف باختلاف رغبتي.. فمرّة أراها بإطلالةٍ على البحر وأُخرى ألمح منها أوديةً سحيقةً تجري فيها الأنهار، ومرّات أخرى أطلّ من خلالها على حدائق وبساتين غنّاء.. ومع كلّ إطلالة، كنت أحيا مغامرةً رائعة.

محاولتي الوحيدة للتسلّل إلى الشرفة باءت بفشلٍ ذريع، وانتهت بعقوبةٍ لئيمةٍ فرضتها السيّدة «جلجل» عليّ، تمثّلت بوضعي في حبسٍ انفراديّ معتم مدّةَ يومين، مع وجبةٍ صغيرةٍ وحيدةٍ قُدّمت لي مساء اليوم الأول فقط.

ومن بين التناقضات التي استدعت امتعاضي، الاهتمام المبالغ فيه بنظافة المكان واستخدام العنف اللفظي الشديد مع العاملات عند أيّ إهمال صغير، بحيث كنت أحاول من وقتٍ لآخر أن أسجّل تقصيراً بسيطاً في نظافة الغرفة أو الممرّات أو دورات المياه دون أن أنجح في ذلك. هذه النظافة الماديّة للمكان كانت يقابلها قذارةٌ معنويّةٌ استشرَت كداءٍ في نفوس معظم المقيمات في المدرسة.

تناقضٌ كهذا أثار انتباهي رغم صغر سنّي، والسبب في ذلك جدّتي.. لطالما حدّثتني عن أهميّة الصدق مع النفس والآخرين، وأخبرتني أن أكبر مظاهر الكذب تتجلّى في عدم التناغم بين سلوكيات الأفراد وما يقولونه. بحيث يمكننا الحكم على الأشخاص وتكوين رسمٍ لشخصيّاتهم بمجرّد تتبع سلوكياتهم ومقارنتها بأقوالهم..

عندما حدّثتني جدّتي عن ذلك، كنتُ صغيرةً لدرجة ظننتها تلاعبني في الكلام لا أكثر.. لكن هذا المكان الغريب بما يحتويه من تناقضات صارخة أعاد إحياء ذاكرتي الطفوليّة ومنحني فرصةً لاستعادة ما عجزتُ عن استيعابه مسبقاً. وفهمت من جرّائه أن النظافة هنا هي مجرّد واجهة لاستقدام مزيدٍ من الزبائن ليس إلّا، وأنه عليّ أن أكون أقلّ براءةً في التعاطي مع من يحيطون بي حتى لا أقع فريسة مؤامراتٍ وقذارات..

***

الفصل السادس

هناك ما أسمّيه «ثقافة المكان»..

مصطلح ابتكرتُه بعد تجارب كثيرة عبرَتني. وأقصد به مدى قدرتنا على التكيّف مع المكان، بصرف النظر عن أيّ تحديات أو منغّصات.. أن نمتلك ذكاءً مكانياً يساعدنا على استنباط أو حتى افتعال أيّ أمرٍ ايجابيّ يُسعفنا لاستكمال الحياة، وفي أيّ حيّزٍ قد تُفرض علينا الإقامة فيه..

في مراحلي العمريّة المختلفة حاولتُ قدر الإمكان أن أحمل هذه الثقافة بين مكوناتي المفاهيميّة وأطبقها. كنتُ أَجهد لأتمكّن من البقاء على قيد الحلم، رغم شعورٍ قاتلٍ بيُتمٍ قسريّ.. فعلتُ ذلك بطريقة عفويّة، وعندما كبرت عثرتُ في جعبتي على المصطلح المناسب لهذه الحالة.

عند جدّتي كان الأمر سهلاً، لأن حناناً منحَته لي حمل إليّ سكينةً ودفئاً.. سعت دائماً لاحتضان مخاوفي كلّما استحضرتُ غياب الأهل وتخلّيهم عني، وكثيراً ما تناست مسؤولياتها وأوجاعها وضربت براحتها عرض الحائط لترفع حزناً استوطن نظراتي.. فعلاً جعلتني أستعيض بوجودها عن العالم بأسره.

المسألة بدت أكثر تعقيداً عندما انتقلت إلى منزل والدي بسبب كميّة المشاعر السلبيّة التي أُغدِقت على براءتي وجعلتني على شفا انكسار.. للأسف لم أتمكّن من رؤية أهلي سوى ككائنات مؤذية للمشاعر عَلَيّ أن

أتفادى لقاءها أو الاصطدام بها، حتى لا أقع فريسة معاملةٍ قاسيةٍ لا أطيقها خصوصاً ممّن يفترض بهم أنهم الأقرب إلى القلب.

أيقنتُ أنّه عليّ أن أتدبر أمر عزلتي وحدي وأعيش حكايةً أبتدع ملامحها من ذكريات وخيالات، وأغرق في تفاصيلها بعيداً عن واقعٍ مهترئ يعتصر روحي.. مثّلَت غرفتي لي حينها، رغم افتقادها لمعالم أحبّها، أماناً يطويني بين ثناياه كلّما عصف قلبي حزناً وفاضت ملامحي خذلاناً..

أمّا في المدرسة، وبسبب افتقادي لمكانٍ خاصٍ أنفرد به مع الذات فصارت المشكلة أكثر تعقيداً.. والمعضلة الأكبر تمثّلت بكون زميلاتي في الغرفة وحتى في الصفّ الدراسي حمَلنَ عداوةً ظاهرةً لي دون أيّ سببٍ واضح.. عرفتُ في وقتٍ لاحق، بعد أن أوشكتُ على تخطّي عتبة ذاك المكان، أن الأمر لم يكن يتعلّق بكوني فتاةً سمجة أو غير قابلةٍ للحبّ، بل لأنّ تكويني الجماليّ يتخطّى المتعارف عليه ويرفعني إلى مصاف أميرةٍ من بلادٍ عجائبيّة.. أنا الفتاة الصغيرة رشيقة القوام، ذات الشعر الغزير المنسدل حتى أسفل ركبتيّ، بعينين واسعتين وفم صغير متناغمٍ مع بشرةٍ طريّة بلون الزهر.. أضف إلى ذلك بالتأكيد تفوقّي الدراسيّ وتميّزي في كل المجالات والنشاطات حتى الموسيقيّة منها.

بدأت الحكاية بعد التحاقي بالمدرسة الداخلية بفترةٍ وجيزة. كنت قد بدأت أنسجم مع الأنظمة الصارمة وأتقيّد بها قدر الإمكان حتى أتجنّب ردّات الفعل شديدة الغِلظة للسيّدة «جلجل».

في غرفتي التزمتُ صمتاً وسكوناً، ولم أعثر على شهيّةٍ لأيّ تواصلٍ ولو بسيط مع أيّ فتاة، ليس فقط بسبب تفضيلي للوَحدة ولكن أيضاً لأنّهن لم يبذلنَ أيّ محاولة للاقتراب مني أو حتى تعريفي بأسمائهنّ بل تعمّدن إهمالي، لدرجةٍ ارتديتُ فيها قناعة أنّ ثمّة خَطباً أعاني منه ويدفع الآخرين للاحتجاب بعيداً عني.

كثيرةٌ هي المرّات التي تعثّرتُ فيها باستهزائهنّ ومحاولتهنّ لإغاظتي أو حتى التسبّب لي بمشكلة مع السيّدة «جلجل» ولو عن طريق الافتراء، لتنتابهنّ إثر ذلك حالةٌ من الضحك الهستيريّ.

أذكر يوماً مطيراً كنتُ أنجز فيه فرضاً مدرسيّاً في المكتبة بعيداً عن ضجيج الفتيات وحشريتهنّ التي أُبغض. أخذتُ وقتاً ليس بالقليل، وتقصّدتُ ذلك فلم أكن أملك رغبةً في لقاء أحد.

فضّلتُ التفرّد بالذات، والمكتبة بدت خيرَ مكانٍ لذلك.

إنها الذكرى الثانية لرحيل جدّتي وانكشاف روحي على الفراغ العاطفيّ. حاولت قدر المستطاع أن أكبّل مشاعري حتى لا يفيض حزني وتغزوني العَبرات. ولمزيدٍ من الأمان، لجأتُ إلى المكتبة، وهي المكان الأكثر هدوءاً، لكونها تبقى شاغرةً طوال العام باستثناء فترة الامتحانات.

إذن إتمام فرضي المدرسيّ لـم يكـن هـدفـاً، بقـدر هروبـي نحـو عزلـةٍ اشتقتُها واحتجتُها..

عندما دخلتُ المكتبة، لم تكن المسؤولة تشغل مكتبها كالمعتاد. ربّما تعـاني مـن التعـب أو لـديها مـا يشـغلها بعيـداً.. بـدا هـذا الوضـع ملائمـاً لخلـوتي، فاجتـاحتني راحـةٌ وتنهيـدةُ سـلام. وضـعتُ حقيبتـي في المكـان المخصّص وسارعتُ إلى مقعدي الذي اعتادني، في زاويةٍ غارقةٍ بين أكوام الكتب والرفوف الخشبية.

سـاعات مضـت، لـم أرَ فيهـا سـوى ذاتي الصـاخبة، الغارقـة في جليـد المشـاعر ولامبالاتهـا مـن قِبَـل الآخـرين.. حاولـت جاهـدةً أن أسـتجمع طاقتي للحياة، وصرتُ أراود نفسي عـن البكـاء، وألملـم مـن هنـا وهنـاك لحظات فرح، لأجعل منها جسراً نحو سكينةٍ تمنّتها لي جدّتي دائمـاً.

في خلوتي، استنشقتُ عطر الذاكرة، وحلّقـتُ معهـا بعيـداً في زمـنٍ حلـو المـذاق. اسـتعدتُ ضـحكاتي، وحكايـا شـقاوتي.. حتـى حـزني الـبريء تصفّحتُ أوراقه ولثَمتُ صورَ ذكراه.. صار كلّ شيءٍ بطعم السكر، وامتلأ فراغي بنبضـاتٍ طريّـةٍ ورفيـفٍ متنـاغم للقلـب. فاشـتعلتُ رضـا وفاضـت روحي طمأنينة.

ثـمّ، داهمتنـي الحيـاة كعشـقٍ.. كزلـزال، وشـعرتُ برغبـةٍ في الـرقص والتحليـق. مـا عـاد الجلـوس يرويني، فـأنجزت فرضـي سـريعـاً وهممـتُ بالخروج.

فجأة صخبت المكتبة بضجيج مريب.. أصوات متداخلة لفتيات ونساءٍ لم ألتقط من بينها سوى زمجرةٍ مدويةٍ للسيّدة «جلجل»..

ماذا يحدث؟!

وعلى حين ذهول، وجدتُني مطوّقةً بعشرات الرؤوس والوجوه الساخرة.. وشوشات وهمهمات وضحكات مستترة، ثم صرخةٌ مشوّهةٌ بالشتائم قذفت بها السيّدة أمام دهشتي:

«تسرقين الكتب يا فتاة النحس والشوم!!»..

بدايةً ظننتُني أهذي، لكن كيف الهروبُ من حقيقةٍ لا تحتمل التأويل..

أنا سارقة؟!

وقبل أن أبثّ حرفًا من الأبجدية، لمحتُ حقيبتي التي تركتها عند باب المكتبة مرميّةً على الأرض وبداخلها عشرات الكتب الصغيرة مرصوفة جنبًا إلى جنب..

من فرط التعجّب، وقفتُ متصلّبةً عاجزة عن النطق والحركة. وإذا بصفعةٍ غليظةٍ تنهمر على براءتي وتجَرِّح دهشتي وكبريائي.

***

في غرفة الإدارة وقفتُ متّهمةً، مهزومة.. لم تترك السيّدة «جلجل» أمامي أيّ مجالٍ للدفاع عن النفس. الجرم بالنسبة لها بدا واضحًا. وَرد الفتاة غريبة الأطوار، استغلّت فرصة خلو المكتبة من أيّ أحد وواكبت

توقيت غياب المسؤولة عنها، ثم افتعلت حجّة الدراسة لتقوم بسرقة عدد من الكتب التي ضُبطت في حقيبتها قبل أن تغادر..

هكذا تمّ تسجيل الواقعة في ملفّي الشخصيّ، ثمَ حُدّدت العقوبة الملائمة لجريمتي الشنيعة التي تمثّلَت بمنعي لمدة شهرين من دخول المكتبة، مع وجوب قيامي بمهمة تنظيف الغرفة التي أتشاركها مع الفتيات لمدّة شهرٍ كامل.

يومها انتابني شعور إحباطٍ مقيت، ورغم ذلك أقفلتُ منافذ الحريّة أمام العَبَرات ومارستُ عليها استبداداً حتى تحتجب عنوة. رأيتُ في ضعفي هزيمةً لطالما كرهَتها جدّتي وأوصتني بتجنّب الانغماس فيها..

مساءً، عندما دخلتُ الغرفة وجدتُها خالية، فتفرّدتُ بالسرير وارتحلتُ مع الدموع.. أكثر ما أوجعني هو خسارتي لمكان كنت أعتزل فيه العالم كلّما ضجّت الروح وصخبت تعبًا.

وعلى حين حزن، نبّهتني ضحكاتٌ عالية إلى وصول الفتيات، فافتعلتُ الإغفاءة. كان ثمّة حديث يدور بينهنّ، وعندما أصختُ السمع أصابني الجمود.

كنّ يَسخرنَ مني ومن سذاجتي وكيف لم أتنبَّه لوجودهنّ في المكتبة وقيامهنّ بوضع الكتب في حقيبتي.. ثمّ ردّة فعل السيّدة «جلجل» عندما أخبرنَها بالسرقة، وأنها لم تتقصَّ ولم تسأل وكأنها في انتظار أيّ شكوى ضدي حتى تُفرغ حقدها عليّ..

ليلَتها ناديتُ جدّتي طويلاً في سِرّي واستحضرتُها في الخيال. شعرت بحاجتي إلى أمانها وطيبتها. ومن فرط رغبتي في وجودهما، أتتني على جناح الحلم، حملتني بين ذراعيها ومسحت بمنديلها العَطِر دموعي، ثمّ أهدتني قبلتين حانيتين، ووشوشت في أذني:

«صغيرتي وَرد.. لا تبتئسي، العالم مليء بالبشاعة وإن وقفتِ حزينةً على عتبة كلّ قبح لن تستطيعي استنشاق ضوع الحياة.. انتقي من بين الرداءة قليلاً من الياسمين وانثريه حولكِ.. كوني دائماً وردتي الجوريّة التي يطغى عطرها على المكان، ويطفئ جمالُها الروحيّ أيّ لهيبٍ مستعر..»..

هكذا دائماً، ترتدي جدّتي ثوب المنقذ، وتأتيني في موعدٍ خريفيّ لتصحبني إلى حيث يزهر ربيع الروح.

لم تكن هذه الحادثة الوحيدة التي اصطدمتُ فيها بصَلَفٍ وحقدٍ خلال سنوات دراستي، بل كثيرةٌ هي المواقف التي ولّدت فوضى داخلي وجعلت شجرةَ عزلتي تزهر وتتجذّر أكثر..

في صفّي الدراسيّ طبعاً، لم يكن الوضع أفضل.

قدرٌ غريبٌ ذاك الذي وضعني مع أشخاص لم أعثر بينهم على ذاتٍ تشبهني في شيء، أو أتعثّر بمن يراني فتاةً تصلح لصداقةٍ ولو عابرة. كثُرٌ هم من وضعوني في خانة «اللّاصلاحية»، وأصدروا أحكامهم الغليظة عليّ.

صفّدوا قدرتي على التواصل وقطعوا المعابر بيني وبينهم.. هذا كلّه دون أن أتسبّب لأيّ منهم بجرحٍ أو وجعٍ أو ضيق..

ومع ذلك قرّرت البقاء على قيد الأمل، والرّجاء بغدٍ أفضل وأيّامٍ تكون أشبه بانهمارٍ لطيف بعد جفافٍ وجَدب. أصررتُ على تخطّي عتبة الواقع المرير، وصناعة مستقبلٍ يماثل بصفائه سحاب صيفٍ نقيّ.

الفتيات في صفّي تجاوَز عددهنّ الثلاثين، ومع ذلك وجدتُني على مقعدي الدراسيّ وحدي، فلكل فتاة رفيقةٌ ترغب حضورَها معها، إلّاي..

لم يشكّل ذلك عقدةً بالنسبة لي، لكن نظرات الدونيّة والتصغير هي ما تركت بصماتها على براءتي، ودفعَتني لطرح استفهامٍ عن سبب ذلك..

لماذا دائماً أجدني محاطةً بعيونٍ مستهزئة وأنا التي لم أعترض حُلُم أحد؟!، تُرى هل عرَفن بقصّتي وانتباذي من قِبَل أهلي؟!، هل يظهر ضعفي من صمتٍ أرتديه ونظراتٍ حائرة؟!

أسئلةٌ لم أتجرّأ طرحَها على أحد، وظلّت كنُتوءٍ تشوّه ملامح راحتي وتجعل من سكوني مَسخًا قبيحَ التكوين.

فتاةٌ وحيدةٌ حاولت أكثر من مرّة أن تتقرّب مني، استغربتُ سلوكها خاصّة عندما كنتُ أبدي لها رفضًا، فتقابلُني بابتسامةٍ لطيفة..

وفي مرّةٍ انشغلتُ فيها بجمع أغراضي داخل الحقيبة استعداداً لمغادرة الصف، دنَت مني وبعد أن ألقَت التحيّة صارت تساعدني وتتمتم بكلماتٍ

لطيفة عن إعجابها بشخصيّتي واتّزاني واجتهادي وبأنها تتمنّى صداقتي لو أحبَبت..

بدايةً اعترتني رعشةُ قلقٍ أمام هذا التصرّف اللائق الذي لم أعتَده مطلقًا. حاولتُ إقصاءها بهدوء، لكن إصرارها دفعني للانصياع.

مضى أسبوعٌ كامل، استحالَت فيه «يارا» إلى شِبه صديقة وبتُّ على استعدادٍ لأشرّع لها باب القلب.

صارَت تزورني في غرفتي، وتردّ بعنفٍ على الفتيات عندما يحاولنَ استفزازي حتى شعرتُ بها بديلاً عن عزلةٍ كنت ألجأ إليها، وشيئًا فشيئًا أصبحت مكمن خبيئاتي.

وفي صباحٍ مشبعٍ ببرودة، كنتُ في غرفة الموسيقى أكمل بعض التدريبات على البيانو استعداداً للامتحان النصفيّ، وإذا بمجموعةٍ من زميلات الصف يدخلنَ قاعة الموسيقى ويبدأنَ بالحديث بصوت مرتفع.. لم أُعِر هذا التصرّف أيّ اهتمام حتى رأيتهنّ يتغامزنَ عليّ ويتحدّثنَ عن فتاةٍ بغيضةٍ لا يطيقها أحد، حتى أهلُها دائمًا يلجؤون إلى إقصائها خوفًا من سوء طالعها.. تجمّدت أناملي، وعجزَت عن الانسياب والعزف..

وعلى حين ذهول، لمحتُ «يارا» تتقدّم مني بملامح قاسية لم أعهدها بها، ثمّ انحنَت قليلاً متمتمة:

«سوءُ طالع مع غباءٍ كبير.. حقًا أنتِ مثيرةٌ للشفقة»..

ثـمّ قهقهـت بصـوتٍ مريـب، وانصـرفت هـي والفتيـات تاركـاتٍ قلبـي ينـزف علـى وَقـع أنـاملي المرتعشـة وهـي ترسـم «الحـزن»، «sadness»، معزوفتي المفضّلة، مطراً وحسرات..

هكـذا، حصـل مـا كنـتُ أخشـاه، ورأيتُنـي بمشـاعر عاريـة في موسـمٍ شتويّ.. ما عـادَت عُزلتـي تنفـع، ولا باتـت هنـاك إمكانيّـةٌ لأيّ تواصـلٍ أو اتّفاق.

وهكذا أيضـاً باتت وَحدتي مختومةً بإعلانٍ رسـميّ، موثّـقٍ مـن الإدارة والفتيات، وغدوتُ أشبه بطيفٍ بلا ظلٍ ولا أثر. الـبعض يعبُـر نبضـي دون أن يراني، والبعض الآخـر يترصّـد خفقـي بنيّـة استنباط مزيـدٍ مـن الحكايـا واستعراض بطولاتٍ وهمية تكون فيها قصصي الوسيلة والأداة.

بسبب كلّ ذلك وأكثر، قطعتُ عهداً على ذاتي، أن أظلّ وفيّةً لها، أحترم عزلتها، وألتزم قواعد خلوتها وتفرّدها بعيداً عـن أيّ عيـونٍ ترقـب وقلـوب تحقد.. وهذا ما كان.

❋❋❋

جميع الفتيات في المدرسة ينتمين إلـى عـائلات ثريّـة جدًّا، وبعضـهنّ بنات شخصياتٍ سياسية وفنيّة شهيرة. هذا ما أيقنتُـه مـن ملابسـهنّ الراقيـة والأموال الكثيرة التي يُغـدقنها علـى السـيّدة «جلجـل» مـن أجـل ارتكـاب سلوكيات، وما أكثرها، تشكّل تجاوزاً فاضحـاً للنظام الـداخلي! وهـو مـا عاينتُه أيضـاً مـن الزيـارات الدوريّـة التي يقـوم بهـا الأهـالي لتفقّـد أحـوال

بناتهنّ والاطمئنان على دراستهنّ وسكينة المكان الذي يضم فلذات أكبادهنّ..

في كلّ مرّةٍ يرتاد فيها أحد هؤلاء الأشخاص المهمّين المدرسة، كان المكان يضجّ غرابةً وكأننا على أبواب حدثٍ فريد. وهو فعلاً كذلك، لأن دخول ثريٍّ إلى مدرستنا يعني إغداق مزيدٍ من الأموال والمساعدات على الإدارة بهدف التفاخر ليس إلّا. تعتبر مدرستنا من أرقى مؤسسات التعليم الداخلي وأكثرها تميّزاً في العاصمة، لذلك فإن معوناتٍ تقدّم لها لن تضيف شيئاً إلى الخدمات المتنوعة، وإنما ستزيد حتماً من رصيد جيوبٍ لا ترتوي..

فلمَ لا يكون المَنح لجهاتٍ تستحقها ومؤسساتٍ تنتظر القليل لتقدّم الكثير؟!

فكم هي كثيرةٌ العائلات المعوزة في المدينة! وكم هي دور الأيتام التي تعاني نقصاً في أبسط مقومات الوجود وتترقّب أصحاب القلوب البيضاء ليمنحوا ما قد ينتشل أرواحاً من ضياعٍ أكيد!!

في توقيت تلك الزيارات، حتى السيّدة «جلجل» كان يضربها تحوّلٌ كبير غير متناسب مع شخصيتها المتعجرفة مطلقاً، فترتحل تلك المرأة الشرسة الحاقدة على الحياة، لتحلّ مكانها أنثى لطيفة المَعشر توزّع ابتساماتها على الحاضرين والعابرين.. دور لا يليق بها حتماً ولا بملامحها الغليظة وطبعها الفظّ، ويستطيع كل من يطالعها أن يشم رائحة

افتعالٍ ترتديه.. أمّا ملابسها الرسمية العزيزة على قلبها فتستبدلها بفستان غريبٍ كأطوارها، يجمع ألوان الطيف بتناسقٍ مثيرٍ للاشمئزاز. ولكنه رغم ذلك يبقى فستاناً يخفّف وطأة جمودٍ يعتري صلابة جسدها، فتصبح بمشيتها أليفةً للنظر.

أنا أيضاً أنتمي إلى عائلةٍ ثريّة، ووالدي الضابط المتقاعد (كما كان يدّعي) يحتل مكانةً اجتماعّيةً بارزة، وجميع معارفه وأصدقائه من كبار المسؤولين ورجال الأعمال الذين رأيتهم في الحفلات الصاخبة التي جرت في منزلنا أثناء إقامتي فيه..

لكنه لم يأتِ مطلقاً لزيارتي أو حتى السؤال عن أحوالي عبر الهاتف!!
حتى أمّي، منذ أن أودعَتني المكان ورحلت لم يظهر لها أثر.. غابت وكأنّ عبئاً سقط عن كاهلها فاستعادت حريّةً اشتاقَتها وباتت ترفض أيّ زيارةٍ تذكّرها بنكبتها عند ولادتي..

إذن أنا الوحيدة التي لم يفتقد غيابَها أحد.. بل أنا وحدي من اعتبر أهلُها أن أموالاً تُدفع أقساطاً للمدرسة هي إغداقٌ يفوق المقبول، وعطاءٌ غير محدودٍ يتطلّب شعوراً عظيماً بالامتنان مني.

وأمام هذا الوضع، لم أملك حقّ المطالبة بأيّ أمرٍ إضافيّ، ولا حتى شرف التواصل مع أيّ منهما.

كم أنا مسكينة؟!

لطالما تمنّيتُ أن أصحو على صوت المشرفة تطلب مني الاستعداد لاستقبال والدتي، أو لتخبرني أنّ هديةً أتتني منها بمناسبة أو بغير مناسبة، فقط لتُعلمني كم هي سعيدةٌ بوجودي ومقدار حبّها لي.. لكن شيئًا من هذا لم يحدث مطلقًا ، وبقيتُ قيدَ الانتظار سنوات..

في الواقع لا أعرف إن كنتُ فتاةً طيّبة، أو أن الزمن نال من دماثة روحي فاستحلتُ بقلب حاقدٍ حاسد.. ولكن غيرةً تستبد بي فتفيض بها جوارحي في كلّ مرّة كنت ألمح فيها واحدةً من زميلاتي وقد أتاها أحد أقاربها للاطمئنان.. لحظات مريرة أقضيها بتوتّرٍ وانقباضٍ وحسرة، يليها أرقٌ ليليّ يمتد حتى ساعات الصباح الأولى.

ربّما لو ولدتُ في أسرةٍ أخرى، لكنتُ الآن أنعم بدفءٍ وسلامٍ داخليّ، ولما رأيتُني منفيّةً في مكان كهذا مليء بالقباحة واللؤم.

في ذهني صورةٌ لعائلةٍ أتمناها، تضم أبًا عطوفًا يقضي نهارات وهو يكدح ليؤمّن لنا رغد الحياة، وأمًّا كزهرة النرجس طريةً فوّاحةً طيّبة، تستشعر حزني وتشاركني حكايا فرحي وتفاصيل أيّامي، وإخوة - لا يهم العدد - أقضي معظم وقتي بينهم نلعب، نتضاحك، ونتشاكس.. نختلف ونتّفق.. وأستعيض بهم عن أصدقائي وركن خلوتي.. أسرةٌ قد تكون بسيطة، تملك قوتَ يومها، لكنّها بقلبٍ من ذهب تُغنيني عن كونٍ بأكمله..

أصعب أيّامي في المدرسة، تلك التي استنزَفتُها وحدي في صمتٍ مطبق.. لا ضجيج فتيات ولا مشاكَسات.. لا مشرفات يرقُبنَ ويترّصدنَ ويتصيّدنَ الأخطاء.. لا صفوف دراسيّة ولا نشاطات.

إنها أيّام العطل الأسبوعيّة والإجازات السنويّة، التي تغادر فيها الفتيات إلى منزل ذويهنّ، بينما أبقى وحدي في هذا المبنى الضخم مع مشرفةٍ واحدة تستمتع بلعب دور السيّدة «جلجل» في غيابها.. فتصدر الأوامر والتعليمات والتنبيهات وتهدّد وتتوعّد وهي تعلم مسبقاً أنّ ريحاً ستحمل كلماتها وترتحل..

هي فتراتٌ صعبة، ليس بسبب تجدّد إحساسي خلالها باليُتم القسريّ وتغلغل مشاعر الحسد بين مسامي، ولكن أيضاً لأن أوامر الإدارة كانت تقضي بإقفال جميع القاعات وغرف النشاطات والمكتبة بحيث لا يبقى سوى غرفتي التي أبيت فيها والحديقة التي سئمتُ تفاصيلها.. حتى المطبخ توصد أبوابه، وتتولى المشرفة طلب الأطعمة الجاهزة لنا نحن الاثنتين، بأموال فضّل أهلي تخصيصها لوجباتي في مثل هذه الظروف على استقبالي في المنزل كما يُفترض أن يحدث..

مأساةٌ حقيقيّة أن تجد نفسك مشرّعاً على الفراغ.. خواءٌ عاطفيّ ومكانيّ وحتى زمانيّ..

وأنا على مرّ الأيّام، ومن فرط الزلازل الروحيّة، صرت ممتلئةً بالفراغ، حتى بتُّ أفيض شغوراً. غدوتُ أمرّ على الأحزان ألقي التحيّة، أُنشدها السلام وأرتحل..

أصبحتُ بمشاعر عابرة للشجن. أتراقص على وقع الحنين، مع خيالات وتصوّرات لم تكن يوماً واقعاً..

لم أعد فتاة البنفسج التي كنتُها يوم حملَت جدّتي عني عبءَ الحياة وحجبَت عن ناظري قبحَ العالم. وبعد أن اصطَدَمَت طفولتي بكَمٍّ من الأرواح البائسة. لم أستطع أن أحافظ على عهدي لجدّتي بأن أبقى كما عهدَتني فخسرتُ كثيراً من رونقي وسط هذه العتمة، وخفتَ وهج روحي عندما رفَعتُ شعار عُزلتي عالياً ورسمتُ على جدار القلب نسيج عنكبوت!

***

الفصل السابع

صحوتُ اليوم باكراً على صخبٍ داخليّ وفوضى في الفكر سبّبت لي صداعـًا، وعجزتُ معها عن ترتيب تفاصيل نهاري.

اعتدتُ منذ الصغر على وضع خريطةٍ لمشاريع ونشاطات أنوي القيام بها خلال اليوم. هكذا علّمَتني جدّتي، وأوصتني أن أحافظ على هذا السلوك لأهميته في تنظيم دقائق حياتي وحجب أيّ تشويشٍ قد يُفقدني التركيز في أمورٍ تتجلّى ضروريّة. هذا الأمر ساعدني كثيراً على تجاوز مخاوف وصعوبات وعلى تحقيق إنجازات في ميدان الدراسة وأمور أخرى مختلفة.

نعم، التنظيم سلوكٌ حضاريّ، يلغي التشتّت النفسيّ ويولّد ثقةً في القدرة على تجاوز الحواجز المادية والمعنويّة.. هذا ما عرفتُه واختبرتهُ وبتّ على قناعةٍ تامّةٍ به..

ولكني اليوم أراني عاجزة حتى عن تحديد خَياراتي للإفطار.. وأعرف تماماً سبب هذا الضياع.

إنّه القلق مما ينتظرني هناك، على بُعد شارعٍ من مكان إقامتي الجديد.. وهي الرهبة من عدم صوابيّة قرارٍ ارتداني لحظةَ جنون.

نعم، عليّ اليوم أن أُجري مقابلة عمل للتنافس مع سواي على وظيفة نادل!

إنّـه العمـل الـذي اعتزمـتُ ممارسـته، لـيس بسـبب العـوَز لأن جـدّتي منَحتني وجادَت في المَنح، وإنّما للتخلّص من شعورٍ بالرتابة ملأ فضاء لِحاظي.

ما زال أمامي متّسعٌ من الوقت لأحسم حيرتي وأتيقّن من خياراتي، ولكني أعاني شتاتـاً يقضّ مضجع القرار، ويحجب عني شهيّةَ الكلام.

كم أتمنّى أن ينسى العم خلدون وجودي هذا الصباح، فلا يطرق بـابي ليسألني عن مشترياتٍ أحتاجها.. فإن فعل، أعتقدُني سأستحيل قطّةً شرسة تمزّق طيبته وتنهش ابتسامته.. وهذا ما لا أريده.

هذا المسكين، رغم سنوات عمره التي تخطّت السبعين، أراه يحتمل بكثير من الصبر فظاظةَ قاطني المبنى من رجالٍ ونساءٍ وحتى أطفال.. رغم دماثته، لم يلقَ منهم سوى سوءِ معاملةٍ لم تغيّر في طباعه شيئـاً..

سبق ورآني في حالـة تـوتّر أثناء قيامي بطلاء جدران المنزل، فابتسم بلطف قائلاً:

«آنستي الجميلة، لا شيء في هذا العالم يستحق تقلّب أمزجتنا.. حتى الموت نفسه، عندما نؤمن بقدريَّته سنكون أكثر طمأنينة إزاءه.. علّمتني الحياة أن أحافظ على سلامي الروحيّ، فأتخطّى أحزاني ومخاوفي بهدأةٍ تامّة.. ذلك أنّني على قناعةٍ بأن شيئـاً لا يدوم، ولا بدّ من تغيير قادم.. »..

تأمّلته بدهشةٍ وتعجّب.. وتساءلت من أين لعجوزٍ مثله هذه القدرة على تفهّم الحياة وتقبّل هذيانها!!

يومها نظر إلى ذهولي مبتسماً، وقال:

«إنها حكمة العمر آنستي»..

كلامه هذا أعاد إلى ذاكرتي عبارات جدّتي عندما أوصتني بعدم اليأس، طالبةً مني أن أبقى على قيد الأمل..

هناك شبهٌ كبير بين روح هذا العجوز وفطنته، وجدّتي التي تخطّت بحكمتها عقول كثير من البشر، ومن بينهم أمي وأبي.. دائماً تستحضر كلماتُه ذكرياتي معها، فأوقن أن قدراً جميلاً وضعه في طريقي لتخفيف وطأة حياةٍ شائكةٍ أخطو بين دروبها.

لذلك لا أريده اليوم أن يراني بحالتي هذه، ولا طاقةَ لديّ لأشرح ما أنا فيه من حيرة.. وأفضّل أن أُجاور وَحدتي حتى يحين موعدي مع ما أنتظر.

فعذراً عمّي خلدون إن أتيتَني عارضاً خدماتك ولم تلقَ جواباً.. فوَرد التي تعرفها لم تصل بعد لدرجة سلامك الروحي لتتجاوز هواجسَها. ولكن أعدكَ أن أعمل على ذلك.. في وقتٍ لاحق.

وسط هذا التوتّر، عبرَتني لهفةٌ لارتياد شرفتي واحتضان وردتي الجوريّة لما تحمله بين وريقاتها من حنينٍ لما ولمن أحبّ. إنّه الوقت المناسب لرفع الستائر والخروج إلى أفقٍ تَنزَع إليه روحي التَّعبة.

رغم برودة الجوّ، خطَوتُ إلى الخارج برَهبةٍ واشتياق، ومعي فنجان قهوتي.. صديقي الصباحيّ.

ها هي شجيرتي تلتمع أوراقها من حبيبات مطرٍ تساقط ليلاً. جاوَرتُها في الجلوس، وسرحت بناظري في ضبابيّة أفقٍ شتويّ الملامح.

وأتاني الخيالُ أميراً..

«جدّتي تجثو على أرض الشرفة جانبي، وأمامها ركوة قهوتها العربية.. تتمايل يمنةً ويسرةً على صوت فيروز منبعثاً من مسجّل صغير قُربها:

«يا حبيبي الهوى غلّاب

عَجِّل وتعى السِنِة ورا الباب

شتوية وضجر ولَيل

و انا عم بُنطُر على الباب

ولو فيي يا عينَيِّ خَبّيك بعينَيِّ

رجعت الشتوية

ضل افتِكِر فيي

رجعت الشتوية»

التفتت جدّتي نحوي بوجهها المضيء، وكأنّها تقرأ أفكاري، أشارت برأسها إلى الأمام في إشارةٍ إلى الرضا وطبعَت على ثغرها ابتسامة حانية..»..

تحبّ جدّتي الجلوس على الأرض. كانت دائماً تخبرني أن كلّ شيءٍ في هذا العالم يمكن أن ينشأ بيننا وبينه تواصلٌ وألفة. وأنّها من فَرط تآلفها

مع الأرض صارت تشعر بها قلباً يحتضنها ويسحب منها طاقة سلبيّة ليبثّ مكانها أماناً وسكينة.

قالت إنّها في صغرها وعند اجتياح الحزن، لجأت مرّات عديدة للجلوس على التربة في حديقة منزلهم وجمع حفناتٍ من التراب والوشوشة لها بما يؤلمها، وإنها متأكدة أن همسات كانت تنبعث من بين الحُبيبات تطَيّبُ خاطرَها، فتستكين..

كُثُرٌ هم من يحاولون التحرّر من ذاكرتهم، ليمسكوا في قبضتهم أحلامَهم وشغفَ الحياة.. أمّا أنا، فدائماً ما أستجدي ذاكرتي وأستحضر خباياها القابعة في العتمة لأملك عزيمةَ الاستمرار، ولأتمكن من الحياة.

جدّتي.. حبيبتي..

أتيتِ كعادتكِ في الوقت المناسب، لتسانديني في حيرتي، لتمسحي أثرَ تعبٍ تغلغل في الوريد.. ولتُخبريني أنكِ راضيةٌ عن قراري ومشجِّعةٌ لاختباري هذه التجربة..

كم أشعر الآن براحةٍ وأمل! وكم شهيّتي مفتوحة على العالم! لذا، سأمضي في خَطوي، سأحاول، ولن أخذلكِ أبداً..

***

أمام المنزل وقفتُ حائرة، هل أستقلُّ سيارةَ أُجرة أم أمضي سيراً على الأقدام!!

رغم الصقيع، إلا أن المطر استمرّ غائباً منذ ساعات الصباح الأولى، وهذا ما بدا ملائماً للاستظلال بالسماء والمُضيِّ قُدُماً. كما أنّ توتّراً ضرب أصقاعي فشعرتُ بشُحنةٍ تغلي داخلي وتَحُول دون استقراري في مكانٍ واحد..

من أجل ذلك، ارتأيتُ أن أحتضن برودة الطقس وأمشي علّ التريّض يخفّف وطأة التشنُّج. ضممتُ معطفي حولي، عدَّلتُ وضعية الشال الصوفي على رقبتي، وانطلَقت إلى غامضٍ مجهول.

عشرُ دقائق كنتُ فيها أرتعد من بردٍ فاق توقّعاتي حتى خِلتُ أنفي على وشك التشقّق، لولا أنّي تعثّرتُ أخيراً بالمطعم شامخاً أمام ناظري..

«حوريّة البحر».. يا له من مبنى فخم!

يبدو مدهشاً في الواقع، عكسَ صوره التي عثرتُ عليها على شبكة الإنترنت عند محاولتي تحديد موقعه.. هو أشبه بقصور ألف ليلة وليلة بقناطره الكثيرة التي تزيّن النوافذ والأبواب.. وتلك القبب الصغيرة القابعة في الأعلى بلونٍ زمرّديٍّ مبهجٍ تضفي على المكان سحراً وإثارة.. حتى الشرفات الصغيرة المزدانة بزهورٍ غريبة ذات ألوان بديعة زادت من شغفي وانبهاري..

لا حديقةَ تسوّر المطعم كما اعتدتُ أن أُرى، ممّا يسمح للمارّين بملاحظة أدنى تفاصيله وتصميماته. الأمر يبدو مقصوداً حتماً، لأن صاحب المكان لم يترك زاويةً من الواجهة الكبيرة للمطعم إلا وسلّط

عليها إنارةً أخّاذة تجعل أيّ عابرٍ يتوقّف ليتأمّل ويسرح في الخيال.. كما أنّ مبنى بهذا القدر من الجمال قد يخسر كثيراً من ألقه إن لم يكن متاحًا للجميع معاينتُه والإطراء عليه.

ثمثالٌ كبيرٌ لحوريّةٍ فائقة الجمال يمثل قرب باب الدخول، في وضعيّة ترحيبٍ بالزائرين. أسرني المشهد؛ ذلك أن الحوريّة، من فرط إتقان صنعها، تراءت حقيقيّة وهي تنظر في عينيّ حتى خلتُ أن حواراً ما سينشأ بيننا..

كلّ شيءٍ بدا رائعًا وغرائبيّا، حتى الاسم «حوريّة البحر»، يوحي أن ثمّة أسطورة دارت أحداثها هنا منذ سنواتٍ غائرة في الزمن، وما زالت تَرَدُّدات أسرارها تغزو الفضاء ليلاً..

مع هذه التصوّرات ارتعشت جوارحي، وأحسستُ بالبرودة تتغلغل بين تلابيب الفكر.. وحتى لا أنغمس في مخاوفي أكثر، رحتُ أرقب المكان..

ويا لروعة المشهد الذي تراءى ممتدّاً أمامي!

مرفأٌ للزوارق واليخوت الفخمة، والمرصوفة جنبًا إلى جنب بشكلٍ شبه دائريّ يلائم انحناءة الخليج..

أضواءٌ بألوان مبهجة يتماوج انعكاسها على سطح المياه مع كل هبوبٍ لريحٍ وتكوّنٍ لموج.

عندما أتيت، كنتُ أسير بسرعة وأنا أرقب الأرض في محاولةٍ للتلاعب على نسيمٍ بارد يضرب وجهي، فأمنع جليداً من التكدّس فوق ملامحي. لذلك لم أتنبّه إلى شاطئ صرتُ بمحاذاته، إلا عندما امتثل أمامي المطعم بإطلالته البهيّة، ووقفتُ مجاورةً له بأنفاس لاهثة.

رحتُ بكامل اندهاشي أتأمّل البحرَ وقد أظلم امتدادُه وارتفع هديرُه. لمحتُ بعيداً في العُمق ظلال أضواءٍ خافتةٍ تلمع وتحتجب.. أيعقل وجود مراكب للصيادين في هذا التوقيت القارس!!

شعرتُ بانقباضٍ شديد.. ماذا لو هبّت عاصفةٌ مفاجئة، كيف سيتدبّر هؤلاء وضعهم!

كان لجدّتي جارٌ يقطن مباشرةً في الطابق الذي يعلو منزلها يعمل في الصيد ولديه عائلةٌ مكونةٌ من زوجةٍ وخمسة أولاد، وفي يومٍ عاصف خرج للصّيد ولم يعد مطلقاً. أذكر يومها اصطحبتني جدّتي لمواساة جارتها حتى لا أقبع وحيدةً في المنزل. لا أستطيع أن أنسى تلك المشاهد البائسة التي صفعت براءتي من بكاءٍ وعويلٍ ولَطم.. الأسود غزا المكان بشكلٍ مقزّز، ورائحة البخور طغَت وتسلّلت في الوريد.. منذ تلك اللحظة وأنا على عداوةٍ تامّة مع اللون الأسود ومع أيّ عطرٍ يحمل شيئاً من بخورٍ أو يحاكيه.. تلك الحادثة دفعتني لأن أسأل جدّتي عن سبب هذا الشجن الكبير، فأخبرتني أن الأطفال قد خسروا والدهم المُعيل الوحيد لهم.

هذه الإجابة لم تكن كافيةً لي.. فها أنا أعيش دون أبٍ وأمٍ أيضـًا رغم كونهما على قيد الحياة، ولم يعترني حزنٌ كالذي عاينتُه!!

كنتُ يومها صغيرةً جدًّا، وروحي كانت بصفاء الياسمين..

أعرف أن ظرفي ليس مؤاتيـًا لغصّةٍ وأنين، لكنّي مسكونةٌ بالذكريات ترتادني كحلم وأعجز عن تخطّيها..

ولأخرج من وضعيّة الحزن تلك، رحتُ أتأمّل المكان من جديد.

انتقلتُ باهتمامي إلى الشارع الواسع الذي بدا خاليـًا من أي نبضٍ سوى هواجسي.

هي منطقةٌ سياحيّةٌ بامتياز، لأن المنطقة تحوي عدداً كبيراً من المقاهي والمطاعم المتجاورة في تنسيقٍ بديع. بعضها يطلّ مباشرةً على البحر وبعضها الآخر يَمثُل على الجانب الآخر من الطريق دون أن يقلّ جمالاً وإثارةً ودهشة، كمطعم «حوريّة البحر»، مَقصدي..

لكن في مثل هذا التوقيت الشتويّ، كان من الطبيعي أن تصفر الريح بين الأبنية وأروقة الطرقات معلنةً الفراغ.

فجأةً، أصابني التساؤل بقلق:

«لماذا يعانون نقصـًا في عمالة المطعم، والموسم السياحيّ لم يبدأ بعد!!»..

بالتأكيد لن أتمكّن من الأجابة بنفسي،وعليّ أن أنتظر لتتّضح الرؤية.

على بُعد مسافة صغيرة مني، أثارت انتباهي حديقةٌ عامة.. تقدّمتُ منها بلهفة وكأن سحراً ما استدعاني. شممتُ رائحةً طيّبة، تتبَّعتُها وإذا بي أجدني أمام شجرةِ وردٍ جوريّ ممتدّة على طول سور الحديقة، وملتفّة بأغصانها بين ثناياه..

رغم أن موسم الورد لم يئن بعد، فما زال هناك زمن من البرودة قبل انبثاق الربيع، إلا أن الشجرة تراءت مزدانة بعددٍ من الوردات ذات العطر الأخّاذ.. شجرتي على الشرفة، لم تدخل في سباقٍ مع الزمن، وصباحاً عندما جالستُها مع قهوتي كانت بلا ضوعٍ ولا ورد، لكن أغصاناً بأوراق طريّة صارت تتلألأ على وقع قطرات المطر النديّة.

شعرتُ بالخَفق يتساقط مني ويتكسّر نُتَفاً على الرصيف. حتى برودة الجوّ بهتت مع دفءٍ سرى في عروقي على حين حنين. هي روح جدّتي ترافقني حتماً لتزيدني عزيمة وتمنحني شجاعة لأخطو بثقةٍ من حديد.

قطفتُ وردةً من غصنٍ انبسط أمامي مزهواً، وضعتها بين خصلات شعري، وعدت سريعاً استعداداً للدخول..

لقائي هذا المساء سيكون حاسماً على صعيد إحداث انقلابٍ نوعيّ في حياتي.. فربّما أنا على أعتاب خوض تجربةٍ فريدة تفسح لي مجالاً لأصبح فتاةً حرّةً بكلّ ما للكلمة من معنى، ومسؤولةً عن قراري ومسيرتي.

أمام الباب نفضتُ عني توتّري، ووقفتُ متصلّبة..

لأوّل مرّة أرى باباً خشبياً مشغولاً بهذه الطريقة المدهشة!!

صرتُ أرقب تفاصيله وتعرّجاته والتماثيل المحفورة بين جنباته بإعجابٍ مبالغ.. حتى المقبَض النحاسيّ الضخم استقطب ذهولي وهو يتدلّى آخذاً شكل أسدٍ يزأر.

جماليّة ما رأيت رفعت عن كاهلي عبء انتظارٍ أَرِق، فتقدّمت أسابق لهفتي، ودخلتُ بقلبٍ من وَرد..

***

خلف باب الدخول، أوقفني حارسٌ ضخم الجثّة، مفتول العضلات. سألني عن غايتي، وعندما علم السبب ابتسم بلطف، أخذ معطفي والشال ثمّ أفسح المجال أمامي مشيراً إلى آخر غرفةٍ في ممرٍ على يساره.

تقدّمتُ بحذرٍ ورفيف قلبي يكاد يبلغ عنان السماء. ما أروع هذا المكان!! برغم الإنارة الخافتة، إلا أن سحراً امتدّ بين جنباته حمل إليّ رهبةً لذيذة.

جدران الممرّ مطليّة بلونٍ عاجيّ تتداخل فيه عدّة ألوانٍ ناتجةً عن أضواء تعكس ذوقًا وتقنيّة. وما زاد من سحرها أنها مزدانةٌ بمجموعة صورٍ معلّقة بشكلٍ فنّي احترافيّ، تحكي تاريخ المدينة بترتيبٍ تسلسليّ مبهر.

أمام كل لوحة توقّفتُ متأمّلة زمنًا ضئيلاً لملمتُ خلاله ما انتثر من ثَباتي، ثمّ دنوت من الباب، طرَقته مستأذنة ودخلت..

رأيتُني في غرفةٍ واسعة تحوي مكتبةً كبيرةً ممتدةً على الحائط بشكلٍ شبه دائريّ، وفي الوسط نافذةٌ واسعة بستائر حريريّة، يتربّع أمامها مكتبٌ ضخم يوحي بفخامةٍ وثراء..

على الأرض أمامي انبسطت سجادةٌ أرجوانيّةٌ دائريّة، بتطريزٍ ملفتٍ يروي حكايةَ تراثٍ عربيٍّ أصيل.

وهناك.. قرب النافذة، ثمّة شخص يقف في مواجهة الباب، متأملاً الطريق من خلف الزجاج..

يا إلهي.. كم يبدو طويل القامة!!

لا أدري لـمَ استحضرتُ قصّة الكاتبة الأمريكية أليس جين ويبستر «صاحب الظلّ الطويل».. تلك القصّة التي طالما أبهرتني جدّتي وهي تروي لي تفاصيلها، وتخبرني أنّه ربّما قد يأتي عليّ يومٌ ألتقيه فيه، في مكانٍ ما من هذا العالم ، وأنّ حكايتي تشبه في بعض جوانبها حياة جودي أبوت الفتاة اليتيمة، بطلة الرواية.

كم كنتِ بعيدة النظر جدّتي العزيزة، لتعرفي قبل الأوان أنّ مصيري سيكون في مدرسةٍ داخليّة بعيداً عن أهلٍ غائبين رغم حضورهم!!

ولكن ما فاتكِ أن فتاةً يتيمة كجودي تمكّنت من العثور على صديقةٍ مقرّبة لطيفةٍ تدعى سالي ماكبرايد تحبّها، تخاف عليها، وتشاركها الأفراح والأحزان.. أمّا أنا فلا أعرف لي صديقةً وأسير في طريقي وحيدةً بلا سندٍ أو أنيس.

ولكن.. أيُعقل أن كلامها قد تحقّق؟!! هل أكون فعلاً في حضرة السيّد جون سميث؟!!

لو أنه يمشي قليلاً فألحظ خياله.. متأكّدة أنه سيكون بأطول ظلٍ قد يملكه أيّ شخص..

أعرف أنّي فتاة غريبة الأطوار، لكنّي لا أشبه سواي..

أشعر بي أنتمي إلى عالم الحكايا، وأنّ ثمّة خرافة تنسج حروفها بين أوردتي، وعندما يكتمل غَزلُها ستتحقّق لا محالة.

علّمتني جدّتي أن أواجه مخاوفي بابتداع الخيال.. وأن إيماني به سيجعله طوع إرادتي، أستحضره فيُلَبّيني وينتشلني بعيداً إلى حيث أحبّ وأستكين.. وهذا ما فعلتُه وحصل مرّاتٍ ومرّات.

صوتٌ هادئٌ رتيبٌ أعادني إلى الواقع، فانسرب الخيال من دفّة الباب، ووجدتُني وجهًا لوجه في مواجهة السيّد «جون سميث»!

رأيته واقفًا بفارع طوله أمامي يبتسم، فأصابتني المفاجأة بخَرَس.. ورحت أتأمّله..

شابٌ بلونٍ قمحيّ جاذب، دمث الملامح، بشَعرٍ أسود منسدلٍ حتى أسفل رقبته..قامته الفارعة متناسقة لا يعتريها خطأ، مع منكبين عريضين يمنحانه هيبةً ووقاراً.

أدهشتني أناقته الملفتة.. قميصٌ أزرق يحمل إشارة التمساح على جانبه الأيسر مع بنطالٍ أسود لا تشوبه عَطفة، وحزام بنيٍّ متناسب مع حذائه اللامع بنيّ اللون أيضاً..

صرتُ أتأمّل تفاصيله وكأنّني أمام واجهةٍ للملابس، ولم يخرجني من شرودي إلا ضحكةٌ بثّها بلطفٍ، شعرتُ إثرها بخجلٍ من تصرّفي اللامسؤول.

«عذراً سيّد جون»..

فما كان منه إلا أن دخل في هيستيريا ضحكٍ طويلة.. وعندما هدأ قليلاً نطق أوّل عبارةٍ له:

«من أخبركِ أنّي أُدعى السيّد جون يا آنسة!!!»..

يا إلهي، ما كلّ هذا الجنون الذي أنا فيه.. كيف سأفسّر له الأمر!

شعرت بالدّم ينسحب من شراييني ويتجمع في وجنتيّ حتى أصبحتا على شفا انفجار..

ارتفع مؤشر الارتباك عندي، ولأكسر ما أنا فيه من توتّر تقدّمتُ خطوة في حركةٍ لا إرادية دون أن أتنبّه لوجود حقيبةٍ صغيرة أمامي، وإذا بي أهوي لأجدني ممدّدةً بالكامل في وضعيّة إغفاء..

ضحكةٌ مجلجلةٌ دوَت هذه المرّة في الغرفة مع دموعٍ بدأت تنهمر من عينيه العسليتين..

موجة خجلٍ إضافيةٍ ضربت أصقاعي، فلم أجد وسيلةً للهروب ممّا أنا فيه سوى أن أحتذي بطائر النعام، فأخفيتُ ملامح وجهي بيديّ المرتعشتين.

«دعيني أساعدك على النهوض آنسة»..

مدّ يده وانتشلني بخفّة، ثمّ راح يقدّم اعتذاراً عن ردّة فعله محاولاً تبريرها بعنصر المفاجأة الذي باغته.. وفي كلّ ذلك، كنت أنا غارقةً في إعادة تسوية مظهري وتسريح شعري بأصابع مكبّلة.

«أهذه الوردة لكِ؟..».

ودون أن ينتظر إجابة، التقط الوردة عن الأرض، اشتمّ أريجها، وأرجعها لي..

«تفضلي آنسة وردة.. هذا الاسم أراه لائقاً بك، كما ترين أن جون يليق بي كاسم.. ارتاحي قليلاً وحدّثيني عن طلبِك»..

أصابني الذهول من تسميته لي بوردة!!

يا إلهي كم يبدو ذكيّاً، وكم أبدو في قمّة الغباء!

ويا لمأساتي.. فلم أتوقّع مطلقاً أن يكون لقائي الذي انتظرتُه بهذا الشكل السخيف. لا بدّ أنّه ارتدى انطباعاً سلبيّاً عني.. وله الحق في ذلك..

شعرتُ بانهزامٍ يتمدّد داخل جسدي ويصيبني بضيق نفس..

«استريحي آنسة وردة، تبدين متعبة. أعتذر فحقيبتي التي نسيتها عند الباب هي السبب في كلّ ما حصل.. آسف جدًّا»..

بعضٌ من ارتياح انسرب إلى روحي، ورأيتني أقدّم اعتذاراً مماثلاً..

«اسمي آدم، وأملك هذا المطعم.. لن أسألكِ توضيحاً حول اسم «السيّد جون» فهذا الأمر يعنيكِ أنتِ.. وأعتقد أن حضوركِ هنا سببه رغبتك في تسلّم الوظيفة. أتمنّى أن لا أكون مخطئاً، لأنّني لن أجد ألطف منك للتعامل مع زبائن المحل.. ليتكِ تعرفينني بنفسك»..

بفمٍ شاغر، رحت أستعيد عباراته.. أيعقل بعد كل هذا الجنون أن أكسب الوظيفة!!

صحوت من دهشتي على وقع أنامله تطرق بخفّةٍ على المكتب..

«عذراً سيّد ج.. آدم، معكَ الآنسة وَرد.. أشكر..»..

وقبل أن أكمل الكلام رأيته ينتفض مذهولاً، يتمحّص في وجهي، ويتمتم بتعجّب:

«ورد.. ورد!»..

وغرق كلانا في ضحكٍ هستيريّ..

***

«موسم السياحة الصيفيّة لم يبدأ بعد، لكن مطعم «حوريّة البحر»، إلى جانب بعض المطاعم الأخرى في المنطقة، لا يغلق أبوابه بصورةٍ نهائيّة، بل يبقى في الشتاء على استعدادٍ لاستقبال الزبائن أربعةَ أيامٍ في الأسبوع. وبالتأكيد إن ضغط العمل خلال هذه الأيام لن يكون كبيراً. ستُعتبر هذه

الفترة بمثابة إعدادٍ لكِ، وعندما يأتي الصيف ستصبحين على استعدادٍ لممارسته بأقل أخطاء ممكنة.. عملكِ سيكون نهاريّاً، والشاب الذي ستأخذين مكانه طالبٌ جامعيّ يعمل إلى جانب دراسته ليؤمن مصاريفه، وقد التحق مؤخراً بإخوته الذين هاجروا إلى كندا حيث فرص الحياة تبدو أكثر إغراءً، خصوصاً مع توترّ الوضع الأمنيّ وأخبار التفجيرات والاغتيالات التي تتوالى منذ سنوات..».

هكذا اختصر لي السيّد آدم المسألة، وأعطاني مهلةَ أسبوع لألتحق بالعمل. يبدو لطيفاً لكن اسمه لا يليق به مطلقاً، وعليّ خلال هذا الأسبوع أن أعمل جاهدة لأعتاده حتى لا أقع في موقفٍ محرجٍ مرّةً أُخرى.. وهذا ليس بالأمر السهل.

لم أستطع النوم تلك الليلة. الكثير من الشخصيات زارتني في أَرَقي ورسمَت ظلالَها على جدران غرفتي. فهنا تجلس جودي تخطّ رسالةً لصاحب الظلّ الطويل تخبره فيها عن تفاصيل يومها، وهناك تمتدّ بشكل عموديّ يصل جدار الغرفة بسقفها، ساقان طويلتان جدًّا هما جزء من ظلّ السيّد جون سميث، وعلى الجدار المقابل ثمّة ظلٌّ ثقيلٌ عصبيٌّ للسيّدة جلجل أو جلنار.. أمّا هنا، على الجدار المحاذي لسريري فيركن ظلٌّ هادئ لجدّتي الطّيبة وهي تصنع أقراص «الكبّة» أكلتي المفضّلة.

سرحتُ طويلاً في ظلّ جدّتي، وشاركتها عمليةَ «التقريص» والإعداد.. ضحكنا سويّاً ووعدتُها أن أصبح طاهيةً بارعةً.

لطالما أخبرتني جدّتي عن قريتها البعيدة التي ولدَت فيها، حيث للعادات والتقاليد أهميّة عظيمةٌ تطغى على القانون.. كانت النساء تجتمع يوميّاً في منزل إحداهن بالمداورة حيث يتشاركن في طهي الطعام لعائلاتهنّ. ومن تتغيّب منهنّ لعذرٍ مقبول يقمن بإرسال حصّتها مع أحد الأولاد الذين يتنافسون لنيل هذه الشرفيّة. أمّا من يثبت غيابها دون مسوغ لذلك تمُنع من المشاركة في سهرات النميمة النسائيّة مدّة قد تطول أو تقصر.

كانت جدّتي تحضر معظم جلسات الطهي،وخصوصاً تلك التي تُصنع فيها «الكبّة» فترقب النساء الجاثيات على الأرض بشكلٍ دائريّ وأمامهنّ الأوعية النحاسيّة التي تتضمن «البرغل واللحم». تتابعهنّ منذ مرحلة الإعداد بعجن «البرغل» حتى مرحلة التقريص والحشو ثمّ الخبيز.. هذا الأخير كان يتمّ بفرنٍ حجري دائريّ تتصاعد منه ألسنة اللهب بحيث تَدخل أقراص «الكبّة» إليه طريّة وتخرج حمراء شهيّة يقطر منها السمن البلديّ.

تقول جدّتي إن الجلوس على الأرض ضروريّ لتنجح عمليّة التقريص، وأنها تؤثر في جودة الطعم لا محالة.

أجمل ما في تلك الجلسات الأغاني والأهازيج القروية التي تصدح بها النساء أثناء العمل.. وفي ذاكرة جدّتي مخزون كبير منها حفظتُ بعضها، وغاب عني الكثير..

ولكن هناك أهزوجةٌ لطالما أحببتُ صوت جدّتي وهو يصدح بها ويملأ فناء المنزل، بحيث كنت أشعر أن الأثاث يشاركها الغناء:

«كيف حال الضيعة وكيف أهل الضيعة
وكيف الأسمر يلي كان يسمعنا قصدان
كيف حال النبعة وكيف حال المرعى
انشالله بالخضرة مليان وحاني عالقطعان
كيف حال الضيعة وشبابيك الدار
بلاقي فيها وسعة لهالطير اللي طار
عم تحلى وتخضر غصون وتفتح وردات
مطرح ما غط الحسون وغنى غنيات
فيه رف عصافير لونه زاهي كتير
بيرفرف بعباب اللوزة وبيسأل بكير»

يا لها من ذاكرة تُحيي النبض وتبلسم الوجدان.. معها تشعر بروحك هائمةً، وترتفع بك إلى مستوى متقدّمٍ من الرضا والسكون.

لم ينتشلني من شرودي سوى طرقٍ عنيفٍ على الباب.. هل دخل التوقيت الصباحي؟!

ستائري البنفسجيّة تحجب عنّي أيّ رؤيةٍ أو إمكانيّةٍ لتحديد توقيتٍ أو اكتشافِ زمان.

يا إلهي، أشعر بتعبٍ ينهش مفاصلي ويصدّع رأسي.لم تطاوعني جفوني مطلقاً للاسترخاء، فبقيت ليلاً بطوله أشاكس الظلال والخيالات.

ازداد صخب الضجيج، فتسلّلت ببطءٍ من سريري، كنت منهكةً لدرجة الإغماء وخارج مدار التركيز. توجّهتُ بملابس النوم حافيةَ القدمين لأفتح الباب حتى دون أن أسأل عن الزائر، وإذا بنظري يصطدم بالعم خلدون.

بدا مذعوراً بعينيه الجاحظتين وفمه الشاغر على الفراغ. بضع ثوانٍ كانت كفيلةً ليستعيد شيئًا من هدأته ويصدح بصوتٍ حادّ:

«أين كنتِ آنستي؟.. قلقتُ عليكِ كثيراً.

أتيتُ البارحة صباحـًا كعادتي لأسألكِ عن طلباتٍ تريدينها فلم يجبني أحد.. وأتتكِ زوجتي مساءً لتطمئنّ عليك، وكذلك لم تجد أحداً!!

لماذا تبدين متعبة..هل أنتِ مريضة؟؟..».

يا لهذا العجوز الطيّب.. أنا لم أعتد اهتمامـًا من أحد منذ رحيل جدّتي، وألِفتُ مواساة نفسي لنفسي. وإذا به يُقبِل كنسيمٍ طريّ ليعيد إليّ شعوراً بالأمان اشتقته منذ فقدٍ وأكثر.

ولكنّي الآن أبعد ما يكون عن تبادل المشاعر الإنسانيّة والتعاطف مع عجوزي الطيّب. لذلك، شكرته من القلب مقدّمةً شرحـًا مختصراً للأحداث، واستأذنته لأستريح من إجهادٍ طويل..

***

الفصل الثامن

لم أعد وَرد الطفلة الصغيرة التي أقصاها أهلها إلى مدرسةٍ داخليّة في ذكرى ميلادها التاسع.. ها هي السنوات عبَرَت حاملةً معها طفولتي وشجني ولحظات حيرتي الكثيرة..

ستّ سنوات قضيتها في عزلةٍ تامّةٍ عن محيطي من زميلاتٍ ومشرفات ومعلّمات. وخيراً فعلت..

أنا لا أنتمي إلى هذا العالم المقفل على أنانيّته وكبريائه .. إلى هذا المجتمع الذي لا يرى في الآخَر سوى أداةٍ للانتفاع وتحقيق المصالح.. لا يتوقّف الأمر هنا على الكبار، بل حتى الفتيات رأيتُ فيهنّ نسخةً عن ماديّة والدي، عن لامبالاة والدتي وسلبيتها، وعن صلف السيّدة «جلجل»..

لم أتمكّن، رغم السنوات، من تحقيق التواصل مع أيٍّ منهنّ.. ولا هنّ سعين إلى ذلك، بل كثيراً ما حاولن استفزازي ومعاداتي والتنمّر عليّ، خاصّةً بعد أن كُشفت قصّتي أمام عجرفتهنّ.

استمرّت عزلتي صديقةً وحيدة.. كلّ اختلاءٍ بالذات كان يستتبع لقائي بجدّتي فأشتكي لها وتواسيني.. تُسمعني أغاني فيروز بصوتها العذب.. وأدعوها لتنصت لعزفي على البيانو في غرفة الموسيقى أو لأقرأ لها قصّةً أعجبتني في إحدى زوايا المكتبة.

خلال هذه السنوات حاولتُ أن أتقرّب قدر الإمكان من السيّدة «جلجل»، لكنها في كلّ مرّة تقصّدت أن تزداد شراسةً وحِدّة.

تتغاضى عن أخطاء الآخرين وتمسك بخطئي الصغير فتلقي عليّ اللوم في كل المشاكل التي تعترضها في المدرسة، وتفرض عقوباتٍ لا تتلائم مع ما ارتكبتُه على حين غفلة.

لا أعلم لمَ ترفق كلّ عقابٍ بتهديدي بقصّ خصلات شعري الطويل وتعليقه على باب المدرسة لأكون عِبرةً لكل من تُسوّل لها نفسها تخطّي النظام. مع أن الكثيرات كنّ يرتكبن حماقات بائسة دون أن يتعرّض لهنّ أحد.

أنا أعشق شعري الطويل.. علّمتني جدّتي كيف أحبّ خصلاته المنسدلة وأعتني بها. أعادت عليّ مراراً أنّ جنيّة الحكايا الطيّبة جاءت ساعة ولادتي، مرّرَت عصاها السحريّة على شعري وتمتمت بكلمات خفيّة، ثمّ ابتسمت بحنوٍّ وغادرت. ومنذ تلك الحادثة وشعري ينمو بسرعة ويزداد وهجاً وكثافة.. وأوصتني بالحفاظ عليه طويلاً ما استطعتُ ذلك.

كم تمنّيتُ أن أعثر في السيّدة «جلجل» على بعضٍ من طيبة جدّتي، أن أتعثّر بحنان الأم بين كلماتها القاسية، فأستعيض بوجودها عن غياب أمّي الحاضر دائماً في البال..

كنت أشعر من نظراتها أنها تفهم رغبتي، لكنها لم تقدّر مشاعري الطفوليّة وأمعنت بإقصائي بعيداً عنها بشراستها وجبروتها.

ولكنّي أعذرها!

فوالدتي التي أنجبتني لم يخفق نبضها لي.. لم تُسوّل لها نفسها ولو مرّةً واحدة أن ترتاد المدرسة لزيارتي.

سنوات مرّت، كان قلبي خلالها يتخثّر ببطء بين أروقة المنفى الذي يحويني دون احتواء.. مساءات كثيرة بكيت فيها خيبتي، وأمعنتُ في الأمل بتغييرٍ يضرب جذور المشاعر التي تنسرب في أعماق أمّي. لكن العمر خسر سنوات من بريقه ولم يتحقّق ما أريد.

فكّرتُ كثيراً أن أفتعل إشكالاً عظيم الشأن في المدرسة، يدفع بالسيّدة «جلجل» إلى استدعاء أمّي على وجه السرعة للشكوى وتقديم إنذارات واستحصال وعودٍ و.. مبالغ..

وعندما تأتي.. أنفرد بها لأحكي الكثير، أبكي وأعاتب.. ثمّ أرتمي بين أحضانها ولا أصحو..

لكنّي في الواقع أضعف من أن أبتدع هكذا سيناريو، وأنخرط في تفاصيله.. بل أوهن من أن أعيش خذلاناً جديداً - وهو الاحتمال الكبير - فلا تحضر ولا تهتم، أو أن تأتيني فقط للّوم فأكون محطةً لتفريغ غليانها وضغوطها..

لماذا أمّي لا تشبه أغلب أمّهات هذا الكوكب، ولا تنتمي إلى فضاء مشاعرهنّ المرهفة؟!!

لن ألقي اللوم على ظروفها أبداً، لأنها هي من اتّخذت قراراً بالزواج من أبي الذي يكبرها بخمسة وعشرين عاماً، رغماً عن جدّتي المسكينة التي تعتبرها فتاتها الوحيدة المدلّلة..

هي من أمعنت وأصرّت وتحدّت، مع أنّها كانت على علم أن أبي تخلّى خلال الحرب عن منصبه كضابط وانضم إلى صفوف إحدى الميليشيات الحزبية المسلّحة، مستخدماً خبرته العسكرية وصلابة انفعالاته للتنكيل بالأفراد والمباشرة بعمليات الذبح على الهوية.. ورغم ذلك، أحبّته وتزوّجته وصارت تعرّف الناس به على أنّه ضابط متقاعد. حتى أمواله، هي تعرف مصادرها، فأبي من أولئك الذين يطلقون عليهم اسم «أثرياء حرب»، عبارة لم أدرك كُنهها عندما أخبرتني بها جدّتي، وجلّ ما فهمته حينها أنه يجمع المال بأساليب دنئية.

كل تلك المؤشرات، كان على أمّي، التي تجاوزت الثلاثين آنذاك، أن تلتقطها كلّها أو حتى بعضها لتُوقِن أن رجلاً أحبَّته ليس بمستوى قيَمها ومشاعرها.. خصوصاً أنّ وظيفتها مسؤولة للعلاقات العامّة في مصرفٍ كبير، لا بدّ وأن تجعلها برجاحةِ عقلٍ وقدرةِ تمييزٍ بين الخطأ والصواب.

إذن، لا عذر أُلبِسُه لقسوتها..

هي من ملكت القرار والاختيار، فلماذا تأخذني بذنبٍ هي اقترفته؟! بل لماذا أنجبتني بعد حوالي خمس سنوات من زواجها، وقد اتّضحت لها الرؤية وعرفت أنّ أميرَها المُختار ليس إلا روحاً بائسة بهيئةٍ بشريّة!

اليوم.. صبيّةٌ أنا من وَحدة.

تشرّبتُ خيبتي جرعات، ومع ذلك كان لها طعم مرارةٍ وعلقم. فقدتُ الكثير من هدأة روحي وأنا أعيش انتظاراتٍ وخسائر، لكني بقيتُ على عهدي لجدّتي بأن لا أدع براءةً تنسرب من بين أناملي، وأنّ لا أتخلّى عن أصالتي كوردةٍ جوريّةٍ، مهما احتدَّت صفعات الزمن.

***

هو صباحٌ غريبٌ ذاك الذي استفقتُ فيه على وقع الضجر والتعب. كيف يمكن للمرء أن يرتدي سأماً وإنهاكاً وهو ما زال في أحضان نومٍ وشبه إغفاءة!!

طاقتي معدومةٌ للحركة، وأكاد لا أشعر بالنبض.

لستُ مريضةً، ولم تعترني عوارض زكامٍ أو وجع. لكنّي أذكر بقايا حلمٍ كنتُ فيه أُسرِع الخطى وألهث، ربّما خوفاً أو محاولةً للّحاق بشيءٍ ما..

أذكر كيف أمضيت الليلة بين كرٍّ وفَرّ، لا هدف محدّد ولا عدوّ أخشاه.. لكنّه هروبٌ من اللاشيء ومن كل شيء.

صوت أنفاسي ما زال صداه يتردّد في البال.. وحلقي يعاني جفافًا لا يكفي لإروائه سيلٌ وأكثر.

أحسستُ انقباضًا شديداً، وضِيقًا في الصدر..وكلّ ذلك دون أن أدرك سببًا لكلّ ما أنا فيه من عبثٍ في الشعور.

عندما استرجعتُ بعضًا من هدأتي وتركيزي، فوجئت بصخب الفتيات في الغرفة.. أمعنت النظر إليهن فإذا بهنّ بملابس حمراء وربطات شعر حمراء وأقراط حمراء..

ما كلّ هذا الأحمر؟!!

حتى الغرفة عندما تأمّلتها وجدتها مزدانةً بورد أحمر.. والدمى الحمر مبعثرة هنا وهناك..

وعلى حين ذهول، فاجأني صوت واحدةٍ من الفتيات تقول:

«ألن تشاركينا ارتداءَ الأحمر؟؟ اليوم عيد الحب، أم أنّ هذه الكلمة لم تدخل قاموس حياتك مطلقًا؟ ومن سيحبّ فتاةً متوحّدةً مثلك..هاااه؟ صعب..».

ثمّ قهقهَت بصوتٍ عالٍ وانصرفت إلى الأخريات..

كلمات لها وقعُ سكّينٍ على الرقبة، رمَت بها أمام براءتي، شوّهَتها، سخرَت منها.. ووضعَتني في خانة المُبغَضين.

يا لها من بدايةٍ مأساويّةٍ لنهارٍ يوصف بيوم الحبّ العالمي! كابوسٌ ضبابيّ الملامح، واجتياحٌ عاتٍ لعزلتي بدون سبب.

من قال لهذه المعتوهة أنّني لم أختبر الحب؟ ماذا تعرف هي عن مشاعر جميلة بين جدّةٍ وحفيدتها؟ لا أظنّها جرّبت إحساساً بالتآلف والودّ قد يولد بين الفرد وحاجياته البسيطة من سرير ولعبٍ وجدران؟

من أخبرها أنّ للحبّ وجهاً واحداً لا بديل له؟

وكيف أطلقَت حكماً مبرماً على قلبي، ونَفَته بعيداً عن عالم العواطف وهي أصلاً في قمّة الشراسة والتصلّب؟

لا أريد من يومي أن يستمرّ كما بدأ.. سأقصي عن البال حضور هذه المتعجرفة، وسأحاول قدر المستطاع أن أتناسى كابوساً أوهن جسدي والروح..

إذن اليوم هو عيد الحب، وأنا سأحتفي به بطريقتي الخاصّة. وأول شيء سأفعله كما اعتدتُ في مثل هذا اليوم أن ألقي التحيّة على روح جدّتي الطيّبة.

من داخل خزانتي استخرجتُ منديلاً أبيض مطرزاً بوردةٍ جورية تمتدّ بجذعها الأخضر من الأسفل لتستقرّ بوريقاتها الحمراء في الطرف الأعلى من المنديل.

هو آخر هديّةٍ تلقيتُها من جدّتي قبل وفاتها بأسبوع.. يومها كان المرض قد استحكم بها كثيراً فأقعدها عن الحركة. فبقيت قربها ألبّي طلباتها النادرة وألعب أمام ناظريها خشية أن تشعر بالوحدة..

أذكرها تنادي عليّ، فأقبلتُ مسرعةً كما اعتدتُ دائماً أن لا أتأخر عنها، هي التي لم تتأخّر عن انتشالي من داخل شرنقةٍ مقفلة لأنطلق فراشةً في بستان من أمنيات.

دنوتُ من ضعفها، وإذا بها تسحب المنديل المطرّز من تحت وسادتها وتعطيه لي وهي تقول:

«وردي الصغيرة.. هذا المنديل صنعتُه لكِ يوم ميلادك وخبّأته في جعبتي لمثل هذه اللحظة. لا أعرف إن كان في العمر بقيّة لأراكِ تستخدمينه.. حافظي عليه فهو بقيّةٌ مني ترافقكِ أينما حللتِ. لا تمنحيه لأحد ولا تفرّطي به. خذيه معكِ أينما انتقلتِ، واجعليه دليلاً على حضوركِ كعطرٍ شهيٍّ يبقى عندما ترحلين»..

أمسكتُ المنديل وقبّلته ثلاثاً، ثمّ وشوشتُ له بكلمات حبٍّ علّها تصل إلى جدّتي في سباتها الطويل.

نداءٌ على مكبرٍ الصوت انتشلني من حالة الحنين.. إنّه صوت السيّدة «جلجل» كالعادة تخبرنا أن وجبة الفطور اليوم فقط اختياريّة، وتدعونا إلى عدم التأخّر عن وجبة الغداء التي ستكون -استثنائيّاً- عند الساعة الواحدة إلا ربعا بدلاً من الثانية والنصف، باعتبار أنّ احتفالاً صغيراً سيبدأ عند الثالثة بمناسبة عيد الحب (اعتدنا كل عام أن نقيمه) سيتمّ فيه تبادل الهدايا بين التلميذات والمشرفات والمُدرِّسات، وسنتناول فيه الحلويات المختلفة من بقلاوة وكنافة وغيرها..

أنا عادةً أشارك في الاحتفال حضوراً لا فعلا، فلم يسبق لي أن أهديتُ أحداً أو تلقيتُ أيّ هديةً. وباعتبار أنّ ضيقاً ما زال يرافقني جرّاء الكابوس الليلي لم أشعر برغبةٍ في تناول أيّ شيء، فارتديتُ ملابسي وتوجّهتُ مباشرةً إلى قاعة الموسيقى التي كانت فارغةً من أيّ حضور، احتضنتُ البيانو - آلتي المفضّلة - وغرقتُ في معزوفاتي خارج حدود الزمان والمكان..

«نداءٌ أخير إلى الآنسة وَرد، فلتتفضلي بسرعةٍ إلى غرفة الطعام لتناول الغداء.. نداء أخير..»..

فكأنّني أصبتُ بصعقةٍ كهربائيّة، انتفضتُ من مكاني. هكذا دائماً تأخذني الموسيقى من ذاتي وواقعي وتحملني إلى حيث أغدو أميرةً وفراشةً ووردةً في بستانٍ من مرمرٍ وياقوت.. أطرح هناك خيباتي ولحظات ضعفي وحزني، وأعود محمّلة بأعواد البخور وبأطواق من نرجسٍ وياسمين.. واليوم غرقتُ أكثر في الخيال لأن جدّتي حبيبتي كانت ضيفةً ومستمعةً ومشجِّعة.. وعند حضورها ينتفي هذا العالم من الوجود، وأخترع للقائها مكاناً لا خارطةَ له ولا دليل..

***

إلى طاولة الغداء تسلّلتُ ببطء خشية أن تلمحني السيّدة «جلجل» وتبدأ سلسلةً من الشتائم والتهديد والوعيد، رغم أن تأخيري لم يطل أكثر من دقيقتين كنت بعدها ماثلةً على الكرسيّ أتناول أولى اللقيمات.

لحظات معدودة مرّت ساد خلالها هدوءٌ تامّ اعتاد أن يرافق الوجبات بناءً على تعليمات الإدارة..

كنتُ سارحةً في وجبتي، عندما انتفضت طاولة الطعام من أمامي وتطاير كلّ ما عليها من صحون وأطعمة، ترافق ذلك مع دويّ صوت كصاعقةٍ.. كبركان ينفجر.. شعرتُ بعده برنين حادٍّ يصفر في أذنيّ وبضغطٍ حادٍّ داخل جمجمتي كاد أن يهشّمها، ثمّ فراغٌ صوتي مخيف ظننتني معه فقدتُ حاسّة السمع..

إثر ذلك، رأيتني مرميّةً على الأرض وزجاج يتطاير من كل مكان لينهمر فوق رأسي.. تقوقعتُ بعفويّةٍ في شكلٍ جنينيّ وأغمضتُ عينَيّ في محاولةٍ للهرب والاختباء..

صراخٌ متصاعدٌ من هنا وهناك حملني على البكاء، صرتُ أرتعش رعباً وأنادي بملء صوتي جدّتي حتى كدتُ أصاب بخرسٍ في حنجرتي الثائرة، ذات بغتة..

استمرّ ذلك الجنون بضع ثوانٍ فقط، حسبتُها ساعات من فرط الخوف والألم.. كنتُ أظنني وحدي من أصابها الذهول وسط هذا الجنون، لكن عندما هدأ الصخب استقمتُ بصعوبةٍ في جلستي لأجدني مدمّاةً في أكثر من مكانٍ من جسدي بسبب الزجاج المتكسّر.. وحولي جميع الفتيات ممدّداتٍ على الأرض في وضعيات مماثلة أو أشدّ بؤساً..

القاعة كلّها بدت رأساً على عقب، فلا طاولات ولا أطعمة.. لا نوافذ ولا أبواب زجاجية. كومٌ من الأغراض فوق بعضها البعض، فلا تستطيع أن تميّز كرسيّاً عن غيره.. كلّ شيءٍ استحال قطعاً مهشّمة متراكمة.

ماذا حدث!.. أهو زلزال؟!

لم أشهد حدثاً كهذا في حياتي، لكنّ جدّتي أخبرتني أنّ زلزالاً مدّمّراً ضرب منطقتنا منذ آلاف السنين. كان ذلك في العام 551م، ونتج عنه دمارٌ شامل لجميع المدن الساحليّة التي تحوّلت إلى أنقاض، بالإضافة إلى أعدادٍ ضخمةٍ من الخسائر البشريّة، ذلك أن العاصمة وحدها شهدت ثلاثين ألف ضحيّة.. نتج عن الزلزال أيضاً تسونامي ضخم وصل بتأثيره إلى العديد من المدن الساحليّة البعيدة، فدمّر ما تبقى قائماً وأغرق مئات السفن الراسية.

أنينٌ خافتٌ أتاني من الخلف.. التفتُّ لألمح شيئاً يتحرّك تحت كومةٍ من الخشب. حبوتُ رغم وجعي لأتفاجأ بجزءٍ من ملابس السيّدة جلجل ظاهراً بوضوح. إنّه القميص الأزرق الذي لا يفارق جسدها إلا عند زيارة بعض الضيوف للمدرسة.

بكامل طاقتي المتبقيّة، صرت أرفع قطع الأخشاب التي استعصى بعضها عليّ بسبب ثقلها. وعندما انكشف الجزء العلويّ من جسدها أمسكتُ بيدها وصرتُ أسحبها على قدر استطاعتي.

سمعتُها تتأوّه، فخشيت أن أصيبها بمكروه.. واحترتُ في أمري، لا أستطيع تركها في وضعيّةٍ كهذه ولا طاقة لي لنداء أحدٍ يساعدني، إذا كان هناك ثمّة أحد على قيد الحركة والنبض..

استجمعتُ كامل قوّتي ورحتُ أسحبها شيئًا فشيئاُ، حتى صارت ممدّدةً بجانبي على الأرض.. ثمّ ارتميتُ قربَها في شبه إغماءةٍ من شدّة التعب.

ذاك الكابوس الذي راود منامي الليلة الفائتة لم يكن مجرّد هذيان.. صحيح أنّه ضبابيّ المعالم، لكنّه تضمن رسالةً مبطّنةً بحدثٍ سيعصف وتعبٍ سيطغى..

قرأتُ كثيراً عن أشخاص يملكون قدرةً على استشراف بعض الأحداث من خلال أحلامهم، وشاهدتُ عبر شبكة الإنترنت العديد من الفيديوهات التي يحكي أصحابها عن تجاربهم في الموضوع، وكيف أنّ بعضهم أصابه اليأس جرّاء انتظار أمورٍ مؤلمة ستحدث، ممّا دفعهم إلى محاولات متكرّرةٍ للانتحار.

تُرى، هل أنتمي إلى هؤلاء الأشخاص؟! لم يسبق أن حصل معي مثل هذا الموقف، وكم أتمنى أن يكون عارضًا!

أن تبقى آملاً في كلّ لحظةٍ شيئا جميلا قد يأتي، أفضل بكثير من انتظار أمرٍ تعرفه قد يحمل وجعًا..

ما جرى اليوم لم يكن زلزالاً، وهذا ما عرفناه لاحقًا.

بعد أن استفقنا كلّنا من الصدمة واسترجعنا بعضاً من هدأتنا، تبيّنا أن الخسائر ماديّة بحتة والإصابات عبارة عن جروح طفيفة لم تستثنِ أحداً. وحدها السيّدة جلجل أصيبت بكسرٍ في يدها، ممّا اضطر الطبيب المعالج إلى تجبيرها لمدّة شهر.

كان علينا أن نعرف حقيقة ما جرى، فتوجّهنا إلى قاعة الجلوس الكبيرة حيث التلفاز لا يزال صامداً ومعلّقاً على الحائط وسط خرابٍ أصاب زجاج النوافذ وواجهات المكتبة الضخمة. الأرائك بالطبع لم يصبها مكروه لضخامتها وثقلها فظلّت قابعة مكانها، لكنّها استقبلت مئات القطع الزجاجية فصارت غير صالحةٍ للجلوس لحين تنظيفها.

على التلفاز كانت كل المحطّات الأرضية والفضائيّة تتحدّث عن موضوع واحد.. حادث اغتيال ضخم وسط العاصمة لشخصيّةٍ سياسية محليّة عالميّةٍ بارزة كان لها الدور الأكبر والفاعل في إنهاء الأحداث الداميّة للحرب وإرساء قواعد السلم الأهلي..

الصور والفيديوهات الحيّة من موقع الحدث بدت كارثيّة كزلزال فعليّ.. المشاهد الموجِعة حملتنا جميعاً على البكاء، وبعض المشرفات رحن يلطمن وينتحبن بشكلٍ هستيريّ وأخريات صرنَ يتمتمنَ بحسرة: «طار البلد.. طار البلد.. العوض على الله»..

وقفتُ بكامل ذهولي أرقب التلفاز. أنا الفتاة التي لم تتعاطَ شؤون السياسة مطلقاً ولا اطّلعت عليها، أصابتني غصّةٌ لم أعهدها من قبل

وحـزنٌ تغلغـل كالـدمّ في أوردتي.. صـرتُ أرتعـش مـن بشـاعة المشـاهد ووحشيتها، وبكيـتُ كما لـم أفعـل مـن قبـل سـوى مرّة واحـدة عند وفـاة جدّتي..

يا إلهي.. كلّ هذا الكره والحقد في عيد الحب!

من يستطيع أن يكون بمثل هذا الإجرام وهـذه الوحشيّة، مهمـا طغـت المصالح وتنازعت الرغبات؟!!

هـو انفجـارٌ مريـع بكـل مـا للكلمـة مـن معنـى، سـمعه جميـع سـكان العاصـمة، وأحـدث حفـرةً ضـخمةً بعـرض عشـرة أمتـار وعمـق متريـن في المكـان، وتسـبّب الركـام المتطـاير في تحطـيم زجـاج النوافـذ وإحـداث تخريبٍ كبير للمباني المحيطة على مسافة تبلغ حوالي نصف كيلومتر، كما حصـل لمدرسـتنا.. الإصـابات تجـاوزت المئتـين والضـحايا كثـر مـن المدنيين الذين كانوا قريبين لحظة حدوث الانفجار..

الصـور تجلّـت كسـاحة حـرب، فالـدخان الأسـود غطّـى كـل مظـاهر المكان، وما إن بدأ بالانقشاع حتى انكشف الواقع على مرارةٍ وحسرات.

جثثٌ وأشلاء منتشرة هنا وهناك على امتدادٍ واسع، أسطولُ سياراتٍ لم تعد تملك من اسمها إلا هياكـل حديديّة شابها السـواد، أبنيـةٌ مـدمّرة وقـد أصـابها احـتراق شـديد.. ونيـرانٌ لا تـزال مشـتعلةً بحـدّةٍ لتؤكّـد أن نفوسـاً جهنّميّةً عبرَت ذات ضغينةٍ من هنا.

وهناك، قريباً من موقع الانفجار رجال الإنقاذ يمسكون هيكل إنسانٍ عثروا عليه شبه حَيٍّ وقد اختفت ملامح وجهه من حريقٍ غزاه، فغدا كقطعة فحمٍ من أعلى رأسه المشوّه إلى أسفل قدميه المهشّمتين.. كلّ ذلك في محاولةٍ لإخراجه من جحرٍ قاتم، في تحدٍّ لمؤشراتٍ تؤكّد أنّ ملاك الموت لن يطيل الغياب عنه..

هي المرّة الأولى التي أعثر فيها على مشتركٍ بيني وبين الأخريات، إذ قضينا جميعنا النهارَ بطوله وقسماً كبيراً من الليل ونحن نتابع المشاهد المأساويّة ونستمع إلى التحليلات والتعليقات.. نبكي أحياناً، وندعو للشهداء والأحياء مرّةً أخرى..

منذ أن حصل الانفجار، والاتصالات بدأت تنهال على هاتف الإدارة لتسأل وتستخبر عن حال الفتيات.. الكلّ يريد أن يطمئنّ ولأكثر من مرّة، فهنا في المدرسة تقبع فلذات الأكباد وهنا يكمن الاستثمار الحقيقيّ للأسر..

إلّا أنا.. ارتقبتُ طويلاً حتى تأتيني مشرفةٌ وتطلبني لأردّ على اتّصالٍ هاتفيّ من أهلي، لكن ذلك بدا سراباً في صحراء انتظارٍ بلا نهاية.

حتى في مثل هذا الظرف الكارثيّ، لم أعثر على قلبٍ يخفق فزعاً عليّ، أو حتى يرتدي لباس الخوف في محاولةٍ لتمثيل دور أبوّةٍ متعاطفة أو أمومةٍ موجَعَة..

فعلاً هو يومٌ مشهودٌ له بانتفاء الحبّ.. وبانعدام المشاعر..

فيا لهولِ كارثةِ الوطن.. ويا لفظاعةِ مأساتي!!

***

صحوتُ في ساعةٍ متأخّرة على صداعٍ ووَخز إبرٍ في الرأس.. أسبوعٌ انقضى على تلك الحادثة المشؤومة لم أتمكّن خلاله من النوم إلّا لسويعاتٍ قليلة.

وحتى عندما أغفل عن الواقع لبضع وقتٍ، تهاجمني الكوابيس المليئة بالهلع والهروب والرصاص، فأصحو تَعبةً متوتّرة.

اليوم إجازة، فلا دروس ولا صفوف ولا التزامات. وهذا يبدو مناسبًا لحالتي النفسيّة والجسديّة، فلا طاقة لي ولا احتمال.

قرّرتُ أن أبقى في السرير عَلّي أتفادى هزّاتٍ وبراكين وثرثرات من هنا وهناك، لكنّ قراراً كهذا يبدو في مدرستنا سلوكًا يتجاوز وثيقة حقوق الإنسان العالميّة. فما إن عدتُ إلى إغماض عينَيّ حتى اقتحمَت المشرفة الغرفة وهي تنادي باسمي وكأنها في مداهمةٍ بوليسيّة. انتفَضتُ عن السرير، ووقفتُ بكامل إرهاقي وذبولي أرقب جنونها بحذر..

«وَرد.. أنتِ مطلوبة فوراً إلى الإدارة.. ممم.. كما أنتِ بملابس النوم..»..

اعتراني قلقٌ مباغت..فلماذا تطلبني السيّدة جلجل وهي لم تفعل ذلك من قبل على مدى سنوات؟!! لا بدّ أن المسألة ملحّة..

لم أُرِد أن أوهم نفسي بما اشتقتُ حدوثَه، فأذهب ولا أعثر على من انتظرتُ.

انتعلتُ حذائي وتوجّهتُ مع المُشرفة بقدمين مرتعشتين وقلبٍ ينتفض..

في الإدارة، بدا المكان خالياً إلّا من السيّدة جلجل التي تراءت وقد بدا عليها القلق من أمرٍ ما..

ما إن تركتني المشرفة وغادرت حتى دُعيت بشيءٍ من اللطف المصطنع إلى الجلوس.. استغرَبتُ حالة الوداعةِ التي ظهرت فجأةً في طباع السيّدة المديرة التي صمتَت لدقائق ثمّ بادرت بالكلام:

«أولاً أودّ أن أشكركِ على مساعدتكِ لي يوم الحادثة، ربّما لو لم تنتشليني لكان وضعي الآن سيئاً جدًّا. أعرف أنّ الشكر جاء متأخّراً، ولكن لكلّ أمرٍ أوانه.. احم احم احم..».

تنحنحت مرّات ومرّات.. ثمّ عاودَت الكلام:

«في الواقع لم أستدعِكِ من أجل الشكر، ولكنّ مسألةً هامّةً فرضت نفسها..مممم.. حسناً، اليوم هاتفتني والدتكِ، كانت تبكي..مممم.. طلبت مني أن أُعلمكِ أنّ يوم الحادثة البشعة كان والدك يمارس رياضة المشي بالقرب من موقع الانفجار، وعندما حصل ما حصل أُصيب بحروقٍ كثيرة والبارحة فارق الحياة في المستشفى..مممم.. تعازينا الحارّة

لكِ وآمل أن تستقبلي الموضوع برجاحة عقل وتتقبّلي ما حدث فهذا قدرٌ لا يمكن ردّه..»..

بقيتُ مكاني عاجزةً عن الحركة والشعور لمدّة دقائق.. والسيّدة جلجل ماثلة أمامي خلف مكتبها، وقد حنَت ظهرها إلى الأمام لتُبصر أدقّ تفاصيلي وتعابير وجهي، وراحت ترقبُني باهتمام.

صارت ترفع نظارتها تارّة وتعيدها تارّةً أخرى.. تحرّك حواجبها يمنةً ويسرةً بطريقةٍ غريبة، وتفتح فمها لتتكلّم ثمّ تعود لإغلاقه دون بَثّ حرفٍ واحد.

أخذت تُنقِّل أنامل يدها اليسرى على طاولة المكتب بشكلٍ دائريّ، ثمّ أصبحت حركاتها سريعةً وأكثر عشوائيّة، في إشارةٍ واضحة إلى غيظٍ مكبوت وافتعال لتعاطفٍ غير موجود.

وبعد صمتٍ مهيب، وقفتُ بصلابةٍ وجأش وقد تخشّبَت ملامحي وسكنها الجمود.. جفَلَت السيّدة جلجل من حركتي المباغتة فانكفأَت إلى الخلف ثمّ استقامت في جلستها وسوّت ملابسها، ونظراتُها لا تزال تتفحّص أدقّ مساماتي.. ألقيتُ عليها التحيّة بهزّة من الرأس، وانصرَفتُ بهدوءٍ تامّ تاركةً إيّاها بوضعيتها الغريبة ودون حتى أن أستأذنها. شعرتُ بنظراتها تخترق ظهري وتكاد تفترسني لولا هيبة الموقف وصعوبته.

توجّهتُ مباشرةً وبملابس النوم إلى قاعة الموسيقى حيث البيانو يجثو وحيـداً. عانقتُـه بأنـاملي ورحـت أعـزف مقطوعـة «وحيـد في المطـر»، والعبَرات تقطر من أهدابي دون أن أقوى على لملمتها.

الآن أصبحتُ يتيمةً باعترافٍ رسميّ وأوراق ثبوتيّة. صـرتُ وَرد الفتـاة اليتيمة التي ستُدرج في سجلّات الدولة كعنصرٍ يستدعي الشّفقة والبَـذل.. فهـل سيتغيّر شـعور اليـتم داخلـي؟! هـل سـأغدو حزينـةً أكثـر، ويعـانقني الحنـين في المسـاءات المطيـرة؟! هـل سأشـعر بالفَقـد أكثـر وتجتـاحني الحاجة إلى سندٍ يؤوي نبضي بين رفيف قلبه؟!

كلّا.. فكلّ هذه المشـاعر سبق وسـكنتني طـويلاً حتـى تعايشـتُ معهـا وباتت جزءاً من عطري، إذن، لا بدّ أن مشاعر بائسة أخرى سوف تعترض هشاشتي من اليوم، وعليّ أن أستعد لاستقبالها.

ولكن هل أنا حزينة فعلاً؟ هل أبكي أبـاً مرّ في حياتي كعابر سبيل؟

لا أعتقد ذلك..

أنــا أدرك السـبب وراء كآبــةً ارتــادَتني وشــهيّةٍ للبكــاء اجتاحــت الأهداب..فاليوم أصبحتُ على يقين أنّ جنيّة الحكايا لن تبذُر سـحرها في قلبه ذات يـومٍ مطيرٍ، فيـأتيني يحتضـن وَحـدتي ويعـدني بـأبوّةٍ مـن ياسـمين أستعيض بها عن جفافٍ امتدّ على مساحة أرضي وروحـي.. ولأنّـي أيضـاً عاهدتُ نفسي وأنوثتي على أن أصبح يومـاً الفتاة التي تُحدث فَرقـاً ويلمع

بريقها، في تحدٍّ لقسوته، ولأؤكّد له أنّ جِنسي لم ولن يكون نقصاً أو لعنةً تستدعي التبرّؤ منه.

واليوم.. فات أوان كلّ ذلك..

لم يمنحني القدر فرصةً لأسترجع كرامة أنوثتي، وأُحَمّل ضميره عذاباً وندماً.. فباغتَني وأطفأ وهج انتظاراتي.

كيف أستطيع من الآن مواجهة العالم، وكلّ طاقتي التي استجمعتُها طوال سنوات لأثبت أنّي الأنثى القويّة، قد تناسلَت مني وتطايرت رذاذاً؟!

رحتُ أبكي ذاتي وضعفها، وأضرب بأناملي على مفاتيح البيانو بقوّة فتصدح الموسيقى عالياً ويتردّد صداها في زوايا القاعة الكبيرة الفارغة من كل شيءٍ.. إلّا من تعبي وحرقة الروح..

***

الفصل التاسع

منذ أن عرفتُ بحادثة أبي وأنا أعيش ازدواجيّةً غريبة.. تارّةً أتذكّر سيرة حياةٍ كنتُ فيها ضحيّةً وكان هو الجلّاد، فأشعر بسعادةٍ وإن خجولة ومتوارية بين الأنفاس وأشكر قدراً أنهى مأساةً أعيشها بحضوره الغائب.. وتارّةً أخرى أحسُّ بالخزيِ من شماتةٍ تتسلّل إلى نبضي بخفّةٍ وخيلاء ، من دمعةٍ تأبى أن تسيل على ذكرى شخصٍ تجاوز السبعين وانطفأ وجوده من هذا العالم بطريقةٍ مقزّزة، فاشتعلَت أوصاله والتهبت روحه وغابت ملامحه البشريّة المترهّلة قبل أن يغيب عن هذا الوجود..

لو أن جدّتي على قيد الحياة، لرَثَت لحاله حتماً ولطلبَت مني أن أكون على مستوى راقٍ من الإنسانيّة، فأتعاطف مع وفاته وأعيش ذكراه كأيّ ابنةٍ ترثي والدها.. أن أنزع غِلّاً من صدري المنهَك من طول لهاثٍ خلف حلمٍ وانتظارٍ، كنتُ أعرف ومنذ البداية استحالة تحقّقه.

لكنّ قلبي عنيد.. أبى أن يعيش مأساةً في غير مكانها.. حاولتُ أن أعقد صفقةَ حزنٍ معه لأمسح شعوراً بالذنب يقضّ مضجع هدأتي أحياناً، لكنّه رفض.. وبحزمٍ راح يدعوني للرقص على وقع خَفقه متناسياً خجلاً يعتريني أمام طيبة جدّتي وقدرتها على التسامح، ومتغافلاً عن مكانٍ أعيش فيه يكبّل انطلاقةَ روحي ويتصيّد أخطائي ليصبَّ عليّ كامل عُقَد البشريّة.

انفصامٌ منهِكٌ في المشاعر أحياه، زاد من تشتّتي ورفع مستوى حاجتي لعزلةٍ أعترف لها بخبيئاتي النفسيّة، فتغمضُ ثناياها على وجعي وتترك لي مساحةً من الخصوصيّة أبعثر فيها تناقضاتي بعيداً عن عيونٍ ترقب وقلوبٍ تحقد.

ليت جدّتي هنا لأقدّم لها اعتذاراً عن قساوتي التي استجدَّت، أو ربّما كانت كامنةً بين طيّات الفؤاد، وعندما سنحت الفرصة خرجَت بكامل جنونها وجموحها تتبختر فوق الملامح وبين تلابيب الفكر والوجدان.

ولأنّي أعرف أسلوب الترقّب والترصّد الذي يتقنه الجميع في المدرسة خصوصاً إذا تعلّق الأمر بي، تقصّدتُ أن أمحو كل أشكال الانفعالات عن وجهي وأظهر بقناعٍ من جمودٍ حتى لا أدع أمامهنّ أيّ مجالٍ لحياكة القصص وابتداع الحكايا حول أسراري الكامنة في قوقعة الروح.

صارت السيّدة جلجل تكثر من زياراتها التفقديّة للغرف، وعندما تصل إليّ تتقصّد أن تفتعل أيّ موضوع أو مشكلةٍ لتطيل مكوثها في الغرفة وتأخذ وقتها في تأمّل سكَناتي وخَفقي، وكأنّها في انتظار إشارةٍ تُثبت بها نظريّةً ابتكرَتها حول شخصيتي وطباعي ومكوناتي النفسيّة.. وأنا رحتُ أتلقّف حضورَها في كلّ مرّة بلامبالاةٍ ترتع على وجهي وافتعال غباءٍ يُبعد عني حشريّتها المتأجّجة.

ولكن.. بيني وبين ذاتي كان ثمّة تخبّطٌ وتنازع وخصومة، ليس بسبب ازدواجيّة المشاعر فقط، بل لأنّ إحساساً مفجعاً بالغُبن والخذلان عاد

ليطفو على سطح التأمّلات.. وهذا ما لم أرغب أن تكشفه السيّدة جلجل بحواسها المتيقّظة..

أنا فعلاً فتاةٌ مخذولةٌ ومحبَطة.. عندما علمتُ بمصير أبي راود خيالي خاطرٌ واحد.. لا بدّ أنّ أمّي ستأتي لتحتضن وجودي بعد طول غياب وتصحبني لأعيش بين خفقات قلبها، بعد أن ارتحل من كان حاجزاً بيني وبين أمومتها المغيّبة..

ومنذ تلك اللحظة، رحتُ أنتظر قدومها، وأطلّ من نافذة أفكاري على الواقع، أنبش هنا وهناك، وأشمّ زوايا المكان علّها تحمل إليّ عطرها ذات صباحٍ مشرقٍ بالأمل.

لكنّ الأيام مرّت ببطء، وتلتها الشهور.. ولم يتغيّر شيء..

صرتُ أسائل ذاتي عن سبب غيابها، ورحتُ أمنحها المبرّر تلو الآخر.. فمرّةً أتصوّرها متعبةً بعد الظروف الغريبة التي عبَرَت بها، ومرّةً أخرى أراها خائفةً من ردّة فعلي إزاءها إن هي حاولت التقرّب.. ومرّات أخرى ألتمس لها ألف عذرٍ بلا أهميّة.. وأنا في كل ذلك أعلم جيّداً أنّني لم أخطر على بالها ولا شكّلتُ بالنسبة إليها قضيةَ حياة..

حسناً.. لا أريدها أن تصحَبَني بعيداً عن هذا المكان الذي اعتدتُ برودته وتآلَفتُ معها، لكنّ زيارةً من وقتٍ لآخر لن تحمل إلى روحها عبئاً وإلى حياتها صخباً لم تعتَده.

فلتعتبرني إحدى صديقاتها اللواتي تخصّص لهنّ ساعات، وترى حضورهنّ من أساسيات الوجود.. أو لتتصوّرني إحدى عميلات المصرف الذي تعمل فيه وتُقبل إليّ لتفاوضني وتفتح معي طريقًا نحو علاقة قد تعود بالفائدة علينا نحن الاثنتين..

لا أعلم فعلاً من أين لها بهذا القلب، بليد المشاعر فاقد الانتماء لعالم الأمومة الملائكيّ!!!

لو أنّها فقط تحاول مخاطبة مشاعري، ستتغيّر أمورٌ كثيرة..

لكنّها غائبة.. بعيدة.. وربّما مكتفية بأمومتها لابن لم يرتبط بها يومًا لا بالروح ولا بالجسد..

تُرى ماذا حدث لأخي الوهميّ طوال السنوات الفائتة؟؟ أنا لا أعرف عنه شيئًا، حتى عندما عشنا سويًّا في بيتٍ واحد، ظلّ بعيداً وناقمًا وفظّ الطباع. لم يحاول مطلقًا أن يجالسَني أو يحادثَني رغم كوننا من جيلٍ واحد. هو يكبرني بحوالي السنتين فقط وهذا لا يعتبر فرقًا في عالم الأرقام وغموض الزمن. لكنّه كسواه ممن عرفتُهم، استمرّ في معاداتي وحثّي على الانعزال أكثر تفاديًا لأيّ احتكاكٍ غير محمود العواقب.

أخي!!

كلمةٌ بدَت غريبةً عن قاموس مشاعري يوم اصطدَمتُ بها في يومٍ غريب الملامح، وما زالت تحتاج الكثير من المصطلحات الموازية لأسبر معناها وأفهمه.

ماذا يفعل الآن ذاك الأخ؟ هل ضرب الحزن أصقاع قلبه بعد حادثة أبي؟ أم أنّ أبـًا وهميـًا لا يمكنه أن يستدعي تعاطفـًا، وإن فعل فسيكون مفتعلاً فارغـًا من حضور النبض؟!!

هل وجوده في مثل هذا التوقيت يشكّل مواساةً لأمّي التي أضحت وحيدة.. بإرادتها!! أم أنّ له حساباتٍ خاصّة أبعد بكثير من احتضان امرأة برتبة أمٍّ افتراضية؟!

لن أشغل تفكيري بهموم إضافيّة، فعندي ما يكفي ويفيض.. وسأترك الأيام تتولّى إزاحة الستار، فوحدها كفيلةٌ بمَحْوِ أيِّ مُبهَم وتقديم الأجوبة على طبق من يقين.

***

إنّه يومٌ خريفيٌّ بامتياز، وحديقة المدرسة تبدو باهتةً تنسرب منها الحياة ببطء.. أشجارٌ فقدَت زَهوها وباتت جسداً عاريـًا يحتفظ ببعض الوريقات ليداري سَوأته. والأرض صارت أشبَهَ بأفق ضبابيّ أولى سويعات الغروب، وغدت كآلةٍ موسيقيّة صدئة تعزف خربشاتٍ كلّما وطِئتها قدم أو عاثت الريح فيها عصفـًا.

وأنا أجلس الآن أمام البيانو في القاعة الكبيرة، بعيداً عن أيّ حضورٍ آخر.. فشهيّتي للوَحدة متّقدةٌ، والخريف يرفع مؤشّر الحنين عندي فأذوب في دَفق الذكريات..

ودائمـاً، عنـد كـل اشـتياقٍ، تكـون جـدّتي أولـى الحاضـرات..ها هـي تجلس على كنبتها المفضّلة قرب النافذة، تَرقب هَطلاً رقيقـاً وتدنـدن مع فيروز، وأنا أرافقها عزفـاً وروحـاً:

«ورَقو الأصفر شهر أيلول تحت الشبابيك
ذكَّرني وورَقو دهب مشغول ذكَّرني فيك
رجع أيلول وإنت بعيد بغَيمة حزيني قمرها وحيد
بيصير يبَكّيني شِتي أيلول ويفَيّقْني علَيك يا حبيبي
ليالي شِتي أيلول بتشبه عينَيك
يا رَيت الرّيح إذا إنت نسيت حبيبي أول الخريف وما جيت
ينساها الحَور وقمرها يغيب ولَيلا يطول
وْنِبقى حبيبي غريبي وغريب أنا وأيلول»..

أحبّ الخريـف وأرثـي لحالـه.. أشـعر أنّ بيننـا شـبهـاً يمتـدّ مـن حزنـه الساكن، إلى انهماره الهادئ على حين ضَعف.

وتوقيتي خريفيّ.. أتوارى بين خصلاته المنسكبة وأتماهى بانسرابه، وإن باغتني أحدٌ أُخبره أنّها بصمات المطر.

مزاجي أيضـاً بنكهة الخريف.. هدوء يجتاحني في موسم الانتظار، ثـمّ أراني أعصف ثورةً وتمرّدا.. كلّ ذلك وفي داخلي انهمارٌ رقيقٌ لا يتوقّف.

وأنا في ذروة الانصباب، باغتني صوت المشرفة تنادي، وإذا بها تقف عند باب القاعة وتشير إليّ أن أحضر، وجودُها بدا مفاجئـاً لعُزلتي في يوم

عطلةٍ بـارد النـبض. لملمـتُ ذاتي الهائمـة اشـتياقـاً ونفضـتُ عـن أهـدابي أعقاب دمعٍ متكسّر.. ومضَيت.

ما إن دخَلتُ غرفةَ الإدارة حتى أمطرَت كما لم تفعل من قبل!!! صار الرّعد يتكسّر على جدران الروح، والـرّيح تعصف في البدن وتولـول كـأمٍّ ثكلى.. صقيعٌ باغت دفئي فرُحتُ أرتعش وأتصبّب برودة.

شعرتُ بجسدي يتلوّى، وبرأسي ينتفخ في استعدادٍ لدوارٍ وانفجار..

لـم أسـتطع أن أمسـك زمـام صـلابتي أو أنـادي نجـدةً فهوَيـتُ ورقـةً خريفيّةً..

عندما صحوت، بدا المشهد صادمـاً بدرجة زلزال!

وجدتُني ممدّدة على الكنبة الكبيرة وفي مواجهتي مباشرةً وجـهٌ ضـخمٌ للسيّدة جلجل التي أخذت تقرّب ملامحها مني أكثر، وتحرّك نظارتها كما اعتادت صعوداً وهبوطـاً.. وفجأةً، أطلقت صيحةً مدوّية وصارت تشير إليّ بكلتا يديها قائلة: «استفاقَت.. استفاقَت»..

امرأةٌ في العقد الخـامس مـن العمـر، أنيقـة المظهـر، هادئـة الانفعـالات لدرجة اللامبالاة تقدّمت مني، مثَلَت أمام ناظري، ووقفت بصمتٍ تحمل حقيبة يدها اللامعة وكأنها على عتبة انتظارٍ ورحيل..

إنّها.. أمّي!!

بقيتُ مكـاني ممـدّدة، عـاجزةً عـن الحركـة، بنظـراتٍ جليديّـةٍ وقلـبٍ ملتهب..جرّبتُ الكلام وفشلت، حتى أنـاملي أبَـت أن تتحـرّك في محاولـةٍ منها لخيانتي في أكثر وقتٍ احتجتُ فيه وفاءَها..

ماذا لو بقيتُ متصلّبة، وعجزتُ عن تنفيذ ما تمنّيته طويلاً؟!!

ماذا لو غادرَت، وخسرتُ فرصة حياةٍ جديـدةٍ بعيـداً عـن هـذا المكـان الكئيب؟!!

صرت أهمس بصمت..

أرجوكِ أمّي.. لا ترحلي..

هـي المفاجـأة فقـط كبَّلَتنـي، وحالَـت دون انسـكابي بـين أحضـانكِ.. تريّثـي قلـيلاً ريثمـا أسـتعيد سـكينتي ، وسـأحتويكِ بـدل أن تحتـويني. سـتكونين طفلتـي المدلّلـة، ولا بـدّ أن سـعادتي بـكِ، بعودتـكِ، وبلقائنـا الجميل ستوقظ مشـاعر أمومـةٍ كامنـة، فتترقـرق وتنسـاب بـين أوردتـكِ.. وترويني..

«أمّي..»..

ناديتُها بصوتٍ متقطّعٍ وبأبجديّةٍ تكاد تتهاوى..

ظننتُهـا سـتخلع خمـار جمودهـا وتفـتح لـي حضـنـًا اشـتقتُه منـذ ولادةٍ حزينة.. كنتُ أكيدةً من دفـءٍ سوف يشتعل بين أوردتهـا، فترمـي بجسـدها الأنيق قربي وتأخذني بين ذراعيها، كجنينٍ حديث الولادة..

ومـن فـرط لهفتـي، سَـرَت الحيـاة مـن جديـدٍ في شـرايـيني وملامحـي ورأيتُني أستعجل السعادة.. فانتفَضتُ من مكاني وهويـتُ بكامـل اشـتياقي بين أحضانها..

تراجَعَت خطوتين إلى الخلف، وشعرتُ بجسدها يرتعش!!

نظـرتُ إليهـا متسـائلةً مسـتفهمة، فأشـاحت بصـرها بعيـداً في محاولـة هروبٍ صريح..

أصـابني الـذهول بـوهن، فابتعـدتُ عنهـا ووقفـتُ أتطلّع إليهـا بعينـين حائرتين في ترقّبٍ لتفسير ما يحدث..

لكنّها لم تلتفت إليّ!!

ظلمةٌ طغت على الـروح، ولفّـت نسيجها حـول أنفاسـي حتى ضِـقتُ ذَرعـًا بالمكان.

لماذا أتت بعد انقطاع سنوات، طالما أنّ الفراغ ما زال يقطـن روحهـا؟ ماذا تريد من فتاةٍ انتبذَت بعيداً عنها عمراً مديداً؟

كنتُ أوشـكتُ علـى اعتصـار مشـاعري، والـذوبان في واقعـي المشـوَّه، فإذا بها تباغت انصياعي للقدر، وتحرّك مشاعر راكدة في تجاويف الفؤاد..

أريد أن أفهم ما أنا فيه مـن شـتات.. مـن حقّـي أن أكـون علـى بيّنـةٍ مـن مصيرٍ أُهرول إليه، وأقف علـى حقيقـة إنسـانةٍ غـادرتني طفلـة والآن تعـود لأجل.. اللاشيء. !

أيُعقل ذلك!

بالتأكيد هناك سببٌ وجيهٌ لحضورها ولولاه ما أتَت.. وما بتّ على قناعة به، أن الغاية من اللقاء تسير في اتّجاهٍ معاكسٍ لما أردتُه وتمنّيتُه بقلبٍ بريء.

***

ذهولي لم يدُم طويلاً، فالسيّدة جلجل بحشريّتها المحتدمة، رغبت حتماً بمعرفة سبب زيارة والدتي، وربّما أكثر مني.. فقطعَت حبلَ توتّرٍ امتدّ بيننا ودَعتنا للجلوس.

وكأنّ أمّي وجدت في تدخلّها فرصةً للفرار وسبيلاً للخلاص، فأسرعَت في تلبية طلبها، غير عابئةٍ بشرارات غيظٍ تلتمع داخل عَينَيّ وبألف سؤالٍ يتطاير من دهشتي ليستقرّ عند لامبالاتها.

وعلى الكرسيّ جثَت.. وضعت رجلاً فوق أخرى وحقيبتها اللامعة تتمايل في حجرها.

يستحيل أن يكون لقاؤنا بعد كلّ هذه السنوات مشوّهاً هكذا وخاليَ الوِفاض!! هي حتى الآن لم تتكلّم ولم تنادِ باسمي.. وربّما ستغادر دون أن توجّه لخذلاني أيّ مواساة..

يا لخيبتي التي ترتديني عنوة، وتأبى أن تتقمّص روحاً غيري! ما عدتُ أطيق بها ذرعاً، فقد اكتفيت ومنحتُ كلّ ما أملك من انتظارات وطاقة احتمال.

فجأةً، جاءني صوت السيّدة جلجل هادئـاً لطيفـاً بشكلٍ دميمٍ لا يتلاءم مع تكوينها النفسيّ والجسديّ:

«تعالي عزيزتي.. اجلسي هنا بجانب والـدتكِ.. لا يمكنـكِ الاسـتمرار بهذه الوضعيّة فربّما يطول الكلام..»..

لـم أشـأ أن أجعـل مـن هـذا اللقـاء مناسـبة لافتعـال مشـكلةٍ أو إحـداث بلبلة، فارتميتُ على أقرب كرسيّ مني بعيداً عنهما وملامحي تلبس جديّةً تحسم أيّ تدخلٍ أو اعتراض.

ولأوّل مرّة ألمح ابتسامةً باهتةً على ثغر أمّي التي تململت في جلستها، وتوجّهَت بالحديث للسيّدة جلجل:

«لو سمحتِ سيّدة جلنار، هل بإمكانكِ أن تتركـي لـي مجـالاً لمحادثـة ابنتي على انفراد؟؟»..

فتحت السيّدة جلجل ثغرها باستغباء، ثـمّ راحـت تتمـتم بكلمـات غيـر مفهومة وتطرق بأناملها على الطاولة متسبّبةً بصـخبٍ ومزيـدٍ مـن التـوتّر.. هي التي بدت في قمّة الحماس لمعرفة ما سيكون بيننا..

ودون أن تُبدي أيّ اعتراض، خرجت من خلف مكتبها وسارت تتلوّى بجسدها المتخشّب المتعرّق.. توقّفت قليلاً أمامي وحدّجَتني بنظرة حقدٍ، وانصرفت تعتصر كفَّيها بين الأنامل في إشارةٍ إلى أفكار بائسـة تـتراقص في عقلها المريض.

هكذا.. صرنا وحدنا..

أنا وأمّي التقينا بعد أن عصف بنا القدر، تباعدت المسافات بيننا، وضاعت كل إمكانيّات التقارب.

استمرّ الصمت سيّداً في غرفة الإدارة، حتى استجمَعتُ ما تبقى من قوّة كامنة، وقلت بنبرةٍ حادّة تليق بالموقف:

«ماذا تريدين؟؟»..

التفتَت نحوي وبريق دمعٍ يلتمع في عينيها:

«عزيزتي وَرد.. أعرف أنّي مقصّرة بعض الشيء في حقّك، ولكنّك تعرفين الظروف وبالتأكيد تقدّرينها.. كنت أتمنى أن أتردّد باستمرار لزيارتك هنا، لكنّ الأمر لم يكن بيدي..ممممممم. حسناً، أنا لم آتِ إلى هنا من أجل ذلك بل هناك ما هو أهم ..»..

صمتت لحظات وأخرجت منديلاً من حقيبتها وراحت تمسح عرقاً بدأ يتصبّب من جبينها، ثم عاودت الكلام:

«مضى الآن ما يقارب الستة أشهر على حادثة الوفاة، وما لا تعرفينه أنّي أعيش بمفردي في المنزل باعتبار أن والدك أرسل شقيقك منذ فترة إلى أميركا لإكمال دراسته.. وما اكتشفته مؤخّراً وسبّب لي صدمةً كبيرة أردَتني متوعّكة، أنّ والدك تنازل عن كلّ ممتلكاته لأخيكِ بما فيها منزلنا الذي تعرفينه..»..

توقّفَت مجدّداً عن الكلام، وأجهشت بالبكاء.. في الواقع، لم أستطع أن أتعاطف مع حالتها مطلقاً، فرحتُ أرقُبها وكأنّي في طور مشاهدة فيلم

أو مسرحيّة.. صرت ألاحق انفعالاتها في محاولةٍ لتوثيق لحظةٍ نادرة تُثبت أنّ ثمّة بعضـاً من مشاعر ترتع في تجاويف روحها، وتخفّف وطأةَ لامبالاةٍ تتبختر هناك بغرور..

تنحنَحَت قليلاً واستأنفَت الكلام:

«أتصدّقين أنّه لم يحضر من أميركا ليشارك في جنازة والدكِ!!!.. ومنذ ذلك اليوم المشؤوم وحتى الآن لم يحاول أن يطمئنّ عن حالي ولو باتّصالٍ عابر.. غاب واختفى تاركاً خلفه إرثاً من مشاعر مُنحت له كما لم تُمنح لأحدٍ قبله.. أنا وحيدة يا وَرد، وحيدة..»..

هل فعلاً أمّي وحيدة؟!!! وهل بقاؤها بمفردها لمدّة أشهرٍ يستدعي كلّ هذا البؤس؟!!!

إذن، ماذا تقول فتاةٌ مثلي؟!!! كيف أصنّف وَحدةً ويُتماً رافقاني منذ الولادة وعاثا في نفسي خراباً، بالرغم من وجود عائلةٍ كان يفترض بها لملمة بعثَرَتي؟!!

وأنا.. ألستُ ابنتها؟!! فلماذا تضعني خارج حساباتها؟!!.. لو أنّها فكّرت في اصطحابي لكنتُ كسرتُ بؤسَ شعورٍ يراودها.. لكنّ قسوتها تجاهي لا تُغتفر.. وفوق كلّ ذلك تعتبر نفسها «مقصّرة بعض الشيء»..

أبعد كل هذا الدّمار النفسيّ الذي أعانيه بسببها، تصف سلوكها ببعض التقصير؟!

وقفتُ بتصميم من ترغب المغادرة، وقلت:

«وما علاقتي بكلّ ذلك؟؟ لماذا أتيتِ إليّ؟ ماذا تريدين منّي؟؟..»

تنهيدةٌ تلو الأخرى، ثمّ أكمَلَت:

«وضعي صعبٌ جدًّا يا وَرد.. أشعر أنّني سأُطرَد من المنزل قريبـًا، ولا أستبعد ذلك أبداً.. تكاليف الحياة باتت مرتفعة وراتبي ما عاد يحقّق لي رفاهيّةً اعتدتُها..ممممم.. في ظلّ هذه الظروف ألا ترَينَ أنّ فكرة الزواج صائبة؟».

كصاعقةٍ وقع كلامها على دهشتي..إذن هي هنا لتخبرني بنيّتها في الزواج، وكلّ الكلام السابق مجرّد استجداء تعاطف!

هي أرادتني أن أبارك زواجها وحياتها الجديدة، معتقدةً أنّها بذلك ستمسح خطيئتها بحقّ إهمالي وتتخلّص من عذابٍ قد يراود ضميراً راقداً في لا وعيها من سنين.

ودون أن تنتظر إجابةً استطردَت:

«هو رجل أعمال محترم.. أرمل، مستقرٌّ في ألمانيا، ولديه ثلاثة أولاد متزوجون.. تعرفين حبيبتي أن وضع البلد الأمني من سيئ إلى أسوأ والأجواء غير صالحة للاستثمار، لذلك سنسافر لنعيش في ألمانيا عندما أُنهي معاملاتي الرسميّة»..

يا لفجيعتي فيكِ أمّي! يا لهول خيبتي بأمومتك!

عندما سمعتُ منكِ «حبيبتي» اليوم وللمرّة الأولى، تراءت الكلمة مجرّد جسر لعبور وجودي والانطلاق نحو أنانيّةٍ متأجّجة..

تخافين من سوء أوضاعٍ أمنيّة وتعقدين العزم على الرحيل.. وابنتكِ ألا تستحق القلق بشأن مصيرها؟!! ستهربين تاركةً قطعةً منك لغامضٍ مجهول!

اليوم فقط أيقنتُ أنّ حبلاً سريّاً لم يكن يوماً موصولاً بيننا، وأنّ إقصائي إلى البعيد لم تقومي به قسراً، بل جاء متمّماً لنوايا كامنة في روحك.. كنتُ أظنّ بي ضحيّةَ ذكوريّةٍ حاكمة، لكنكِ أثبتِّ أن النساء هنّ أحياناً أشدّ فتكاً ببنات جنسهنّ من أيّ ذكرٍ وجد في هذا الكون..

«ارحلي ولا تعودي.. حضوركِ أصبح مشوِّهاً لروحي. انسي وجودي كما فعلتِ دائماً، وتأكّدي أنّ قلبي الذي عاشكِ حلماً قد انعتق من عبوديّة انتظارك»..

هذه كانت آخر عبارةٍ وجّهتُها لحضورها البائس، قبل أن أغادر المكان إلى أحضان عزلتي، التي لم ولن تخذلني يوماً كما فعل الآخرون.

***

الفصل العاشر

السيّدة جلجل امرأة حاسمة في كلّ شيء.. إن هي أخذت موقفاً من قضيّةٍ أو شخص، تبقى نظرتها له ثابتة لا تتغيّر مهما استجدَّت أو تبدّلت الظروف.. وإن صمّمَت على أمر، تسير به للنهاية حتى لو تبيّن لها مقدار خطئها والظلم المترتّب عليه.. لا تعترف بِعَثرةٍ وقعت فيها، فدائماً هي سيّدة الصواب والأقدر على تحديد الأفضل لها وللجميع..

عايشتُها سنوات، وفي كلّ يوم أزداد قناعةً أنّها امرأةٌ على هامش المشاعر، تحيا بدون نبض أو ربّما ينبض قلبها فقط حسرةً على ذاتها وعلى حياةٍ لم تعِشها كأنثى.. وفي كثير من الأحيان يعتريني التساؤل عن حقيقة أنوثتها المدمَّرة من سوء خَياراتها في اللباس والكلام والتعامل مع الذات والآخرين.

أسمّيها «المرأة الحديديّة».. تسميةٌ استمددتها من برنامج كرتونيّ كنت أعشقه في الصغر اسمه «الرجل الحديديّ».. ربّما لأني لم أعثر فيها على صفةٍ تليق بأنثى، حتى في صوتها الأجَشّ.. أو ربّما لأنها في إدارتها للمدرسة تسلُك كعسكريّ متمرّسٍ في العنف.. فلا لين ولا شفقة أو ابتسامة إلا فيما ندَر، و«لغايةٍ في نفس يعقوب»..

حتى في تعاطيها مع ذاتها تقسو وكأنّها في معركةٍ مع النفس. تعمل طوال اليوم، فلا وقت فراغ يدخل في حساب يومها، وفترة الغداء تعتبرها فرصةً

للرقابة علينا، تتأمّل ثغراتنا، توبّخنا، وتعطينا ما يفيض من توجيهات بلا أهميّة.

وبالرغم من محاولاتها لتبدو في أقصى درجات الانضباط والتقيّد بالأنظمة، إلّا أنها في نظري لا تصلح مطلقاً لأن تكون القدوة، ذلك أنها في نقيضٍ دائم مع الذات!

ماديّةٌ لدرجة الانغماس في عشق النقود، وفي كلّ يوم ترتكب حماقات في حقّ نفسها قبل الآخرين عندما تصبح القوانين بنظرها عديمة الأهميّة إذا اقترن الأمر بمالٍ قد يُمنح لها..

تفتقد للنظام في أدنى سلوكياتها في الوقت الذي تريدنا فيه أن نكون على أعلى درجات «الإتيكيت» كسيّدات مجتمع من الدرجة الأولى.. تتحدّث بصوتٍ مرتفع لا يخلو من نبرة صراخ حتى عند التحيّة، تُقحم نفسها في أدق خصوصيّاتنا حتى ضقنا ذرعاً بحشريّتها المتأجّجة باستمرار.

في مشيتها صخبٌ وعشوائيّة تدفع الجميع للالتفات نحوها والاستهزاء بها. دائمة الثرثرة والكلام حتى عند تناولها للطعام، وكثيراً ما ترافق ذلك مع مطرٍ من بقايا الأطعمة تنتثر من فمها هنا وهناك بشكلٍ باعثٍ على التقزّز.

لا أعرف من أين أتت بهذا القدر من الغرابة التي لم ينجح الزمن في التخفيف منها، بل زاد من مؤشراتها حتى غدَت ترتدي غرائبيّتها وشاحاً يدثّر كل معالمها الطبيعيّة.

لكن رغم كلّ ذلك أشعر بهشاشتها التي تَجهَد لإخفائها دون أن أعرف سبباً لذلك. كما أنّها تبقى في درجةٍ متقدّمةٍ من الشعور مقارنةً بأمّي التي حملت إليّ يقيناً في لقائنا الأخير أنّها لم تختبر خَفق الأمومة ولم تعِشها طَوعاً وليس بالإكراه.. لم تتمكّن حتى بالافتعال من تحقيق تقاربٍ بين أرواحنا مع أنّي مدَدتُ لها قلبي بِساطاً ودعوتها للتقدّم نحوي لأتوّجها مليكتي متناسيةً حكاياها رماديّة الذّكرى، خريفيّة الروح.

أنا أعذر السيّدة جلجل لأنها تشبهني في وَحدتها.. في سعيها لإثبات كينونتها رغم ظروفٍ جعلَت منها كائناً غريباً عن محيطه.. صحيحٌ أنّي لا أعرف عن عالمها الكثير، لكنّي سمعت قصصاً قد تحمل الصواب إلى جانب الخطأ.. من ضمنها وفاة والدتها باكراً، وزواج أبيها من امرأة تحمل كلّ مقوّمات الشرّ، وسنوات عاشَتها في عذابات وانكسارت. كما أن حياةً طويلةً مارسَت خلالها طقوسَها وحيدة قد تبرّر انسحاب مشاعر الأمومة منها.. فظروفها الكئيبة جعلت منها وبالإكراه جسداً بقلبٍ عاطلٍ عن الحبّ.

من أجل كلّ ذلك أقدّم لها ألف عذر، وأظلّ على استعدادٍ لتقبّل شراستها وعدوانيّتها تجاه ضعفي.. وهذا ما لا أستطيع أن أفعله إزاء أنانيّة أمّي، التي دفعَتها للتخلّي عنّي وبإرادةٍ تامّة، مقابل ضمان حياةٍ مع زوجٍ يوفّر لها رفاهيّةً هي أقصى ما تريد وترغب.

دائماً المقارنة بين أمّي والسيّدة جلجل تأتي لصالح هذه الأخيرة، رغم أنّ الاثنتين نموذجان يسيئان لسمعة الأنثى وحكايا طيبتها ودَفق مشاعرها.

بعد لقائي الأخير بأمّي صار نبضي يتهاوى ويتكسّر بين جنبات القلب.. شعرتُ بضيقٍ يعتصر البدن ويؤجج ناراً من رمادٍ خَبا عُمراً، ثمّ عاد يُلهب الوجدان.

غادرتُ غرفة الإدارة تاركةً بعضي هناك، ولملمتُ ما تبقى من فتاتي عَلّي أعيد هيكلته من جديد.. ومن فرط الخيبة، ضاقت بي الدنيا على رحابة أحلامها، وإلى الحديقة توجّهتُ لأتفادى أيّ احتكاكٍ يرفع من وتيرة شجني ويكشف الستار عن هزيمتي المفجعة.

في مثل هذا التوقيت، تكون الحديقة خالية من أيّ روح، حتى العصافير تركن بين الوريقات في شبه هدنةٍ مع الذات.

آثرتُ أن أنزوي بين شجراتٍ في الفناء الخلفيّ حيث لا نافذة تطلّ ولا باب يُفتح. المكان بدا هادئاً وصالحاً لخلوة لا يعكّر صفوها شيء.. فالأشجار كثيفةٌ وأشعة شمس الخريف تكاد لا تخترق الأغصان، ممّا خفّف من وطأة حَرٍّ يكون حادّاً في مثل هذه الساعة من الموسم الخريفيّ.. وهناك، احتضَنتُ وَحدتي وانهمَرتُ كما لم يحدث من قبل..

شيءٌ ما صار يتحرّك بين الأعشاب على مقربةٍ مني، سمعتُ تكسّر الأوراق اليابسة وشعرتُ بصدى أنفاس رتيبة.. توقّفتُ عن النحيب وجيّشتُ حواسي كلّها في محاولةٍ لتبيّن ما يكون.

هي أصوات دعساتٍ آدميّة.. متأكّدةٌ أنا بأنّني في تسلُّلي لم يلمحني أحد.. إذن من هذا الذي أتى ليسترق عزلتي؟!!

وقبل أن أقع في فخّ التردّد، وجدتُ نفسي وجها لوجه أمام الملامح البائسة للسيّدة جلجل، وصلابة جسدها الممتدّ كجذعٍ متيبّس.

ودون أن تترك مجالاً للذهول كي يقتحمني ويغرس بصماته فوق ملامحي، رأيتُها تشير إليّ بيدها أن أستقر مكاني. ثمّ تقدّمت أكثر وجثَت على الأرض جانبي، رغم أن التربة لا تزال مبتلّةً من مطرٍ صباحيّ.

هي المرّة الأولى منذ مجيئي إلى المدرسة، أرى فيها السيّدة جلجل تجلس على الأرض وفوق التربة أيضاً.. دائماً صورتُها في الذّهن تحمل تفاصيل كلاسيكيّة من مكتب وكرسيّ وإنارةٍ خافتة..

وعلى حين بغتة، أتت لتحطّم إطاراً بالياً لصورتها وتستبدله بآخر أكثر حياة.

من هَول المفاجأة، أصِبتُ بالصمت.. حتى نظراتي اعتراها الجمود.. وقبل أن أنغمس في الدهشة، أتاني صوت السيّدة جلجل منسكباً في محيطي كانسيابٍ طريّ:

«وَرد اسمعيني جيّداً وضعي جانباً كلّ المهاترات السابقة..ربّما هي المرّة الأولى والأخيرة التي نتواصل فيها بصدق. ثقي بي، أنا لا أكرهكِ، وربّما سلوكي تجاهكِ هو وليد تراكماتٍ نفسيّةٍ راكدة في أعماقي..

أنتِ فتاةٌ جميلة بل ساحرة، وتفوقكِ الدراسيّ يزيدكِ بهاءً.. أنت لا تعانين من أيّ نقص بل على العكس من ذلك روحكِ الطيّبة تجعل كلّ من يلقاكِ يتمنى محاكاتكِ ومصادقتكِ.. كوني أكيدة من أنّ الغيرة هي ما يدفع الفتيات

لإقصائكِ بعيداً عنهنّ.. مممممم.. وربّما هي ما دفعني أيضاً إلى سوء معاملتك..

نعم، اعترف بأنّي لم أكن على قدرٍ من الطيبة والمسؤوليّة معك، ولكنّ ذلك لا يقلّل من شأنكِ أبداً وإنمّا يضعني في مواجهة ذاتي الضعيفة..».

صمتَت لحظات، وسرحَت في البعيد.. أمّا أنا فقد أصابني الخدر في الوجدان، ووجدتُني عاجزةً عن الشعور..

تنهّدَت بعمق، واستطردَت:

«التقيتُ والدتكِ قبل أن تغادر.. لهذا أريد أن أقدّم لكِ نصيحةً لم أتمكّن طوال سنواتي السابقة من العمل بها.. إيّاكِ أن تربطي سعادتكِ بأحد.. ليس بمقدور أيّ شخصٍ أن يهبك السعادة التي ترغبينها، فالجميع دون استثناء هم دون توقّعاتنا.

لن أقحمكِ بحكاياي الفائتة ولكنّي أريدك أن تدركي أنّ ثمّة تقاربا بيننا. لذا أقدّر ما أنتِ فيه، وأجدني مضطرّةً للتعاطف معكِ. رغم ذلك، من واجبي أن أطلعكِ على أمرٍ هام بصرف النظر عن حزنكِ وتعبك.»..

عادَت للصمت من جديد.. أمّا أنا فقد اعتراني خوفٌ غامض الهويّة والانتماء.. هناك شيءٌ خطير على وشك أن يحدث، وقبل أن أُحدّد معالمه راحت ضربات قلبي تتزايد حتى صارت عبئاً ثقيلاً على الانتظار..

نفسٌ عميق ونهداتٌ متوالية، ثمّ استكمَلَت الكلام:

«تعرفين أنّ ثروة والدك آلت إلى أخيكِ في المهجر، ولم تعد والدتكِ تملك المال الكافي لاستمراركِ معنا في المدرسة..مممم.. حسنًا، بقاؤكِ هنا يحتاج الكثير من المصاريف التي لم يعد أحدٌ يغطّيها. من أجل كلّ ذلك فقد وجدت والدتكِ وسيلةً تسمح لكِ بمتابعة الدراسة هنا عن بُعد مع التقدّم لكافّة الاختبارات التي نعتمدها في التقييم، على أن تقيمي عند سيّدة كبيرة في السنّ بعض الشيء، تقارب والدتك من بعيد.. ستهتمين بها باعتبارها وحيدة، وفي المقابل ستتكفّل هي بدفع تكاليف دراستك لمدّة عامين متبقيين»..

لأوّل وهلةٍ ظننتُني أهذي، لكنّ جميع المؤشّرات تُثبت أن الواقع هو ما أعيشُه، وأن كلامًا تسلّل إلى مسمعي منذ قليل لم يكن مجرّد حكايةٍ، أو خبراً منسربًا كعابر سبيل.

ألا يكفي أمي ما اقترفَته بحق طفولتي، حتى تأتي ذات صدمةٍ وترمي بي إلى شقاءٍ حتميّ بينما ترتحل هي لتختبر حياةً جديدةً؟!!

أراها تستغرب سلوكًا بالهَجر من ابنٍ ليس من صلبها، في الوقت الذي تعيش أنانيّتَها بفخرٍ متناسية ابنةً ولدَتها في يومٍ بائسٍ من تاريخ البشرية.

لم أستطع أن أعبّر عن سخطي.. عن رفضي لأن أكون دميةً يحرّكها الآخرون كيفما شاؤوا، فيتحكّمون بمصيرها وتفاصيل حياتها.. فركَنتُ مكاني واجمةً، دون أن أتنبّه لنَهَداتٍ صارت ترسلها السيّدة جلجل في محاولةٍ منها لتذكيري بحضورها.

وعندما أدركَت مدى انغماسي بحالة شجنٍ عاصفة، وقفت مستندة إلى جذع شجرةٍ، وقامت بنفض التراب المبتلّ العالق ببنطالها الكحليّ، ثمّ تنحنحت عدّة مرات واستدارت منصرفة. وعندما أوشكت على الغياب، التفتت بوجهٍ عبوسٍ أعرفه، وبصوتها الأجشّ المعتاد أطلقَت بضع كلمات:

«بقاؤكِ هنا يعتبر مخالَفةً للنظام الداخليّ.. غادري فوراً إلى مكانٍ آخر قبل أن أقرّر عقاباً يلائم استهتاركِ»..

ولأول مرّة، عثرتُ في قسوة كلامها على حنانٍ دافقٍ اشتقتُه منذ سنوات، وتمنّيتُ لو أسرع لاحتضانها لكنّ حزناً اعتمر قلبي جعل إرادتي تتناسل مني، فأضعتُ بوصلتي وفقدتُ كلّ طاقةٍ ورغبةٍ واهتمام..

***

هي المرّة الثالثة التي أحزم فيها وجعي وجعبتي لأنتقل بجسدي من مكانٍ إلى آخر، بينما ما تزال روحي عالقةً هناك بين أول جدران احتضنَتني في بيتٍ من ياسمين.

رهبةٌ تعتمرني من غريبٍ غامضٍ ينتظر وَحدتي.. من مسؤوليّةٍ سأعتلي منبرها وأنا ما زلت أخطّ أول حروف الأبجدية.. ومن مصيرٍ أجهل تردّداته على نبضي وأخشاه لدرجة الهذيان.

لم يرافقني أحد وأنا أغادر البوابة الكبيرة للمدرسة لأستقلّ سيارةً فخمة أُرسلَت لتُقلّني إلى مكان إقامتي الجديد! وحدها السيّدة جلجل تتبّعتني

بهدوء، كنت أشعر بخَطوها الذي لا أخطئ وَقعَه. صارت تتسلّل لتلمح آخر ظلالٍ لي. لم أشأ أن ألتفت لئلّا أُحرِجها رغم رغبةٍ جامحة بعناق روحها.

وقبل أن أستقلّ السيّارة، وجدتُني وبغفلةٍ عن إرادتي، أضع حقيبتي على الأرض وأستدير لأباغت تلصّصها عليّ. جمدَت مكانها، ثمّ راحت تفتعل قيامها بالبحث عن شيءٍ ما فوق العشب.. لم أُعِر اهتماماً لارتباكها، بل تقدّمتُ نحوها ووجّهتُ لشرودها الكلام:

«شكراً سيّدة جلنار على كلّ ما قدَّمتِه لي.. وبرغم قساوةٍ وسوء معاملةٍ طغَت في أكثر الأحيان، إلا أنّني لا أُكِنُّ لك إلا كلّ تقدير واحترام. كنتِ أرحمَ بي ممّن يُفترض بهم معانقة روحي وأحلامي. أنتِ سيّدةٌ طيّبة رغم قناع يدثّر حقيقةَ مشاعرك. أشكركِ مرّةً أخرى وأرجو أن تسمحي لي باحتضانكِ كأمٍّ لا كمسؤولة إداريّة.. على فكرة منذ وصولي إلى هنا وأنا ألقّبكِ بالسيّدة جلجل.. أعتذر، لكن تسميةً كهذه خفَّفَت كثيراً من وَطأةِ نقمةٍ كنت أرتديها تجاهك»..

ودون أن أنتظر جواباً، أسرعتُ إليها وتغلغَلتُ بين نبضها بكلّ ما أفتقده من حبّ.. شعرتُ بأناملها ترسم طريقاً بين خصلات شعري، وبفمها يرسم ابتسامة خجولة. نظرتُ إليها وإذا بعَبرةٍ تسلُك فوق وجنتها وتلتمع كلؤلؤةٍ نفيسة.

لم تترك فرصةً لمشاعرها كي تتناثر فوقي، فمسحت وجهها بمنديل، وأخذت وضعيّة عبوس اعتادتها وقالت:

«حسناً.. أتمنى لكِ السعادة أينما كنتِ.. كوني منضبطة دائماً وحافظي على صفاتك الرائعة لأنها تساوي الكثير.. مممممم.. على فكرة السيّدة جلجل اسمٌ لطيف، لا أمانع من مناداتي به»..

ثمّ استدارت وغادرت تاركةً وريقاتي تتناثر حولي في لحظةٍ خريفيّة الحنين..

كلماتها أعادت إليّ ذكرى وداع جدّتي، ووصيّتها الأخيرة لي بأن أحافظ على عطري كوردةٍ جوريّةٍ حقيقيّة.

هكذا غادرتُ بهدوءٍ كما حضَرت، لم أُثِر صخباً ولا حتى بكَيتُ سريراً وجدراناً كما فعلتُ عندما افترَقتُ عن منزل طفولتي.

وهكذا أيضاً، عدتُ لأبدأ من جديد!

بدأنا المسيرة في شوارع العاصمة المزدحمة بالمقاهي والمحلّات الفخمة والعمارات الزجاجيّة المرتفعة، وشيئاً فشيئاً أصبحنا في مناطق سكنيّة أكثر ازدحاماً وأقلّ بهجةً. ثمّ، وخلال دقائق قليلة بدأت الطبيعة تفرض حضورها الخجول. أشجار صفصاف على جانبّي الطريق.. حدائق من شجر اللوز والرمان والليمون مبعثرة بين الأبنية، وتخفّف من وطأة الضجيج وإنهاك السمع..

نصف ساعة في السيارة كانت كفيلةً لنصل إلى مقصدنا، ووجدتُ نفسي أمام بيتٍ فخمٍ من طابقٍ أرضيّ تسوّره حديقةٌ واسعة.

يقع المنزل على تلٍّ صغير يطلّ على العاصمة، ومن موقعه يمكن رؤية الجبال الشاهقة المترامية على مدّ النظر.

بدا المشهد مهيباً عندما ترجّلتُ من السيّارة.. رغم قرب المكان نسبيّاً من قلب العاصمة إلّا أنّه تراءى مختلفاً ومفعماً بالجمال. مساحاتٌ خضراء على امتداد النظر تتخلّلها أشجار حور وصنوبر وسنديان.. البيوت المتواجدة قليلة ومتناثرة هنا وهناك وتتنافس مع بعضها بعضا في جمالها الهندسيّ وروعة حدائقها المترامية من خلف الأسوار.

صوت خريرٍ مرتفعٍ أثارني. بدا قريباً جدًّا ومنبعثاً من تحت قدميّ. تقدّمت بحماسٍ أُفتّش عن مصدره، لأعثر على مجرى مياه متدفق على جانب الطريق. لم أستطع المقاومة فانحنيتُ لأغرف بيدي وأشبع عطشاً استحكم بي. فاجأتني البرودة ولسعَت أناملي بحدّة، فغزَتني الضحكة وغرقتُ بين تلابيبها وصرتُ ألهو بالمياه كطفلةٍ بضفيرين وقلبٍ من سكّر.

جمال المكان بدا صاخباً بالدهشة.. أستطيع من مكاني أن أرى العاصمة بمرفئها وحدائقها العامّة المنتشرة هنا وهناك.. بأبنيتها الفخمة وبيوتها المتواضعة. كما يمكنني بالتفاتةٍ أن أطالع سلسلة الجبال الممتدّة في سكونٍ وهيبةٍ وإبهار.

ولكن لو أنّ المنزل بطابقين ويملك شرفةً مُطلّة، حتماً كانت الرؤية منه ستتجلّى أروع بكثير!

لا أعرف لمَ تلاحقني لعنة الشرفات باستمرار!!

دائمـاً أعثر على ذاتي في مكان يفتقد لشرفةٍ أعتلي سحرها وأرتحل في الخيال.. حتى الشرفة الوحيدة في المدرسة، حظر عليّ الولوج إليها، فكانت حلماً بعيد المنال..

امرأةٌ مسنّةٌ أتت لاستقبالي على باب الحديقة، عرَّفَتني بنفسها على أنّها المسؤولة عن إدارة شؤون المنزل وتوجيه الخدم، وتُدعى «ستّ سعاد». طلبَت من السائق أن يغادر لأمرٍ لا أعرفه، واصطحبَتني إلى الداخل.

الحديقة التي قطعناها سيراً على الأقدام لا تشبه حديقة منزل جدّتي ولا حتى حديقة المدرسة. هي جنّةٌ بكل معاني الجمال. أشجارٌ كثيرةٌ غريبة المظهر مغروسة هنا وهناك، والحشائش الخضراء المنسّقة تفترش أرض الحديقة بكاملها.. على اليمين مسبحٌ كبيرٌ تلتمع مياهه تحت أشعة الشمس، وعلى اليسار نافورة مياهٍ ضخمة بتماثيلها العجائبيّة وهندستها الفريدة.

المنزل كبير جدًّا وواسع الامتداد.. قاعة الاستقبال وحدها تصلح لتكون متحفاً للجمال. ذوقٌ متفرّد في انتقاء المفروشات والتحف واللوحات وحتى الستائر.. وأناقةٌ في تنسيقها واختيار مكان كلٍّ منها..

تكاد تشعر أن جنيّة الحكايا خرجت من أسطورتها ونثرَت سحرها فوق كلّ زاوية وركنٍ، ليغدو المكان فاتناً كقصيدة شِعرٍ أو مقطوعةٍ موسيقيّة.

أرشدَتني «ستّ سعاد» إلى غرفتي الصغيرة التي تقع بجوار غرفة السيّدة إلهام صاحبة المنزل. وطلبت منّي أن أضع حقيبتي وأغراضي في غرفتي قبل أن أدخل لملاقاتها وإلقاء التحيّة عليها.

غرفتي الصغيرة بدت لطيفة بألوانها الزاهية، ستائرها الحريريّة، ونافذتها المطلّة على الحديقة.. تحوي مكتباً صغيراً، خزانة ملابس كبيرة، وطاولة مع كرسيّين..

وهذا كلّ شيء.. لا سرير ولا حتى كنبة أستلقي عليها!!

التقطَت «ستّ سعاد» دهشتي، فانتشَلَتني من وضعيّة التعجّب وأخبرتني أن سريري موجود في غرفة السيّدة الكبيرة، لتحظى بمتابعتي طوال الوقت.

طرقات قلبي ازدادت حدّة عندما وقفتُ أمام باب السيّدة في انتظار الدخول. مسار حياتي في هذا المنزل يتوقّف على هذا اللقاء.

قرّرتُ أن لا أطرح أيّ تساؤلات تزيدني حيرة وترقباً، بل استجمعتُ طاقةً كامنةً بين الحنايا وتبعتُ «ستّ سعاد» إلى داخل الغرفة.

وهناك.. وقفتُ بكامل ذهولي!!

الغرفة على رحابتها مزدانة بعشرات الزهور الملونّة والنباتات الخضراء الموزّعة بأسلوبٍ راقٍ ومدروس على جميع الزوايا.. ثمّة واجهة زجاجيّة ضخمة تشرف على الحديقة وتتراءى منها الجبال البعيدة الشاهقة في مشهدٍ خلّاب.. والستائر الحريريّة بدت مذهلةً بانسيابها على الجوانب.

أثاث الغرفة أنيق وتمّ اختياره بدقّة حتى يضفي على المكان هدأةً وراحة.. سريرٌ واسعٌ بخلفيّة خشبية زرقاء سماويّة محفور عليها لوحة بديعة لبحيرةٍ وبجعات.. والخزانة سماوية اللون تضم مجموعة من البجعات التي تحملك إلى التحليق معها بعيداً في خيالٍ لا ينتهي.. بساطٌ دائريّ وسط الغرفة

يجمع ألواناً هادئة ويزيدها جمالاً على جمال. وأمام الواجهة الزجاجيّة ثمّة كرسيّان سماويّا اللون تتوسطهما منضدةٌ صغيرةُ على شكل بجعةٍ جاثية.

والأروع من كلّ ذلك، بيانو سماويّ ببجعاته الساحرة، مستقرّ يمين الواجهة الزجاجيّة وإلى جانبه سريرٌ صغيرٌ سماويّ بأغطيةٍ تتناثر عليها البجعات المحلّقة في سماء زرقاء صافية..

يا للروعة!!

وقفتُ بكامل اندهاشي أرقب المكان لدرجة لم أتنبّه معها إلى نظرات السيّدة «إلهام» صاحبة القصر في جلوسها على أحد الكرسيين أمام الواجهة الزجاجيّة.

كلمات «ستّ سعاد» انتشلَتني من ذهولي، وأعادتني لأتغلغل في مسام الواقع من جديد.

«سيّدة إلهام، ها هي الفتاة قد وصلَت.. سأتركها معكِ قليلاً ثمّ أعود لأطلعها على كلّ ما هو مطلوبٌ منها»..

عندما غادرَت الغرفة، وجدتُني وحدي أمام امرأةٍ في العقد الثامن من العمر. تجاعيدها تملأ الوجه والجسد وتُخفي حقيقةَ ملامحها. ورغم ذلك شعرتُ أنّي في مواجهة امرأةٍ جميلة، لم يُفلح الزمن رغم قسوته في مَحو كل المعالم الجماليّة، فاستمرّت بتقاسيم هادئة لطيفة ومتناسقة.

في جلوسها بدت كطفلٍ وديع، ومع ابتسامةٍ من ثغرها أنيق الشفاه، تمكّنَت من رَفع عبءٍ جثا على روحي واستوطن الحنايا.

تقدَّمتُ نحوها بخطوات خجولة وألقيتُ التحيّة مقدّمةً نفسي:

«تحياتي سيّدتي، أنا وَرد أتيتُ من المدرسة الداخليّة في العاصمة. في الحقيقة حضوري هنا كان مفاجئاً بالنسبة لي وحتى الآن لا أعرف ما هو مطلوبٌ منّي. أحببتُ المكان، يبدو هادئاً وأنيقاً وأكثر ما ارتحتُ إليه فكرة امتلاكي لغرفةٍ خاصّة أستطيع الاختلاء فيها عند الحاجة.. ممممم.. وهذا البيانو أيضاً أثار اهتمامي..على فكرة أنا أجيد العزف عليه وبإمكاني أن أسمعكِ الكثير من المقطوعات الجميلة..».

بصوت عجوزٍ يرتجف، أجابتني:

«أهلاً بكِ وَرد.. لا حاجةَ لتكلّميني عن نفسك فأنا أعرف عنكِ الكثير.. ستقوم «ستّ سعاد» بتحديد مسؤولياتكِ التي لن تتعدّى الاهتمام بشؤوني.. وسأترك لكِ وقتاً محدّداً للدراسة يوميّاً في غرفتك، كما سيحضر أساتذة لمتابعتكِ من وقتٍ لآخر.. أتمنّى أن تكوني على قدر المسؤوليّة.. تستطعين الاستراحة اليوم، وغداً لنا موعدٌ آخر»..

تركتُها وقد سُكِنتُ بالراحة. أيُعقَل أن أعثر بكلّ بساطةٍ على مكانٍ يُهديني الأمان!!

هل أنا على وشكِ الحياة؟!! أم أنّ خبيئاتٍ رماديّة تتلطّى خلف الستار؟!!

***

عامان قضيتُهما في مرافقة السيّدة الكبيرة أو سيّدة القصر كما أسميتُها، الاهتمام بوجباتها ومواقيت نومها والأدوية التي تتناولها.. كنت أمضي

ساعات معها سواء في غرفتها أو في الحديقة، أُحادثها، أقرأ لها الصحف والكتب المتنوعة وأستمع لثرثراتها التي تتكرّر دون أن أُبدي أيّ تذمّر.

عزفتُ لها على البيانو.. بعضُ المقطوعات ابتكرتُها، وبعضها الآخر انتقيتُها بتأنٍّ لأنال استحسانَها وألتقط فرحتها من بين النظرات..ولمحتها مرّات تغرق في حزنها وهي تصغي لعزفي، ترسل تنهيدات وتذرف دمعاً خجولاً..

كثيراً ما شَرَدَت بعيداً عن كلامي وحضوري، وغابَت في متاهات روحها، دون أن أملك طريقاً لمواساتها. وبمجرّد أن ترتديها هذه الحالة التي قد تستمرّ لساعات، كنت أترك لها مساحةً للتفرّد مع الذات، فأغادر إلى غرفتي حيث تنتظرني جدّتي باسمةً في إشارةٍ إلى رضاها عنّي.

حاولتُ ما استطَعت لأكون على قدر الثقة التي منحَتها لي «سيّدة القصر».. هي وضعت كلّ حياتها وحاضرها بين يدَيّ، ولم أُرِد أن أخذلها.. فأنا أكثر من تضرّر من الخيبات وأدرك بؤس الآثار التي تحفرها في الروح.. لذلك لم أتوانَ عن بَذل مجهودٍ أو عطاءٍ إلا وقدّمتُه لها طَوعاً وحبّاً..

كثيراً ما ارتدَت ثوبَ جدّتي، فصرتُ ألمحُها في تجاعيدها وبين تردّدات صوتها المرتجف.. في حكاياها التي لا تخلو من تراثٍ وأساطير وأحلام تغرس في الروح سكينةً ورضا..

سيّدةُ القصر عجوزٌ تحمل الحِكمة بين أنفاسها، تعرف الكثير وتتقن فنّ النصيحة، كجدّتي تماماً، لكنّها بحنانٍ مبتورٍ بعض الشيء.

أحيانـاً أراها تعصف حبّاً، فتناديني، تحتضنني، وتبدأ بتسـريح شـعري وهي تغني أهازيج لم أسمعها من قبل، وعلى هذه الحال تستمرّ وقتاً دون أن تشعر بملل فتأخذني إغفاءةٌ طريّةٌ بين يديها.. وأحيانـاً أخرى يستوطن العبوس ملامحَها وتبدأ بنشر الأوامر والتعليمات، تتأفّف من محاولاتي لتخفيف انزعاجها، وقد يصل بها التوتّر حدَّ طردي من الغرفة واتّهامي بالتدخل في خصوصياتها.

أستطيع أن أتفهّم ما كان يعتري شعورها من تناقضات.. هي تملك من الحبّ ما يكفي ليُشبع عطش كلّ من حولها..

ولكن! من حولَها؟!!

مدبّرة منزل، خدم، حدائقي.. وأنا..

وذاك الفيض من الحنان الذي يطلّ حتى من أنفاسها ونظراتها ونبضات قلبها، لمن سيُمنح؟؟

عاطفةٌ عظيمة من الحب تنامت بمرور السنوات حتى ملأت كلّ ثناياها، دون أن تجد مستَقَرّاً آمناً تستكين فيه.

سيّدةُ القصر ليست وحيدة، مثلي، بل تملك عائلة من زوجٍ توفّي منذ سنوات وخمسة أولاد لم أصادف أحداً منهم على امتداد عامين كاملَين.. بعضهم في سفرٍ دائم، وبعضهم في سباتٍ دائم..

والنتيجة، وحدةٌ تعيشها هذه المسنّة في انتظار يوم ترحل فيه ليأتي من يدّعي الحب فيذرف دمعاً في دقيقتين ويلتقط إرثاً يكفيه عمراً مديداً.

ليست وحدها من عانَت من قسوة أولادها.. فأنا بنظرهم الفتاة الغريبة التي أتت بعد طول انتظار، لتتغلغل في تفاصيل حياتهم وتسرق منهم إرثـًا هو كلّ ما يطمحون إليه.

هكذا أخبرتني مرّةً «ستّ سعاد»، وطلبت منّي أن لا أنزعج من كلامٍ غليظٍ قد توجهه إليّ السيّدة لأنها عندها تكون بحالةٍ متقدّمةٍ من الغضب نتيجة الضغوط التي يمارسها على عجزها أولادُها، عبر اتصالاتهم التي لم تتوقّف منذ أن حضرتُ لأستقرّ في المنزل الكبير، دون أن يُكلّفوا أيّ خاطرٍ لزيارةٍ يتفقدون فيها أحوال العجوز ويعرضون ما في جعبتهم من كلام..

قبل حضوري غابت اتصالاتهم كليّـًا، ولم يعثروا خلال سنوات على توقيتٍ ملائمٍ يمَكّنهم من الاطمئنان على والدتهم ولو هاتفيّـًا.

ألهذه الدرجة تُعشق الثرَوات؟!

الكلّ مستعدٌ للتضحيّة بالكثير في سبيل الاستحواذ على المال، الذي يصبح الغاية الأسمى لكلّ وجود بدلاً من أن يكون وسيلةً لتحقيق سعادة للذات وللآخرين!

لو أنّهم يأتون إليّ لأخبرتهم أنّ أموال عالمٍ بأكمله لا يمكنها أن تقدّم شعوراً بالأمان وقلوبـًا صادقة تحب وتبذُل دون انتظار مقابل.. لقلتُ لهم أن حياةً أسريةً حقيقيّةً هي أثمن ما في الدنيا حتى لو لم يتوفّر فلسٌ واحد.

لكنّهم لـم يحضـروا.. واسـتمرّوا بتوجيـه ملامهـم وبَـثّ أحقـادهم مـن خلال اتصـالات بائسـة، ظلَّـت العجـوز تترقّبهـا باعتبارهـا الخيط الوحيـد الذي ما زال يربطها بعالمهم وحكاياهم.

هكذا كانت أمّي في تعاملها مع جدّتي.. نعم، أتذكّر دموعـًا سـالت مـن تجاعيد عينيها نهارات وأمسيات كثيرة، علـى ابنـةٍ وحيـدة منحَتهـا الكثيـر، وذات قرار ارتحلت دون عودة..

فجأةً، ما عاد يربطها بجـدّتي أيّ صـلة أو عاطفـة. دخلـت حيـاةً زوجيـةً مقيتـة واسـتمرّت فيهـا فقـط في سـبيل أمـوالٍ ورفاهيّـةٍ وبـذخ.. وجـدت في المال بديلاً عن رعاية أمٍّ وحنانها، واحتملت عذابات وقسوة من رجل فظّ الطباع غليظ الروح. كلّ ذلك لتستمرّ في سعادةٍ وهميّة لم تَجنِ منها سوى التعاسة. جدّتي لم تكن امرأة فقيرة الحال، بل على العكس ملكَت ثروةً لا بأس بها، لكن طمعـًا تغلغل في ثنيات وجدانها حَمَلَ إليها شقاءً أبديًّا.

لـم يتوقّـف الأمـر عنـد هـذا الحـدّ في المنـزل الكبيـر، بـل تطـوّر إلـى تهديدات صارت تُرسَل في أوراق أعثر عليها في غرفتي دون أن أتجرّأ علـى إخبار أحدٍ بها.. لكنّها سبّبت لـي تـوتّراً كبيـراً حمـل الأرق والخوف إلـى نومي بعد أن أوشكتُ على ارتداء ثوب السكينة.

هناك في المنزل من هو متواطئ ضدي بالتأكيد، لكنّي لا أسـتطيع اتّهـام أحد..

فزعي لم يأتِ من فراغ، بل من قلوبٍ محشوّةٍ ضغينة.. وهذا ما أثار استغرابي! فسيّدة القصر امرأةٌ رائعة بطيبتها وحنانها ونبضها المفعم سكينة. فكيف يمكن لهذا الكيان الملائكيّ أن يأتي بظلال بائسة لا تعرف من الحياة سوى بحثٍ عن مكاسب، ولهاثٍ خلف مصالح ماديّة دون أيّ اعتبار لمشاعر إنسانيّة؟!

أذكر يوماً مطيراً كان فيه كلّ من في المنزل غارقاً بانشغالاته، وأنا على موعدٍ مع مندوبة دار نشر ستحضر ومعها مجموعة من الكتب التي انتقَيْتُها عبر شبكة الإنترنت لأقرأها لسيّدة القصر. وبسبب سوء الأحوال الجويّة انقطعت الاتصالات الهاتفية في المنطقة، فخرجتُ من حديقة المنزل لأنتظر وصولها على الرصيف حتى لا تُخطئ المكان.. مرّ الوقت كئيباً وأنا أرتجف من البرد تحت المظلّة.

صرتُ أتمشى لأستجدي بعضاً من دفء، ولم ألحظ سيّارة تتقدّم بسرعةٍ نحوي إلا عندما سمعتُ الحدائقيّ يصرخ باسمي، فقفزتُ سريعاً إلى الناحية الأخرى وتفاديتُ موتاً أكيداً.. نتيجة هذا الحادث كانت كسراً في يدي اليمنى، بقيت أعاني منه لمدّة ثلاثة شهور.. جميع من في المنزل ظنّوا أن المطر جعل السائق يغفل عن الرؤية، إلا أنا فهمتُ أن تهديدات ترسَل لي ليست مجرّد حبرٍ على ورق، وأنّ أصحابها على استعدادٍ لتخطّي المحظور في سبيل الوصول إلى المُبتغى.

بعد ذلك، كثرت محاولات ترهيبي بأشكال مختلفة. فمرّةً ألمح أشخاصاً يتتبعون تحرّكاتي من خلف سور الحديقة، ومرّةً تعترضني كلابٌ شاردة تسلّلَت بطريقة مريبةٍ داخل السور.

ولعل أكثر ما أثار فزعي هو ذاك التهديد بدسّ السم في طعامي.. تهديدٌ دفعني للتوقف عن تناول الطعام المعَد في المنزل فترةً من الزمن، واللجوء إلى إعداد وجباتٍ متواضعة بنفسي ممّا أثار انتباه الستّ سعاد، فسألتني مرّةً عن السبب وكان جوابي أنّي أعاني من مشكلة في الأمعاء وسأعود إلى عاداتي في الطعام عندما تتحسّن حالي. جوابي لم يكن مقنعاً بالتأكيد لكنها احترمت رغبتي في عدم الإفصاح، وهو موقفٌ قدّرتُه لها كثيراً وزاد من ثقتي وحبي لها.

كلُّ ذلك، وأولئك الذين حرموني نعمة الاستمتاع بدفءٍ منزليّ لم يعرفوا أنّ وَرد فتاةٌ مسكينة.. وأنّني لو تركتُ مكاني هذا فلا بديل آخر لي، فبقائي ليس خياراً من بين عدّة احتمالات وإنّما هو الحلّ الوحيد.

حالهُم أعاد إلى مخيّلتي صورةً كئيبةً لأخٍ من ورق. ظلّ طوال فترة وجودي في المنزل ممانعاً لحضوري وكأنّي لستُ الأحقّ منه في الإقامة. ثمّ، بعد سنواتٍ من رعاية وانتباهٍ ومَنحٍ وحُبّ، ارتحل حاملاً معه إرثاً من مال، ضارباً عرضَ الحائط نبضاً سُرق منّي وأُغدق عليه بدون حساب، ودون أن يقيم وزناً لحنانٍ مُنح له وحياة مغزولة بفرحٍ وعطاء.

لو كنتُ مكانه لوضعتُ من منحوني استقراراً بعد ضياعٍ بين تلابيب الفؤاد، وأغلقتُ عليهم دفّتَي الوجدان.. ولأعلنتُ ولائي لوالدين ولو افتراضيين احتويا ضعفي وجعلاني في مصاف دقّات القلب وأنفاس الروح..

ولكن، لا داعي للتمنّي، فأنا فعلاً راضيةٌ عن واقعي رغم كلّ التحدّيات التي أعيشها. هكذا علّمَتني جدّتي وأرادَتني أن أكون، وهكذا سأستمرّ حتى تنبعث شمسٌ من بين سحابٍ قاتم وأهنأ بمطرٍ ربيعيّ.

***

الفصل الحادي عشر

في عيـد مـيلادي الثـامن عشـر اسـتوقَفَتني ولأوّل مـرّة فكـرة انسـياب الزمن. ها قد غدوت صبيّةً أملك حقّ القرار باعترافٍ رسميّ من الدولـة. مضـت السـنوات سـريعـًا حملَـت معهـا الكثيـر مـن الخيبـات والعـذابات، ولحظات من الحلم الجميل.

لأكثـر مـن عـامين عشـتُ في كنـف سـيّدة القصـر، ألبّـي احتياجاتهـا وتمنحني عطفـًا «مبتوراً»، لتسدّدَ في المقابل تكـاليف دراسـتي وامتحانـاتي المدرسيّة، حتّى تخرّجت وصرتُ على عتبة اختيار تخصّصي الجامعيّ.

التهديـدات التي لاحقتني زمنـًا لـم تفلـح في إقصائي، لكنّهـا شـوّهت ملامح إقـامتي ودفعتني للتفكيـر باسـتمرارٍ في بـديلٍ أركـن إليـه بعيـداً عـن ضغوطاتٍ أنا في غنى عنها.

كم تمنّيتُ أن أصـادف أحـداً مـن أولاد السـيّدة إلهـام، لأَصـدقه القـول فيما أريد، وأبعد عني شبح اتّهاماتهم الغريبة، لكنّ التقاطَ نجـمٍ يهـوي بـدا أهون بكثير..

الزمن لا ينتظر ولا يتوقّف عند مأساة أحد. هذا ما اختبرتُه خلال حياتي المتقلّبة غير المستقرّة. وهـذا مـا حمَلَـني علـى الإصـرار أكثر للعبـور إلـى ضفّةٍ آمنة. فهمت بمرور الوقت أنّ أمانـًا لن ألتقطه ما لـم أكـن قـادرةً علـى

تحمّل مسؤولية نفسي دون الركون لأحد. لهذا وضعتُ كامل اهتمامي بدراستي فتفوّقتُ فيها..

واليوم وأنا على وشك اختيار تخصّصي الجامعيّ وقفتُ بكامل اندفاعي وتردّدي.. بقائي في خدمة سيّدة القصر بات ملحّاً إذا كنت أرغب في دخول اختصاصي المفضل وهو اللغات لأخوض عالم الترجمة فيما بعد. خيارٌ كهذا يفرض عليّ تعليماً جامعيّاً خاصّاً ومصاريف لن أستطيع تغطيتها ما لم تقم السيّدة بذلك!

كما أنّ أيّ اختصاصٍ آخر في جامعة مجانيّة سيتطلب مني توفير مكان سكن ونفقات أخرى أنا عاجزة عنها كليّاً!

ضربت الحيرة أصقاعي.. ما عادت الحياة في المنزل الكبير تناسبني، رغم طيبة السيّدة.. لكنّ دوراً أقوم به في خدمتها لم يكن يوماً طموحاً أو خاطراً عابراً في البال.. وإذا استمررت فيه طوال سنوات دراستي الجامعيّة ولغاية أن أعثر على وظيفة سيكون ذلك عبئاً كبيراً على روحي التي باتت مكبّلة لا تملك حق الاختيار في شيء..

وما الذي يضمن أن استمراري في المنزل الكبير لن يُدخلني في مواجهةٍ قريبةٍ ومباشرة مع أولاد السيّدة لأجد نفسي طريدةً شريدةً؟!!

صورٌ شائكةٌ عن مستقبلي وحياتي صارت تغزوني كلّ ليلةٍ وتؤرق فُتات هدأةٍ متبقيّةٍ بعد مخاضٍ طويل.

يا إلهي.. ما تراها تفعل والدتي الآن؟

لم أسمع بأخبارها ولا هي تفقّدَتني منذ آخر لقاءٍ بيننا في المدرسة. ربّما اعتبَرَت أن قيامها بتوفير مكانٍ يقفل عليّ جدرانه إنجازاً كافيّاً لتنطلق إلى عالمها الجديد..

كفاها أنانيّة.. حان الوقت لتقف عند مسؤولياتها تجاهي. لماذا عليّ أن أتعب وأُنهَك نفسيّاً في وجودها؟!

فلتأتِ وتتصرّف كأيّ أمٍّ .. أنا لا أطلب منها أن تبتكر مشاعر أمومةٍ وتحشو بها قلبها، لا أريد سوى مكانٍ يؤويني وهو من أبسط الحقوق المعترف بها عالميّاً.

ولكن.. كيف أعثر عليها؟!

غادرَت دون أن تترك أيّ عنوان أو رقمٍ هاتفيّ، وكأنّها تقصّدَت أن تقطع آخر وتر، معتبرةً نفسها قدّمَت ما يلزم لتهنأ براحة بالٍ وضمير. سبق وعاهدتُ نفسي أن لا أفتّش عن ظلالها، أو أستجدي كلمةً أو التفاتة منها.. واليوم في يوم ميلادي الثامن عشر، أجدّد عهدي لذاتي بعدم ترقّب عودةٍ بائسةٍ لها مهما بلغَت بيَ الحال.

إذن هو يوم ميلادي وأنا حزينة جدًّا وأعاني من أزمة فَقد. لو أنّ جدّتي على قيد الحياة، لاقتلعَت حيرتي من جذورها وغرست عوضاً عنها باقةَ وردٍ جوريٍّ بضَوعٍ فريد. لانتشَلَتني من ضَياعي وأهدَتني قلبها على شكل راحةٍ وأمان.

لم أعد طفلة، لكن ما زلتُ حتى الآن أبحث في تفاصيل أيامي عن أيّ ذكرى لجدّتي أتغلغل بين ثناياها.

مزاجي منذ الصباح الباكر تراءى حزينـًا، لذا قرّرت أن أبتعد عن أيّ تواصلٍ خصوصـًا أنّ السيّدة خرجت برفقة «ستّ سعاد» لزيارة قبر زوجها في ذكرى وفاته، ولا شيء أقوم به لحين عودتها.

في غرفتي، أخرجتُ منديلي من مخبئه ورحت أتطلع إلى وردتي المشغولة بخيوطٍ من حب. ثمّ غرقتُ في إغفاءةٍ طريّة.

«طرقاتٌ خفيفةٌ على الباب، ودون أن أدعو القادم للدخول، إذا بجدّتي تقف عند العتبة بثوبٍ فضفاض تبتسم وتحمل شيئـًا ما بين يديها. لم تتكلّم ولا حتى أرسلت إشارة دعَتني فيها إلى دفء أحضانها. لمحتُ في هدأتها سكينةً لم أعهدها بها من قبل، وشعرتُ بسعادتها رغم صمتها الطويل».

عادةً عندما تأتيني يكون في جعبتها الكثير من الحكايا والأهازيج.. تأخذني بين ذراعيها وتغني لي بصوتها العذب.ولكن ثمّة تغيير هذه المرّة!

«بعد أن وزعّت ابتساماتها وعطرها في المكان، وضعت ما تحمله على الأرض وغادرَتني.. باغتَتني ولم أَقوَ على ندائها. شيءٌ ما كبّلَني على الكرسي فقَبَعتُ مكاني مستسلمة.

دقائق قليلة استجمَعتُ فيها ذاتي، ثم توجّهتُ لالتقاط ما تركَته لي. كان صندوقاً صغيراً غير مقفل، ويحوي العديد من الأوراق المطويّة بعناية فوق بعضها».

وقبل أن أوشك على فتحها، صحوتُ على صوت «ستّ سعاد» تُعلمني بعودتهما إلى المنزل.

كان حلماً غريباً بانسكابه المباغت، بتفاصيله، وبحضور الصمت. جلستُ بعده في حيرةٍ أُسائل نفسي عن زيارة جدّتي العابرة والشيء الذي رغبَت بمنحه لي ولم أتمكّن من سبر غموضه. جدّتي التي اعتادّت أن تأتيني في أوقات فرحي وحزني ووحدتي، وتظلّ تناجيني وتهديني حكاياها حتى أغرق في بهجتي، جاءتني هذه المرّة بوجهٍ مختلف وبين طيّات صمتها رسالة من غموض.

***

عندما دخلتُ غرفة السيّدة إثر عودتها من الخارج، رأيتُها جاثيةً على كرسيّها أمام الواجهة الزجاجيّة الكبيرة. لمحَتني فوجّهَت لشرودي ابتسامةً طيّبة ودَعَتني لأستقرّ قربها.

تبدو اليوم بمزاج جميل وهادئ، وهذا من حسن حظّي فأنا مُربَكَةٌ من حلمي العابر، وحزنٌ مجهولُ الانتماء يطارد سكينتي.

ما إن دنوتُ منها حتى بادرَتني بالحديث:

«عيد سعيد عزيزتي..أتـرَين أنا لا أنسى هذه المناسبة مطلقاً. في الحقيقة ارتأيتُ أنا و«ست سعاد» أن نجعل نهاركِ يبدو مميّزاً. لذا لن تكوني اليوم مسؤولةً عن أيّ شيء، افعلي ما ترغبين فيه».

صمتت قليلاً، وراحت ترقب الجبال من خلف الزجاج، ثمّ التفتت نحوي واستطرَدَت:

«لقد أصبحتِ فتاةً راشدة، وأريدكِ أن تستمتعي بهذا الشعور.. جميلٌ أن يحسّ الفرد بأهميّة كل مرحلةٍ عمريّةٍ، ويعيشها بكلّ حبّ.. الظروف قد تكبّلنا أحياناً، لكنّ إحساساً داخليّاً بالرضا والفرح لا يملك أحدٌ أن يسرقه منّا.. استمتعي عزيزتي ودعيني أرتح قليلاً.. وقبل أن تغادري اصطحبي معك العلبة الصغيرة المستقرّة على الطاولة»..

وبنفس الطريقة التي بدأَت بها الكلام، ابتسمَت ثم سرحَت في الجبال البعيدة دون أن تنتظر منّي ردّاً أو شكراً أو استفهاماً..

التقطتُ العلبة عن الطاولة وغادرتُ بهدوءٍ إلى غرفتي، وكم التهَبَت دهشتي عندما عثرت فيها على هاتف جوّال حديث جاهز للاستخدام!!

هي هدية ميلادي الأولى منذ ما يقارب العشر سنوات ، تاريخ وفاة جدّتي.. أسعدني الاهتمام المباغِت بالقدر الذي سررتُ فيه بالهاتف وربّما أكثر. وددتُ لو أسرع إلى السيّدة أحتضنها وأخبرها أنّي أحبّها لكنّي بتّ أعرفها وأدرك أنّها لا تحبّذ ردّات الفعل العاطفيّة وتحاول قدر الإمكان دفنَ مشاعرها بين حنايا الوَحدة والشرود..

رعشةٌ حبورٍ انسربَت في أعماقي، فربّما ما حصل هو بشرى بسعادةٍ قادمة أو بداية مشرقة لحياةٍ جديدة..

شعرتُ برغبةٍ في الخروج، فارتديتُ ملابسي سريعًا وتسلّلتُ إلى الحديقة ومنها إلى الخارج. على الرغم من أنّ السيّدة منحتني حريّة التصرّف في نهاري، إلّا أنّني لم أشأ أن ألفت انتباهها إلى غيابي حتى لا تشعر بوَحدةٍ، أو يأتي في بالها أنّني أستغلّ أدنى فرصة كي أبتعد عنها..كلّ ذلك احترامًا منّي لذاتها التي ما عادت تحتمل تردّداتٍ بائسة.

مشيتُ قرب مجرى المياه الدافقة صعوداً في الطريق. كلّما تقدّمتُ صار المشهد أكثر روعة وجاذبيّة. الطبيعة هنا خلّابة ولعل ذلك هو أكثر ما أَعانَني على احتمال تحدّياتٍ اصطدَمتُ بها منذ قدومي إلى هنا، وتعبٍ مررتُ به وغلَب معظم أيّامي..

سكينةٌ مدوّيةٌ تغلغلت في أوردتي وأنا أستنشق هواءً بارداً نقيًّا، وخلال لحظات شعرتُ أن خوفًا سبق وتملّكني من تهديدات شقيّةٍ قد حزم أبجديّته وارتحل. لن أهاب مجهولاً يطاردني بعد اليوم، ولن أكترث سوى لما يُحيي نبضي. من أراد بي شرّاً فليُمعن في سواده، أمّا أنا فلدَيّ ما هو أعظم لألتفت إليه. إنّه مستقبلي الذي بات التفكير فيه ملحًّا ويستدعي قراراً وحَزمًا..

رحتُ أمشي بدون هدفٍ محدّد في طريقٍ غزاها ضبابٌ خفيف. رائحة الصنوبر عبقَت في الأجواء وصوت خرير المياه أنعش روحي قبل الجسد.

صرتُ أستعيد صوراً من حياتي السابقة، وفي كلّ الصفحات رأيتُني أنتقل من خيبةٍ إلى أخرى، مسلوبةَ الإرادة، فاقدةَ الانتماء إلى أيّ مكان، وعاجزةً عن امتلاك قراري حتى في أبسط الأمور.

سيّدةُ القصر أخبرتني اليوم أنّي دخلتُ مرحلةً جديدة في حياتي، وصار لي حقّ القرار.. كم أتمنّى أن أملك فعلاً زمام أموري، ولا يهم عندها إن أصَبتُ أو خطأت فحريّتي ستكون إنجازاً غير قابل للتقييم.

مرّت الساعات خفيفةً، كنتُ خلالها أتطاير. شعرتُ بذاتي تنعتق من أغلالها، وخِلتُني فراشةً ترسم بجناحيها طريقاً للفرح والرجاء.

شيءٌ ما أخذ يدعوني للانغماس أكثر في سحر المكان، والتوحّد مع الطبيعة في شبه تكاملٍ روحيّ. أحسستُ وكأنّي أودِّع ظلالي المترامية بين الجذوع.. كأن زمناً عشتُه غارقةً بين خلايا هذه المنطقة، قد أفَلَ وحان موعد الرحيل.

الجمال في هذا الحيّز بدا طاغيّاً وينبض جاذبيّة، لذا رحتُ أستنشق عطرَ حضوري فيه، وأجمعه باقات في الذاكرة.. لملمتُ الكثير من الصور وحفظتُها في تلابيب الروح. ثمّ أخذت قبضةً من ترابٍ يفيض سحراً، وفي كيسٍ صغير أحمله دسَستُه مع بعضٍ من خفقٍ وحنين.

لم أدرِ كيف باغتني الوقت وانسرب سريعاً.. فجأةً لمحتُ الغروب يتسلّل بعيداً في أفق العاصمة النَعس. لا أعلم كيف عبرتُ في الزمن دون أن أشعر بتعبٍ أو جوعٍ، وأوشكَت العتمة أن تدثّرني.

لا بدّ وأنّي مشيتُ مسافةً طويلةً في الطريق الجبليّ، والعودة ستستغرق حتماً امتداداً من الزمن.. رحتُ أسرع في خطى العودة على أمل أن لا يسيطر الظلام وأنا في مكان شبه مقفر حيث لا بيوت ولا بشر، فقط أشجارٌ وعشبٌ وخرير مياهٍ يكسّر السكون.

ربّما سيّدة القصر تفتقدني الآن وتشعر بالقلق من تأخّري، أو ربّما تغيَّر مزاجها الصباحيّ وأصبحَت قاب قوسين من غضبٍ واحتدام!!

وصلتُ إلى المنزل الكبير في وقتٍ متأخّر.. كنت أتوقّع أن أجد الجميع في انتظار عودتي، لكنّ السكون بدا سيّد المكان.

ما إن دخلتُ إلى الحديقة حتى رأيتُ سيّارةً مستقرّة أمام المنزل..

يبدو أن السيّدة لديها ضيوف، والجميع مشغول بالاستقبال.. ربّما لهذا السبب لم يراود أحد القلق بشأني.

ارتدَيتُ راحتي وسكينتي ودخلتُ من الباب وأنا على استعداد لإلقاء التحيّة.. ولكن، تراءت قاعة الاستقبال على حالها مرتّبة فخمة ويغشاها الصمت.

انسرَبتُ إلى غرفتي وكُلّي شوقٌ لهاتفي الجديد.. لم يتسنّ أمامي متّسعٌ لأتفرّس في تفاصيله، والوقت يتراءى مناسباً لذلك. لكن الحظّ لم يسعفني أيضاً، فما إن أوشكتُ على حمله حتى أتاني صوت «ستّ سعاد» من على عتبة بابي:

«الحمدلله على السلامة عزيزتي وَرد.. جيّد أنكِ لم تتأخّري أكثر، فهناك ضيفٌ في غرفة السيّدة الكبيرة.. تحدّث مطوّلاً معها وهو في انتظاركِ الآن».

أصابني انقباضٌ شديد.. من يكون هذا الرجل؟! وماذا يريد مني؟!

أنا لا أعرف أحداً مطلقًا خارج نطاق محيطي الضيق، وأفضّل أن أبقى على انعزاليّتي فذلك أكثر أمانًا وراحة.

وضعتُ هاتفي جانبًا، وتقدّمتُ يسبقني خَفقي، وفي عقلي تدور عشرات القصص والأفكار والاحتمالات.

***

رجلٌ في بداية السبعين.. عريض الكتفين، دائريّ الجسم، بطولٍ لا يتجاوز المتر ونصف.. لمحتُه من بعيد يقف قريبًا من مكان جلوس السيّدة. مع طرقاتٍ خفيفةٍ على الباب، التفَتَ نحوي، فلم أتمكّن من إمساك نفسي عن الضحك.

وجهٌ كرويّ الشكل بملامح أشبه بكراكيب مبعثرة على مسطّحٍ منتفخ. الأنف طويلٌ حادٌّ كمنقار، والشفاه كبيرةٌ غليظةٌ بلونٍ أحمر، والخدود بارزة وكأنّها محشوةُ بأطعمةٍ وأشياء أخرى. لم أتحدّث عن العينين لأنّني لم أصادفهما وسط هذا الصخب المَلمَحي. كانتا متواريتين خلف ثنيات الوجنتين..

شخصيّةٌ كرتونيّة بكلّ ما للكلمة من معنى!

أصابني الضحك بالخجل، وشعرتُ باحمرار واشتعالٍ يُلهب وجهي. حاوَلتُ قدرَ استطاعتي أن أتماسك وأستعيد جديّتي، فألقيتُ التحيّة ودخلتُ غرفةَ السيّدة ونظراتي مبعثرة بين الأرض والفراغ حتى لا أتفرّس فيه وأغرق في موجة قهقهات من جديد.

عندما صرتُ في مواجهته، رأيته يسحب منديلاً من جيبه ليمسح عرَقًا يتراقص بوحشيّةٍ على جبينه. ثمّ أرسل إليّ ابتسامةً كشفت صفًّا من أسنان صغيرة متراصفة.

كم يبدو طيّبًا رغم مظهره الكاريكاتوريّ!

شعرتُ إزاءه بارتياحٍ كبير، وانسحبَت رغبتي بالسخرية من شكله. أحسستُ به شخصًا قريبًا جدًّا وكأنّه أحد معارفي عاد بعد غيابٍ طويل.

تنحنح قليلاً ثمّ وجّه إليّ الحديث:

«الآنسة وَرد!

سنوات وأنا أنتظر لقاءَنا هذا.. صدقَت جدّتُكِ عندما وصفَتكِ بوردةٍ جوريّة.. أنا سعيد جدًّا صغيرتي»..

تهاوى قلبي منّي وأنا أسمع كلمة «جدّتك»، وفاضَت الدموع على وجنَتَيّ دون أن أملك لها أَسراً. وبدون تفكير وجدتُني أُسرع إليه لأحتضنه وأبكي بين يديه..

مسح على شعري تماماً كما كانت تفعل جدّتي، وأخذ يواسيني ويشدّ من أزري. ثمّ عاد ليوجّه كلامه إليّ:

«لا تبكي عزيزتي.. دعيني أوضّح لك كل شيء»..

دعاني للجلوس قرب السيّدة، وبدأ الحديث:

«سأختصر عليكِ الموضوع وإذا أحببتِ أيّ توضيحٍ فيما بعد فلا مشكلة عندي. مممم.. حسناً، أنا الأستاذ سيف المحامي وكنت قبل وفاة جدّتك مسؤولاً عن كلّ شؤونها القانونيّة. حدّثتني عنكِ كثيراً يا فتاةَ البنفسج، وفي كلّ مرّةٍ التقيتُها كان لنا موعدٌ مع حكاياكِ.. في الواقع ملَكَت جدّتكِ إلى جانب منزلها الذي تعرفينه، الكثير من الأموال التي أودعَتها في المصرف، وقبل وفاتها بعامٍ تقريباً طلبت منّي أن أسجّل كلّ ما تملك باسمكِ.. كما طلبَت منّي أن لا يعرف أحدٌ بالموضوع مطلقاً باعتباركِ كنتِ صغيرةً وبالتالي كان لا بدّ من وَصيٍّ يديرها. والوصيّ حتماً سيكون إمّا والدتك أو والدك، وهذا ما رفَضَته الجدّة.. أوصتني أن أحافظ على صمتي حتى ألقاكِ. والآن وقد أتممتِ ثمانية عشر عاماً صار لكِ حقٌّ قانونيّ في تسلم الإرث والتصرّف فيه. ذهبتُ إلى مدرستكِ السابقة فأعطتني المسؤولة عنوان إقامتكِ الجديد، وأنا هنا اليوم لتسليمك كل الأوراق الثبوتيّة التي تمكّنكِ من بدء حياةٍ جديدة حرّة ومسؤولة أرادتها لكِ جدّتُكِ وسعَت جاهدةً إليها.. هذا الصندوق على الطاولة يحوي كلّ الأوراق التي تلزمك.. على فكرة منزل جدّتكِ باعتباره قديماً وتعرّض لإصابات عديدة أثناء الحرب الأهليّة لم يعد صالحاً للسكن، ولكن هناك العديد من شركات العقارات التي تسعى لامتلاكه مع سواه من الشقّق

لأهداف تجاريّة وبالتالي فإنّ سعره في حال بيعه سيكون مرتفعاً جدًّا، فإذا أردتِ ذلك أستطيع أن أتولّى الموضوع»..

كان يتحدّث بسرعة، ثم يتوقّف ليمسح عرقاً متصبّباً ويعود مجدّداً للكلام.. وهكذا استمرّ حتى أنهى ما في جعبته منهَكاً ومتعرّقاً وكأنه خارج من ماراثونٍ طويل.

اجتاحَتني الذاكرة محمّلةً بصورٍ من حلمي الغريب الذي أقلق نهاري بأكمله.. زيارة جدّتي، الصندوق، والأوراق المطويّة..

يا إلهي.. أتُعقَل هذه التوأمة بين الواقعُ والحلمَ؟!

كم أنتِ طيّبةٌ جدّتي.. لم أمرّ بأزمةٍ إلا وكنتِ لي فيها سنداً في حياتكِ وبعد الممات.. أتيتني في التوقيت المناسب لتقتلعي حيرتي وقلقي، وتغرسي في قلبي أماناً احتَجتُه لأتمكّن من الحياة بدلاً من أن تتمكّن منّي.

بعد كلام الأستاذ سيف لم أستطع الحفاظ على هدوئي، سَرَت في جسدي قشعريرة وأحسستُ ببردٍ شديد. صِرتُ أرتجف مكاني وفقدتُ السيطرة على نبضي. بدأ قلبي يخفق بشدّة، وتتصاعد وتيرة حركته حتى خِلتُ السيّدة ترى اختلاج صدري من مكانها رغم ضعف بصرها.

ما حدث يتخطّى الواقع الغليظ إلى ما يشبه الخيال.. ما حدث يُصنَّف في مرتبة أسطورة.

أنا، الفتاة التي عاشت عمرها متنقّلةً من مكانٍ إلى آخر دون أن تملك حقّ الاعتراض بسبب عَجزها، أجدني على موعدٍ قريبٍ مع الحياة!!

مع هذه الخاطرة، انتفَضتُ من مكاني بحركةٍ عفويّةٍ ورحتُ أقفز كطفلةٍ حازت لعبةً جديدة. صارت قدماي تتحركان بغفلةٍ عن إرادتي وفقدتُ قدرة التحكّم فيهما.. حالتي بدت شبيهةً بما جرى للفتاة الصغيرة «كارين» في حكاية «الحذاء الأحمر» التي أخذت ترقص رغماً عن إرادتها بمجرّد انتعاله.

في تراقصي لمحتُ ظلالَ أحلامي تعبُر أمامي وتهديني قبلاتٍ وابتسامات، ورأيتُ جدّتي تمدّ يدّها إليّ لتشاركني الفرح. كلّ ذلك والسيّدة ترقُبني بهدوء وتحرّك رأسها في إشارةٍ إلى الأستاذ سيف أن ينتظر.

فجأةً هدأ نبضي واشتعالي، واستعدتُ رَويَّتي وواقعي..

وقفتُ وسط الغرفة مذهولةً من تصرّفي العشوائيّ.. من أنانيّة استحكمَت منّي لحظات فلم أراعِ مشاعر السيّدة التي عطفَت على ضعفي مرّاتٍ كثيرة فتجاوزَت بمراحل سلبيّةَ أمّي ولا مبالاتها. في الواقع أنا لم أسعد بسبب ثروةٍ هبطَت على حاجتي ذات بَغتة، فلم تكن النقود يوماً جزءاً من طموحي.. ولا لكوني أصبحتُ قادرةً على الارتحال بعيداً عن السيّدة..

كلام الأستاذ سيف حمل بين طيّاته الأمل بمستقبلٍ أكون أنا من أصنعه وأتحمّل التزاماته.. بعالمٍ حُرٍّ أحلّق فيه فراشةً بعيداً عن خططٍ مرسومة بريشةٍ لم تكن يوماً لي ولا ناسبني معظمها.

حديثه جعلني مسؤولةً عن حلمي، وجدّد رغبتي باختيار تخصّصي الدراسيّ والجامعة التي سأرتادها.. وبمجيئه انتشلني من بين قلوبٍ حاقدةٍ تترصّدني من بعيد في انتظار لحظة الانقضاض.

ولكن وسط كلّ ذلك، ما مصير سيّدة القصر؟!!

وحدها من تستحق أن أفكّر فيها وأحمل ذنب هَجرها بسبب حاجتها لي، وهي فقط من ستجعلني أستشعر بفَقداً إزاء غيابها..

نعم، هي تحتاجني في ظلّ بُعد أولادها وقسوتهم.. فهل أكون سبباً إضافيّاً لقهر قلبها الضعيف؟!

بعد أن غادر الأستاذ سيف تاركاً عنوانه ورقم هاتفه، توجّهتُ إلى السيّدة مقدّمةً لها اعتذاري عن سلوكٍ لم أقصد به الإساءة إلى مشاعرها مطلقاً، مؤكّدةً لها أن بقائي معها في المنزل الكبير أمرٌ حتميّ ومحسوم بغض النظر عن أيّ مستجدّات.

تحدّثتُ معها بصدق حقيقيّ بعد أن لمتُ نفسي مرّاتٍ ومرّات.. فمن ذاق مرارةَ الأنانيّة لا يستطيع أن يقوم بذات السلوك، وأنا أشبعتُ تردّدات سلبيّة من أنانيّة معظم من قاربتُهم أو عرفتُهم.

أصغت السيّدة إلي بسكينة تامّة دون أن تبدي ردّات فعل. حتى بعد أن أنهيتُ الكلام حافظَت على صمتها بينما نظراتها معلّقةٌ بجبال بعيدة غائبةٍ خلف الضباب.

خفتُ أن أكون قد سبّبت لها هزيمةً روحيّة وجعلتُ قلبَها يهوي في فراغٍ عاطفيّ.. زدتُ اضطراباً وقلقاً، فوجّهتُ لتمرّدي ألف صفعة، واحترتُ بأيّ وسيلةٍ أستطيع أن أرفع عنها ما أصابها من وجوم. وعلى حين سكوت، سمعتها تنادي باسمي. لم أصدّق فاقتربتُ منها، تفرّستُ بوجهها، ورحتُ أرقبُ حركة شفتيها.

لشدّة ارتباكي، لم أنتبه لغرابة حركةٍ قمتُ بها. وما إن رأَتني حتى صدَحَت بقهقةٍ طويلةٍ مباغِتة وقَفتُ أثناءها مذهولةً من ضحكةٍ لم تصدر عنها طيلة فترة خدمتي لها!

لحظات دهشة، تبعتها قهقهات أخرى منها، قبل أن توجّه الكلام إلى حيرتي:

«أبارك لك وَرد حيازتك إرث الجدّة.. أنا سعيدةٌ فعلاً لأجلك لأنكِ فتاةٌ طيّبة وتستحقين حياةً مختلفةً عمّا تعيشينه. أنا أحببتكِ كثيراً يا صغيرتي ولكنّي لا أريدكِ أن تستمري بالحياة هنا. أعرف أن أولادي يسبّبون لكِ في الخَفاء إزعاجاً كبيراً، وأقدّر لك صمتكِ عنهم طوال المدّة السابقة. لقد رأيتُ منكِ اهتماماً لم يُمنح لي من قبل، وشعرتُ بطيبتكِ وخوفكِ الصادق عليّ..

غادري وَرد.. ابتعدي عن هذا المكان الذي يُكبّل أحلامك وانطلقي إلى حيث تستحقّين. لا تعيري بالاً لحالي، فأنا هنا بأمان مع «ستّ سعاد» المرأة المخلصة التي رافقَتني عُمراً وساندَتني في وَحدتي.. اذهبي إلى

عالمكِ يا جميلتي، وشيّدي مستقبلكِ بالطريقة التي تشائين.. ولكن خذيها نصيحةً من عجوزٍ علّمتها الحياة بعضاً من الحكمة، لا تتغيّري مهما جارَت عليكِ الظروف ولا تعاملي من أساؤوا إليكِ بالمِثل، دعي داخلَكِ المُزهِر يتحدّث دائماً وكوني ظلّاً وارفاً لمن يقصدكِ في حاجة..

اختاري الوقت المناسب للرحيل وأنا سأبارك كلّ خطواتكِ.. وإذا أسعفَتكِ الظروف لزيارتي فلا تتأخري، وإن لم تفعل تذكّريني دائماً كما سأذكرك..»..

بهذه الكلمات أنهَت حديثها، فارتَدَتها من جديد حالة الشرود اللامتناهي. كم رغِبتُ أن أكلّمها وأشكرها، أن أحتضن طيبتها وحِكمةَ تجاعيدها لكنّها كعادتها لم تترك فرصةً لأي ردَة فعل.

كلماتُها أعادت إليّ صورة جدّتي وهي تعظني، كلاهما تملك الروح الصافية نفسها وتخشى عليّ من الذبول إن لم أحافظ على أصالتي كوردةٍ جوريّة.

لم أستطع أن أتركها في خَلوتها كما دأَبتُ أن أفعل، وشعرتُ برغبةٍ للاستظلال بحضورها. فتوجّهتُ نحو البيانو ودون سابق تفكير راحت أناملي تعزف لطيبتها موسيقى «مرّة في حلم ما» أو Once Upon A Dream» من فيلم الأميرة النائمة الذي أعشقه..

نعم..

سأغادر هذا المكان الذي احتواني وكان كحلمٍ عابر.. سأبدأ حياةً جديدةً وعمراً جديداً وسأنفض عن كاهلي غبار لحظاتٍ مريرةٍ عاشَتها ذاتي في صغرها وشبابها الغَضّ.

سأطوي صفحاتٍ بليت من فرط التعب، وأفتح باباً للحريّة والحلم والحياة.

❋❋❋

الفصل الثاني عشر

مضى أسبوعٌ على لقائي بالسيّد آدم «صاحب الظلّ الطويل»، ومالك مطعم «حوريّة البحر».. خلال هذه الفترة وضعتُ جدولاً أنظّم فيه وقتي بعد بدء العمل، حتى لا يؤثر ذلك على دراستي ومتابعتي للمحاضرات اليوميّة عبر شبكة الإنترنت..

دراسة اللّغات كانت طموحي منذ البداية، فأنا متفوقة فيها وأقرأ الكثير من الكتب الأدبيّة بلغات متعدّدة. وما زاد شغفي بهذا الاختصاص هو قدرتي بعد التخرّج على ممارسة الترجمة من المنزل ودون أن أضطرّ للتواصل المباشر مع الآخرين، لما في ذلك من إرهاقٍ نفسيّ لي سبق واختبَرتُه.

الجامعة التي أتابع فيها تعتمد نظام التعليم عن بُعد، وهي جامعةٌ خاصّة ناشطة في أكثر من بلدٍ وشهاداتها دوليّة. هي مُكلِفة بعض الشيء ولكنّ جدّتي بإرثها الكبير الذي تركته لي منحَتني جناحين لأحلّق بهما حيث أريد وكيفما أريد..

أول أمر فكّرتُ فيه هو شراء مسكنٍ خاصٍّ بي يؤمّن استقراري بعد سنوات من التشتّت المكانيّ. كم رغبتُ أن أعيد الحياة لمنزل جدّتي، لكنّ وضعه العمراني في الحسابات الهندسيّة بات بائسًا، رغم ذلك لم يخطر لي مطلقًا أن أبيعه أو أسمح لأيّ طرفٍ غريب أن يقيم فيه. وقتها كنت ما

أزال أعمل في خدمة سيّدة القصر وتحت كنفها، ولم أغادرها إلّا بعد أن ابتَعتُ منزلي الحالي من إعلانٍ صادفته في الجريدة.

حظّي لم يكن يوماً مزهراً إلّا عند تعاملي مع الصحف. عن طريقها اشتريتُ بيتي الحاليّ، وبواسطتها أيضاً عثرتُ على عملٍ يرفع عنّي عبء الضجر وتردّداته السلبيّة.

غداً هو أول يوم عمل.. لن أحتاج للتفكير بمظهري الخارجيّ، فهناك زيٌّ خاص عَليّ أن أرتديه.. بنطالٌ أسود مع قميص زمرديّ اللون.

هذه الملابس ذكرّتني بالسيّدة جلجل وبهندامها الذي لم يغادر جسدها إلا في المناسبات السعيدة فقط. حتى عندما توجّهتُ لزيارتها قبل أن ألتحق بمنزلي الجديد، وجدتُها على حالها بجسدها الهزيل المتخشّب والمحشوّ داخل البنطال الكحلي والقميص الأزرق. مظهرٌ لم يتغيّر بأدقّ تفاصيله، حتى أزرار قميصها مُحكَمة الإغلاق بطريقةٍ تعتصر رقبتها، ما زالت على حالها.. وحدها مشاعري تجاهها هي التي تبدّلَت.

عندما وقع ناظري عليها بعد غيابٍ استمرّ لأكثر من عامين، لم أتماسك. وبمجرّد أن لمحتُها خلف مكتبها أسرعتُ إليها وارتميتُ بين ذراعيها. وأمام هَول المفاجأة، تمسمرت مكانها في وضعيّة تمثال. لم تُبدِ أيّ ردّة فعل، ولا حتى سمعتُ لها أنفاساً تختلج حتى خِلتها فعلاً في حالة جمودٍ تام.

احتاجَت بضع لحظات استجمعَت خلالها ذاتها المبعثرة وملامحها المشوبة قسوة، ثمّ صرخت قائلة:

«ويلكِ يا وَرد.. تسبّبتِ لي بذُعرٍ كبير.. لن أسامحكَ وستكون عقوبتكِ خصلات من شعركِ أعلّقها عند بوّابة المدرسة حتى تكوني عِبرةً لسواكِ»..

ثمّ احتضنَتني بشدّة، وغرقت كلانا في ضحكٍ هستيريّ..

لقائي بالسيّدة جلجل بعد فترةٍ طويلة محى من ذهني تاريخاً من القسوة سبق وترك آثاره على جدار الروح. صرتُ أشعر بها جزءاً من عائلةٍ وهميّةٍ ابتكرتها لنفسي في ظلّ تخلّي عائلتي عن دورها إزاء ضعفي..

عائلتي الوهميّة ضمّت بين حناياها سيّدة القصر والسيّدة جلجل وطيف جدّتي الذي لا يفارقني ويحيطني بعطفه ونبضه أينما حلَلت.. وأيضاً العم خلدون الذي أضفته إلى القائمة بعد انتقالي إلى المنزل الجديد.

من حقّي أن أمتلك أسرة، أُقَرِّب إليها من أريد وأُقصي آخرين، ومعياري في ذلك صدق مشاعر أراها تنسرب من بين النظرات وتتصاعد لتشكّل سحابةً تظلّلني في وَحدتي، فتشدّ من عزيمتي وتمنحني طاقةً للحياة..

لن أخرج اليوم من المنزل، فأنا مضطربة نوعاً ما.. العمل الذي سأمارسه لا يقلقني، لكن لقاء الناس، مخالطتهم والتواصل معهم هو ما يعبث بسكينتي.

طوال سنوات انقضَت لم أنجح في بناء جسر تواصلٍ مع أحد. أخاف من سوء فهم الآخرين لي، من نظرتهم إلى حضوري، ومن مدى قدرتهم

على سبر أعماقي وكشف خبيئاتي. أمقت نظرات الشماتة أو الشفقة، وأظلّ في حيرةٍ إزاء تفسير ردّات فعلهم.. لذلك أتوارى خلف ظلّي، وأظلّ أبحث في داخلي وبين أفكاري واهتماماتي عمّا يمكنني أن أستعيض به عن العالم الخارجيّ، بكل أشخاصه ومظاهره وألوانه القاتمة منها والمبهجة.

وعندما تعصف بي الظنون وأعجز عن تخطّيها، أنقضّ على الخيال وأصير أتصورّني بطلةً في مسلسلٍ كرتونيّ أو أميرةً من عالم الحكايا، وفي أغلب الأحيان أستحضر جدّتي بسكَناتها وكلماتها وقصصها.. بذكرياتنا القديمة، أو بمواقف أبتدِعُها.. أعيش معها طفولتها وشبابها وأصير أغنّي أهازيجها ومواويلها ومقاطع من أغاني فيروز مطربتها المحبّبة.

ولكنّي اليوم، عاجزةٌ عن كلّ شيء!!!

رغم برودة الطقس، أحسست برغبة في الخروج إلى الشرفة، أزَحتُ الستارة وتسلّلتُ إلى حضن الصقيع. البرد تجاوز تصوراتي بمراحل، والمطر الخفيف الذي لم يتوقّف منذ الصباح، استحالَ انهماراً شديد الهَطل مع برقٍ مباغتٍ يشقّ امتداد السحاب ويبعثره نتفًا. صخبُ الخارج بدا ملائمـًا لانتشالي من ضجيجٍ داخليّ عقيم النَفع وارِفِ الجلبَة.

راودني خاطرُ الاتصال بالسيّد آدم، وإعلامه بتأجيل موعدي لمباشرة العمل بحجّة سوء الأحوال الجويّة. بالطبع لم يكن الطقس العاصف سببـًا حقيقيّـًا، وإنّما مجرّد ذريعةٍ حاولت التشبّث بها لضعفٍ سرى بين جوارحي وخوفٍ بدأ يزداد مع سريان الوقت.

دنوتُ من وردتي المسكينة، فاستشعرتُ ارتجافها ولمحتُ بين أوراقها المبعثرة بضع نملات يسِرنَ صفّاً متماسكاً في سّعيٍ للبحث عن أيّ طعام، رغم قطراتٍ متتالية تصيبهنّ وتعيق حركتهنّ.

خجلٌ من الذات استشرى في البدن، لم أدرِ بعده بنفسي إلّا وأنا أرفع نصبةَ الورد وأضعها في مكان آمنٍ بعيدٍ عن انسياب المطر وهبوب الريح.

أعرف أنّه عليّ أن أتخطّى ضعفي وأمضي قُدُماً في قراراتي، إذا أردتُ فعلاً أن أحقّق بدايةً جديدة لطالما رغبتُ فيها.. بداية أصبح فيها مؤهلةً لأرتدي مسؤولية ذاتي وأثبت لنفسي قبل الآخرين أنّني لست مجرّد رقمٍ أنثويّ عابر، وإنّما وردةٌ جوريّةٌ أصيلة تزداد ضَوعاً بمرور الوقت وتمنح الآخرين ما عجز عنه كثيرون.

***

في تمام الساعة الثامنة كنت أتخطّى عتبةَ «حوريّة البحر» وأدخل للقاء السيّد آدم في مكتبه. رحّب بي في أول يوم عمل متمنّيّاً لي تجربةً موفقة.. بالطبع سبق وحدّد لي مسؤولياتي التي تتمثّل بانتظار الزبائن الجدد، الترحيب بهم، واختيار المكان الذي يناسبهم ثمّ تسجيل طلباتهم بعد منحهم وقتاً لتحديد خياراتهم.. أمّا متابعة أمورهم بعد ذلك فستكون من اختصاص نادل آخر..

إذن الموضوع بسيط جدًّا ولن يحتاج جهداً كبيراً.. هي فقط صعوبة التواصل مع الآخرين ما يوتّرني بعض الشيء، رغم انّي أمضيتُ أسبوعاً كاملاً أعمل على طرد أيّ أفكار سلبيّة حول الموضوع.

لن يكون هناك زبائن قبل الساعة التاسعة، وبالتالي أملك متّسعاً من الوقت للتعرّف على المكان. السيّد آدم، وفي لقائنا الأول، اصطحبني في جولة سريعةٍ على المطعم فحفظتُ معالمه وترسيماته الهندسيّة، لكنّ جولتي اليوم مختلفة فأنا أقوم بها كموظّفة تحتاج سبرَ تفاصيله لمنع وقوع أيّ خطأ أو حادث طارئ، خصوصاً أني سأكون بمفردي في مَهَمّات الاستقبال وتسجيل الطلبات.

المفاجأة التي حسّنت مزاجي ورفعت مؤشر التفاؤل لديّ هي ذاك البيانو الأسود الكبير الذي عثرتُ عليه جاثياً فوق مربّعٍ حجريّ يرتفع بعض الشيء عن سطح الأرض، ليتمكّن العازف من الإشراف على قاعة الطعام بكاملها، ممّا يوفّر للزبائن أيضاً فرصة التفرّج عليه إذا أحبّوا تجاوز حاستّي التذوّق والاستماع إلى حاسّة النظر أيضاً. استغربتُ وجوده في المكان، وعدم ملاحظتي له في جولتي السابقة، لكنّي أرجعتُ ذلك إلى الإحراج الذي كنت فيه بسبب المواقف الغريبة التي عشتُها أثناء الزيارة الأولى.

القاعة بدت خاليةً من أيّ حياة، ممّا حفّزني على تتَبُّع رغبتي، فدنَوتُ من البيانو فتحتُ غطاءه ومن على كرسيّه أخذتُ أخطّ بأناملي خربشاتٍ موسيقيّة دون سابق إعداد.. سرحتُ مع الموسيقى ونسيتُ مكاني، وزمناً ينقضي علَيَّ خلالَه أن أُنجز استعداداتي لاستقبال الزبائن.

تصفيقٌ قويٌّ انتشلني من حالة الوَجد التي ارتحَلتُ معها، فانتَفَضتُ واقفة لأُفاجَأ بالسيّد آدم يقف بقامته الطويلة جدًّا مع ابتسامةٍ تُظهر أسنانًا بيضاء مرتّبة بعناية.

من شدّة خجلي لم أعثر سوى على بضع كلمات اعتذارٍ أتوجّه بها إلى رصانته:

«آسفة سيّد آدم، لن أكرّر ما حدث مرّةً أخرى، وسألتزم بعملي دون أن أتخطّاه مطلقًا»..

لكنّ ردّة فعله باغتتني، وجاءت خارج إطار توقعاتي على كثرتها:

«أنتِ رائعة آنسة وَرد.. لم تخبريني أنك عازفةٌ موهوبة، ولو علمتُ ذلك لتغيّرت أمورٌ كثيرة.. ولكن لم يفُت الأوان بعد.. سيبدأ الزبائن بالحضور بعد قليل، لذلك سأتركك لتتهيّئي، ولكن قبل أن تغادري إلى المنزل تعالَي إلى مكتبي فثمّة ما يجب مناقشته»..

من حسن حظّي أن النهار عبَر دون حضورٍ كثيف. فقط عددٌ ضئيل من الزبائن لا يتجاوز عائلتين ومجموعة من الأصدقاء، بالإضافة إلى كاتبٍ شابٍ أتى مع حاسوبه متخّذاً الزاوية مستقرّاً له وبدء يكتب ويسترسل دون توقّف، ورجلٍ عجوز حضر بصمت وغادر بفراغ كلاميّ أكبر.

لم أستغرب محدوديّة العدد، فما زلنا في الموسم الشتويّ والطقس العاصف في الخارج لا يشجّع مطلقًا على الخروج سوى لأولئك الذين تحملهم التزاماتهم على المخاطرة.

أثناء لقائي مع الوافدين لم أشعر بأيّ تعب أو ارتباكٍ فعليّ يوَلّد عثرات.. وهذا ما فاجأ مخطّطاتي التي وضعتُها مسبقاً وراجَعتُها مرّات حول كيفيّة التحكّم بمؤشرٍ مرتفعٍ للحَياء وتصحيح أخطاء قد تولَد نتيجة ارتداداته.

سبق وخضتُ تجربةً مريرةً مع الخجل، تعهّدتُ بعدها لنفسي أن أعمل جاهدةً لأعيد هيكلةَ ذاتي بالطريقة التي أرضى عنها ولو كلّفني ذلك فشلاً متتالياً وإحباطات كثيرة.

كان ذلك أثناء مشاركتي في احتفاليّة اليوبيل الذهبي لتأسيس مدرستنا الداخليّة. مساهمتي لم تأت بالتأكيد بناءً على طلبٍ منّي، فطوال حياتي عمدتُ إلى تجنّب الانخراط في جميع المناسبات، حتى أعياد ميلادي كانت لها نكهةُ سكونٍ أستلذّ بها بحضورٍ طاغٍ لجدّتي التي تساوي في نظري كل الوجود.

يومها، ولتجنّب حدوث خلافات بين الطالبات، عمدت الإدارة المدرسيّة إلى تحديد أسماء المشاركات في تقديم العروض بناء على «القُرعة». ربّما من سوء طالعي أنّ اسمي صدح في المقدّمة. حاولت وقتذاك الاعتراض، لكن قسوة السيّدة جلجل وفظاظة طباعها التي طَفَت فوق ملامحها وتُرجمَت بعباراتٍ غليظة، جعلتني أتقوقع في شرنقة السكوت وأقبل على مضضٍ دوراً في مسرحيّة «الأمير الصغير» للكاتب الفرنسي أنطوان دو سانت إكزوبيري (Antoine De Saint-Exupery)، قمتُ خلالها بدور الوردة المغرورة والوحيدة على سطح الكوكب

الصغير، التي يقع الأمير في حبّها فتقوم بمحاولة استغلاله لمغادرة الكوكب.

أذكر أنّني وبسبب ارتباكي نسيتُ العديد من الجمل، ومن فرط التوتّر لم ينتهِ الأمر عند هذه العقبة، بل تخطّاها إلى فقدان قدرتي على التحكّم بجسدي فتهاويتُ على الأرض مثيرةً موجةً من الضحك والاستهزاء.

الحضور كان كثيفاً وضمَّ الأهالي ، باستثناء أبي وأمّي بالتأكيد، والهيئة الإداريّة والتعليمية في المدرسة، بالإضافة إلى عددٍ كبير من الضيوف من كبار رجال الأعمال وبعض الفنانين.

تلك الحادثة المُخزية أقعدتني فترةً عن متابعة دروسي بسبب حمّى أصابتني على إثرها .. تلك الحمّى التي قال عنها الطبيب مرّة لجدّتي إنها وسيلتي اللاوعيّة للهروب من واقعٍ مؤلم أو استجداء اهتمام.. يومها لم أفهم مغزى الكلام نظراً لصغر سنّي، ولكنّي الآن بِتُّ أعي تماماً حقيقةَ فتاةٍ ضعيفةٍ كنتُها، وأسعى جاهدةً للَملمة ذِكراها في جعبةٍ وإيداعها طَيّات النسيان.

إذن أنهيتُ يومي الأول في العمل دون أخطاء تذكر، سوى نسياني لبعض الأمور الثانوية، ممّا جعلني أصنّف نهاري بالأكثر من جيّد.

لم أنسَ موعدي مع السيّد آدم، وبمجرد أن عانقت العقارب بعضها بعضا في إعلانٍ لانتهاء توقيتي المهنيّ، حتى توجّهتُ مباشرة إلى مكتب الإدارة..

اللقاء مع السيّد آدم على قِصَره حمل بين ثناياه فرحةً جديدة.. هو لا يريدني في وظيفة نادل، وابتداء من الغد سيتمثّل دوري بالعزف على البيانو مقطوعات من اختياري لأن العازف المتعاقّد معه دوامه ليليّ فقط.

أسعدني الخبر كثيراً لدرجة أنّي لم أقاوم رغبتي في التعبير عن الفرح، فرُحتُ أبثّ كلمات شكر متتالية وأنا أتقافز وأتضاحك.. والأجمل من كلّ ذلك، أنّ السيّد آدم ترك وقاره جاثياً على كرسيّ المكتب وأخذ يشاركني القفز والتراقص. استمرّينا كذلك حتى صفعني الاتّزان ذات بغتة، فجمدتُ مكاني ورحت أرقبه في تقافزه حتى أصابه التعب. وما إن استكان حتى تعانقت نظراتنا في اندهاش طويل ثمّ انغمسنا في قهقهات وذرفنا دموعَ فرحٍ لم أتذوق طعمها منذ زمن.

***

ما أروع أن يتطابق عملك مع هوايةٍ تعتبرها بمثابة صديقٍ يمسح عن كاهلك الحزن مهما ارتفع مؤشر اختلاجاته! وهذا تماماً ما حدث معي..

فجأةً لمحتُ القدر يرفعني من قائمة المهمَلين والمنسيين ليضعني في الصف الأول، حيث كل التقديمات هي من الدرجة الأولى بل الممتازة!

رأيتُ كيف تتبدّل الأيام وتكشف عن خبيئات لا نتوقّع حدوثها، فقط لأن ما مضى كان بائساً وقاسياً وما استجدّ أتى مرتدياً ثوب زفافٍ ناصع البهجة..

أو هذا على الأقل ما اعتقدتُه!!

أن أصبح عازفة بيانو..

يعني أن يمضي الوقت وأنا في خلوةٍ مع ذاتي وحلمي وذاكرتي، دون اعتبار لأيّ صخبٍ قد يزدحم به الفكر أو المكان..

يعني أن تغدو سكينتي الداخلية طاغية متجبّرة وتفرض سلطتها على القلب والوجدان.

ويعني أيضًا أن أكون وَردةً جوريّة تنساب ضَوعًا، وتنسكب حلمًا ورقّةً وأملاً..

إذن من اليوم سأصبح رسميًّا عازفة البيانو في «حوريّة البحر»، ولن أهتاب من سوء تواصلٍ مع هذا أو ذاك، فعلاقتي ستنحصر بصديقٍ على هيئة بيانو، بنغماتٍ، وبلحنٍ حنين.

أعرف أنّ جدّتي سعيدةٌ لأجلي.. كانت منذ البداية راضيةً عن قراري بالعمل، واليوم أشعر بها في سكينةٍ وارتياح.

كم هي غريبةٌ هذه الحياة وتحمل بين طيّاتها عجائب ومفارقاتٍ! بالأمس كنت أفتش عن وسيلةٍ تساعد في انسراب أيام عملي الأربعة لأهنأ بإجازتي وخَلوتي، والآن بتّ أغادر إلى العمل بلهفة وأعود وفي قلبي اشتياق لاحتضان النغمات من جديد!!

مضت الأيام سريعة، وأقبل الصيف بحَرّه وصخَبه وجنون حكاياه.. وصار لي جمهورٌ من المستمعين، يفِدون إلى المطعم للاستمتاع بمقطوعاتي الموسيقيّة المقتبَسة والمبتَدَعة.

والأغرب من كلّ ذلك، هو ذاك الشعور المتوالد بين جنبات القلب!!

سعادتي بعملي، صاحَبَتها بهجةٌ من نوعٍ آخر.. فالسيّد آدم لم يعد مجرّد سيّدٍ للمكان الذي أعمل فيه، بل غدا على حين نَبضٍ سيّداً لفؤادٍ صغير يختبئ بين الضلوع.

ذهابي إلى العمل استحال عيداً أحتفي به كلّ يومٍ، وأستعدّ لاستقباله بأناقة الروح والمظهر.. صرتُ أقف ساعاتٍ أمام مرآتي أصفّف شعري وأختار فساتيني وأمارس تدريبات في الحديث والابتسام والحزن أيضـاً.. ولعل أول مرّةٍ استشعرتُ فيها ندمـاً على جرأتي واحتفائي بقصّ شعري، كانت مع بداية احتدام أحاسيسي وارتفاع مؤشر النبض في الوريد.

مشاعري لم تولد يتيمةً مثلي، بل احتضنَتها مشاعر مماثلة من قِبَل فارسي الجميل.. بدايةً لمحتُ نظرات الإعجاب تنسرب من نظراته، حتى ابتساماته كانت لها نكهةُ سُكَّر. رأيتُه يفتعل أكثر من موقف للحديث معي ومهاتفتي بعد عودتي للمنزل. أحببتُ اهتمامه بي بل عشقتُه، وصرتُ أترقّب منه المزيد من اللهفة والدهشة والإعجاب.

ما يميّز آدم عن سواه هو تلك الثقة التي نجح في بنائها داخلي وولّدَت أمانـاً تربّع بين الحنايا بعد أن افتقدتُه منذ أن غادرَتني جدّتي. إعجابُه بي لم يكن تافهـاً وسطحيّاً كآخرين عبَروا سحابـاً صيفيّاً عقيمـاً، لكنّه تغلغل بين مسامات روحي وأفكاري ونبضي، وتمكّن خلال فترةٍ ضئيلة من أن يكون توأمـاً لأحلامي وخَفقي.

وشيئـاً فشيئـاً تعلّق كلانا بالآخر، وغدونا وطنـاً لبعضنا ومستودعـاً للحكايا والأسرار.

فارسي.. سليل عائلة ثريّة تتكوّن حاليّاً من أبٍ وأمٍّ وولدين، هاجرَت منذ أمدٍ إلى أميركا واستقرّت هناك. حتى هو أقبل إلى الحياة حاملاً جواز مرور نحو الحياة، وورقةً ثبوتيّة تؤكد تمتعه بكامل حقوق الإنسانيّة.

هو عربيّ أميركيّ درس إدارة الأعمال بناء على رغبة والده الذي توسَّم بابنه شطارة عمليّة، وأراده شريكاً له في إدارة الشركات الكثيرة التي يملكها. لكن آدم لم يكن على قدر توقعات والده، فبعد تخرّجه قرّر السفر إلى وطن والده ليؤسس عمله الخاص هناك. وهكذا عاد آدم إلى بلده الأصيل في تحدٍّ لرغبة والده الذي اكتفى بمنحه مبلغاً من المال لا يساوي شيئاً في حساباته البنكيّة التي لا تُحتسَب، مؤكداً له أنّه لن يستحصل على نصيبه من الثروة إذا لم يعُد عن جنونه وينصاع لرغباته وأوامره.

أسّس آدم مشروعه الصغير «حوريّة البحر» في العاصمة، كما ابتاع بيتاً جميلاً في منطقةٍ جبليّة مُشرفة على العاصمة. ولقائي به كان بعد عودته إلى الوطن بشهورٍ قليلة.

حكايتي البائسة تلقّاها آدم بأسفٍ شديد، ولكن ما أبهرني فعلاً هو أسلوبه العمليّ والبسيط في التعاطي مع كل المسائل حتى الشائكة منها. لذلك هو لم يُبدِ تعاطفاً أو حتى شفقة، بل أخبرني وبكل بساطةٍ أن ما حصل كان في صالحي لأنّه أسهم، وفقاً لوجهة نظره، بتكوين شخصيتي المميّزة التي لم يلتقِ بشبيهٍ لها.. لذلك فإن فارسي الأسمر ظلّ الشخص الوحيد الذي بُحتُ له بكل خبيئاتي ومشاعري السلبيّة منها والإيجابيّة وخرجتُ من اعترافاتي بكامل أناقتي الروحيّة.

بعد أن توطّدت علاقتي الروحيّة والعاطفيّة بآدم، حدث أن صار في نظري كونـًا بأكمله. رأيتُني أعيش في عالمٍ فارغٍ من أيّ حياةٍ سوى حضوره. وفي توقيتٍ عشقيّ شبيهٍ بتغريد عندليب، استحال الوجود جنّةً لم تحوِ يومًا سوانا.

هو «آدم» أول الخلق والرجل الوحيد الذي يطوي بين جنباته طِيبَ الروح وروعةَ المشاعر وعظمةَ رجولةٍ ليس لها بديل، وأنا «حوّاء» التي انبثقَت من ثنايا عشقه، فلم تعرف سواه وعاهدت مشاعرها أن تكون طوع حبّه وأوامره.

صار هو أول الرجال ووحيدهم، وغدوتُ حواءَه التي لم تُدرِك معنىً لأنوثتها إلا عندما أزهر عشقه داخلَها، وأصغت لهمساته الليليّة الصافية، ودندنات قلبه في نهارات صاخبةٍ بالوَجد وعَذب الخَفق.

***

هكذا صرتُ وَرد الفتاة الحائزة على شهادة عشقٍ بدرجة امتياز..

سنتان عبرَتا وأنا أعيش في حلمٍ لم يتبختر يومًا في البال. أمارس مهنةً أعشقها فأمضي نهاري أعزف وأحلّق في الخيال، وفي توقيتٍ متوازٍ أهتمّ بدراستي وأواظب على متابعتها عبر الإنترنت بأدنى التفاصيل وأدقّها.. برَعتُ في تخصّصي وعملي، وتفوّقتُ في ارتداء ثوب الحبّ فصرت أتنفس عشقًا وأتطاير وَجداً وأغفو على وَقع الخَفق.

أيُعقل أن القدر رضي عن وجودي، وشرَعَ بتوقيع معاهدة صلح بيننا!!

هذا ما تمنّيتُه وحاولتُ إقناع حيرتي به.. قرّرتُ أن أعيش لحظة الفرح بكل تردّداتها، فلا أفكر بماضٍ انقضى ولا بآتٍ مجهولٍ غامض.

نعم، سأستنشق عطر السعادة حتى تمتلئ رئتاي منه، وسأجمع رذاذه في زجاجات أعتّقها لزمن ضنين البهجة، شحيحِ الوِدّ..

«آدم»..

يا طائر الفينيق الذي نفض عني رماد الحزن، وانتشلني من بين الركام.. ثمّ، ذات حبٍّ، حملني فوق جناحيه الملتهبين لنعبر معاً نحو ضفّةٍ آمنة..

توّجني أميرة.. وألبسني حناناً مورفاً راح يُزهر مع كل كلمة حبٍّ والتفاتة شوقٍ وومض حنين.

بحضوره، نسيتُ عزلتي وصار لي وجودٌ يتلهّف لوهجه رجلٌ يجمع الكون في قبضته، وسحر الأساطير في بهاء طلّته..

بات لي موعدٌ معه لا يتبدّل.. ألقاه كلّ يوم، فيحتلّ ركنه أمامي ليصغي لعزفي ساعات دون أن يمل.. وما أن أغادر العمل، حتى يأتيني بسيارته ليصحبني في جولةٍ بين طرقات العاصمة.. ثمّ يصرّ على أن نمضي وقتاً نسير على الأقدام، لأنّه يعتبر أنّ ذلك سيوطّد علاقتنا بالمكان، فيصير له رائحة حبٍّ رطبٍ نديّ تنبعث بمجرّد عبور أحدنا فيه.. لذلك غالباً ما لجأ إلى ركن سيارته جانباً ودعوتي للتسكّع معه بين الأزقة وفي الساحات..

حتى في الأيام المطيرة لم نترك حيّزاً إلا ونثرنا ضحكنا فيه، ومشينا في تحدٍ للهَطل والبرق والرعد. وكلّما اشتدّ المطر، أمعنّا أكثر في السعادة وغرقنا في قهقهات ووَجد.

هي ساعات بهجة لم ترِد عالمي من قبل.. ومن فرط دهشتي بها استحَلتُ فراشةً بألوان قوس قزح ورحت أنثر سحري في كل طريقٍ نسلكه.

معه، تبدّلَت الأمكنة كلّها، تغيّرت معالمها، وارتدَت ثوبَ الفرح. صار لها نكهة حبقٍ ورائحة ياسمين.. وآدم، فارسي الأسمر، عرف تماماً كيف يُضفي عليها مزيداً من الألَق فابتكر لنا حكايةً في كلّ زاوية.. فهنا تناولنا المثلّجات في زمن الزمهرير، وهناك ركضنا حتى كدنا نتلاشى تعباً. وأمام المبنى البعيد جلسنا على الرصيف كمتسوّلَين ورحنا ننشد ونهذي ونتضاحك، وفي هذا الزقاق اختبأنا بعد أن خشينا أذيّةً من مجموعة فتيةٍ ثملين..

حتى على شاطئ البحر غزَلنا قصصنا وجلسنا لساعات نتأمل سكون البحر وهديره، ونبثّ بين أمواجه أسراراً ووعوداً على أمل أن تغدو واقعاً في زمنٍ ما.

تحدّثنا في كلّ المسائل والمخاوف والأمنيات.. بكَينا على أمورٍ غائرةٍ في القدم، وضحكنا من تفاهات اعترضت مسيرتنا ذات حياة.

لم يُخفِ عنّي آدم صعوبات يعيشها بعيداً عن قصر والديه وثروةٍ ضخمة كانت توفّر له مستوى متقدّم من الراحة والرفاهيّة. صرّح لي عن

مخاوفه المستقبليّة في بلدٍ يرتفع فيه مؤشر الخوف والفقر كلّ يوم.. ويزداد الأمن اضطراباً جرّاء اغتيالات مستمرّة تطال شخصّيات سياسيّة وإعلاميّة وتطيح بأعداد كبيرة من المدنيين عابري السبيل..

أخبرني أنه عندما أتى من أميركا كانت جعبته مليئة بالأحلام وحكايا النجاح، لكنّه أدرك بعد التجربة مقدار المعاناة التي يعيشها المواطن في بلادٍ تفتقد أدنى متطلبات الكرامة والحياة.. في أرضٍ تريد من قاطنيها الكثير من العطاءات والتقديمات والتضحيات دون أيّ مقابل يُذكر..

اعترَفَ أمامي أنه يعيش أرقًا ووجلاً من غدٍ مجهول، ويخشى فشلاً يقوّض أحلامه، ويضعه بين مطرقة الحاجة وسندان الرحيل..

لكنّه في خضمّ كلّ ذلك، قدّم لي وعداً بعطر الورد الجوريّ، مؤكّداً أنّه سيبقى فارسي وأماني ومكمن خبيئاتي وأحلامي، وأنّني سأظلّ ملهمةَ روحه التي حملت إليه الدهشة بعد سنوات من الرتابة، وزينت طريقه بألوان الطيف بعد أن اعتاد رؤية الحياة من زاويةٍ رمادية الأفق.

الأمر الذي أرّق هدأتي بعض الشيء هو ذاك الشرود الذي بات يرتدي نظراته كلما انقضى الزمن وتعمّقَت علاقتنا التي غدت شبه معلنةٍ للجميع.. ربّما اعتدتُ أن أعيش توتّراً مستمراً فرُحت أبالغ بعض الشيء في ارتباكي وارتيابي، لكنّ انقباضـًا سكن روحي وصرتُ أخشى فَقداً جديداً، وألمـًا لن أستطيع هذه المرّة أن ألملم ما قد ينتثر منّي بعده.

وما رفع مؤشر حيرتي حتى صارت بتردّداتٍ موجِعة، هو غياب جدّتي عن مسرح أحلامي..

طيف جدّتي الذي صار ومنذ سنوات رفيقـًا لـدربي، يـأتيني كـلّ حـزنٍ وحاجةٍ وخوف، فيخفّف وتيرة همّي ويُرشدني لحظةَ ضياع.. احتجبَ وكأنّه لم يكن!!!

ربّما أنا مقصّرةً بعض الشيء.. فمنذ أن التقيتُ بفرحي يرتع بين أهداب آدم، ما عدتُ أتذكّرها إلا فيما ندَر.. بالتأكيد يستحيل على قلبي نسيانها، لكن بهجةً غير معتادةٍ غافلَتني وأربكَت أيّ احتمال للخروج عن مدارها. صرتُ كفراشةٍ مشدودةٍ إلى مركز الضوء لا أرى سواه، وفقدتُ قدرة التحكّم بوجهتي التي باتت محدّدةً بخارطة طريقٍ وحيد.

لذلك أصبحتُ على شفا الخوف أخطو.. كل لحظةٍ تأتي محمّلة بقلقٍ وتساؤلاتٍ لا تنتهي..

تُرى إلى متى سيستمرّ مركبي يمخر حرّاً عباب الشوق؟! هل سأصحو ساعةَ شقاءٍ لأجدني وحيدةً كما كنت، ولكن بنتَفِ قلبٍ غير قابلٍ للنبض؟! هل ما أعيشه مجرّدٌ من الحقيقة، كسرابٍ يتراءى في صحراء انتظارٍ مَقيت؟!!

أسئلةٌ كثيرة لا يملك أحدٌ - مهما بلغ من دهاءٍ - أن يقدّم إجابات عنها، فاستمرّت تتوالد داخلي وتتكاثر، لتحتل كامل المساحة بين الفكر والقلب.

ولكنّي فعلاً أشعر بحاجةٍ لوجود جدّتي في تفاصيل يوميّاتي التي باتت صاخبةً بحضور الحبّ.. أحتاجها لتغرس في قلبي وردةً جوريّة فأهنأ بما أنا فيه من لهفةٍ للحياة.. أحاول استحضار طيفها، لكنّه يأبى أن يلتفت نحوي، فأظلّ أناجيه حتى تسرقني الإغفاءة فأنام على انتظارٍ وأصحو على حنين.

❋❋❋

الفصل الثالث عشر

كم كنتُ أتمنّى أن أنعم بعائلةٍ حقيقيّة تحتويني، وألجأ إليها لأهنأ بسكينةٍ عند كلّ حدثٍ جَلَل.. وما أختبره اليوم من مشاعر ودفق نَبضٍ هو بلا شكٍّ أعظم مسألةٍ قد تَرِدُ بئر أيامي، وتعصف بلِحاظي.

ليت أمّي حاضرة ولو بجسدٍ بدون قلب، فهي حتماً أكثر قدرةً على تكوين رؤيةٍ عقلانيّة حول مختلف المسائل..

ولكن!

لو أنّها بهذه الرجاحة وعمق التفكير، لما جعلت نفسها فريسةَ حياةٍ بائسةٍ نهشت روحها وجمال طلّتها، ونالت من فؤادها الذي غدا ساكناً لا يخفق لأمومةٍ ولا لاشتياق..

ماذا عليّ أن أفعل!! محتارةٌ أنا وحدي، وأراني أمضي مغمضة العينين خلف قلبي الهشّ وحكايا الحبّ العتيق.

من يصلح اليوم ليرتدي ثوب الناصح الأمين لي؟

أتكون السيّدة جلجل؟! بالتأكيد لا يمكنني أن أجعلها أمينةً على قلبي. أعرف أنّها طيّبة، لكن ستار القسوة الذي أسدلَته سنوات على ملامحها، زرع سواداً في زوايا روحها فباتت عاجزة عن التفاؤل ولو قُدّم لها على طبقٍ من ورد..

ربّما سيّدة القصر تصلح لمهمّة الإرشاد، فسنوات عمرها المديد وتجاعيدها التي باتت شاهدةً على الكثير من قصص الحب والفراق ستعرف حتماً كيف تمنحُني اليقين.. لكنّها مسكينة، ضربها المرض بعد مغادرتي لها بفترةٍ وجيزة وصارت تقضي معظم أيامها في المستشفى في جناحٍ خاصٍّ بها برفقة «ستّ سعاد» التي رفضت فراقها.. وسأكون في قمّة الأنانية لو تناسيتُ وجعها وتراكمات تعبها ورحتُ أحكي عنّي وأشكو أرقي ومخاوفي بدلاً من مواساتها واحتواء ضعفها..

حسناً.. لمَ لا أحاول مع العم خلدون؟

في مثل هذه الظروف، أعتقد أنّه الوحيد الذي يملك مفتاح النُصح لي. رغم جهله بالكثير من المعارف والأمور، لكن الحياة لم تتهاون معه مطلقاً، ووجّهَت له أكثر من صفعةٍ فأحالَته عموداً صلباً إذا ما استنَدتَ إليه احتواكَ وامتصّ ثقَلَ همّك.. وفوق ذلك، هو يعاملني كابنةٍ له ولا يتوانَ مطلقاً عن تقديم أيّ مساعدةٍ.

ومنذ أن استقررتُ في منزلي الجديد، منح لنفسه صلاحيّة سؤالي عن كلّ أمر وفي أيّ وقت، وأنا استقبلتُ اندفاعه برضا وطيب خاطر. وكيف لا أفعل، وطوال عمري عشتُ أستجدي اهتماماً حتى من نسمةٍ تعبر فيتطاير شعري تحيّةً لعذوبة لمساتها؟!

وفجأةً استحال وخلال فترةٍ وجيزة، حارساً لوحدتي في بلدٍ صار فيه الأمان حالةً نادرةَ الحدوث.

إذن.. هو العم خلدون.

كان الوقت قد شارف على الغروب، عندما اتخذتُ قراراً بالبَوح. ارتديتُ ملابسي سريعاً وتدحرجتُ فوق درجات السلّم فلا وقت لانتظار المصعد. ومع الحماس المتأجّج داخلي، أمسكتُ العم خلدون من يده بمجرّد أن فتح باب بيته وسحبته إلى الخارج وأنا ألهث وأبعثر كلمات غير مفهومة. انسحَبَت الدهشة على ملامحه المتعَبَة، وتمدّدت لتنال حتى من حركات جسده.

احتاج وقتاً غير قليل حتى يلملم ما بعثَرتُه في انقضاضي، وليستعيد قدرةَ التحكّم بشفتيه بعد ارتخائهما في إشارةٍ إلى ذهوله الكبير:

«ما بالكِ آنستي!! هل ثمّة خطب جلل!»..

تنبّهتُ عندها إلى تدفُّقي الغريب وانصبابي كسيلٍ بعد الجفاف. فجمدتُ مكاني ولهيبٌ مستعرٌ ينبعث من وجنتَيّ، وبهدوءٍ مفتعَل توجّهتُ إليه ببعض الكلمات:

«أعتذر عمّي خلدون، لكنّ هناك مسألة ضروريّة أحتاج رأيك فيها.. أنت الشخص الوحيد الذي أثق به. هل الوقت مناسبٌ لذلك؟»..

قهقهات وضحكات مع تصفيقٍ باليدين والرجلين.. هكذا تجلَّت ردّة فعله.وبعد أن استكانَت جوارحه قليلاً، أخذ يمسح دمعَ عينيه بمنديلٍ أخرجه من الجيب، ثمّ وبصوتٍ لا يخلو من العتب المحبَّب قال:

«أبعد أن أيقظتِ غفوتي، وأخرجتيني عنوةً من المنزل، تسألين عن مناسبة التوقيت؟!! كم أنتِ فتاةٌ بلهاء يا آنستي اللطيفة»..

وعاد ليغرق في ضحكاته الهستيريّة.

لا يمكنني، مهما بلغت مؤشرات القسوة أو الاستهزاء في عبارات العمّ خلدون وردوده، أن أحمل له نقمةً أو حقداً. هو بالنسبة لي رمزٌ للطيبة والأبوّة الصادقة، وسندٌ بكل ما تستتبعه الكلمة من معاني السكينة الروحيّة. وهو الشخص الوحيد الذي تمنّيتُه والداً لي رغم وضعه الاجتماعي الصعب ونظرة الازدراء الخاطئة له التي ألحظها في عيون سكّان المبنى ومعظم أهالي الحيّ.

لو استطاع الآخرون قراءة تجاعيده وما بين سطورها، لأدركوا عظمةَ روحٍ تَمنح وقلبٍ يحنو ورجولةٍ تحوي..

ما فائدة أن نحظى بشريكٍ أو قريبٍ أو حبيبٍ يحتلّ مكانةً علميّةً متقدّمة أو يملك ثروةً لا يمكن إحصاؤها في الحسابات العدديّة، وفي المقابل نحيا معه جحيماً عاطفيّاً وحالةً من الهلع النفسيّ؟!!

وكيف يمكننا أن نتقبّل شخصاً بمركزٍ مرموق لكنّه نقيض روحنا، يرى في كلّ تصرّفٍ نسلكُه سوءاً يعكس طباعَه، ويُتَفّه كلّ نبضٍ ورقّة مشاعر؟!!

وإلى أين ستمضي بنا الحياة مع انتسابنا رسميّاً إلى عائلةٍ رفيعة المستوى تحتقر انتماءَنا النوعيّ وتصنّفنا في مرتبةٍ دنيا، بسبب عُقَدٍ استوطنت أفرادها وتراكمات نفسيّةٍ تحتاج عُمراً لتتلاشى أو تجفّ؟!!

العم خلدون، ورغم فقرٍ تغلغل في تفاصيل أيامه، ومعاناةٍ استشرسَت في العبث بأحلامه على بساطتها، إلّا أنّ الله حَباه بفؤادٍ من ياسمين. أحبّ أسرته الصغيرة وعمل لتوفير كل احتياجاتها برضا تامّ، فتنقّل من مكانٍ إلى آخر سعياً وراء رزقه قبل أن يستقرّ في عمله الأخير. جهد كثيراً لينال رضا الجميع واستحسانهم ويحمل سمعةً جيّدة، هي كلّ ما يستطيع أن يتركه من إرث.

وعندما أنجبت له زوجته ابنته الوحيدة، صار يرى العالم من خلال ضحكاتها. لم يكره وجودها ولا حقد على زوجته بسببها، بل احتضنهما كثروة، وراح يفخر بهما أينما حلّ.

العم خلدون هو فعلاً الرجل الذي أتى العالم ليرسم بملامحه الروحيّة معنى الرجولة الحقيقيّة.

***

على المقعد في حديقةٍ صغيرة تطلّ عليها شرفتي، جلستُ مع العمّ خلدون. المكان بسيطٌ ببساطة هذا العجوز ، ورائعٌ بروعة روحه. هناك ما يقارب سبع أشجار وارفة الظلّ صيفاً شتاءً وتحت كلٍّ منها مقعدٌ خشبيّ طُليّ بلونٍ متباينٍ عن الآخر. مساحةٌ عشبيّة تتوسّط المشهد، تحوي نافورة مياهٍ تحيط بها تماثيل حورياتٍ في وضعيّات مختلفة. حائطٌ حجريّ منخفض الارتفاع يسوِّر المكان، يحدّد مساحته، ويمنحه هدأةً وسَكينةً.

وبـالرغم مـن كـون شـرفات الأبنيـة المحيطـة تطـلّ بمعظمهـا علـى الحديقة، إلا أن شعوراً بالخصوصيّة والتفرّد يعتمر النفس بمجرّد الولـوج إليها.

كـل الحمـاس المتـأجّج داخلـي تلاشـى بمجـرّد أن شـرَعتُ بـالكلام. أحسسـتُ بقَيـدٍ يُمسـكني عـن الحـديث، يكمّـم شـفتيّ، ويعيـث خرابـاً في أبجديتي فتتناثر هباء.

وبرغم الجوّ البارد بعض الشيء، أُصبتُ بتعرّقٍ شديد، وغلبنـي شـعورٌ بغثيانٍ مباغت مع وجعٍ نال من معدتي حتى كادت أن تصيبها الشروخ.

لا أدري أهو تعبٌ مفاجئ ما حدث معي، أم هي وسيلة الهروب ذاتُها التي ملَكتني منذ الصغر، وإن بشكلٍ مغاير!!

حاولـتُ قـدر المسـتطاع أن أتجاهـل وعكتـي النفسـيّة وبـدأتُ أسـرد بإيجازٍ للعم خلدون وقائع قصّتي مع آدم منذ اللقاء الأول. في إصغائه بـدا متوتّراً بعض الشيء، لكنه لم يُبدِ أيّ ردّة فعل.

عندما أفرغتُ ما في جعبتي، ظلّ ساكناً وشارداً ما يقارب خمسَ دقائق ممّا رفع مؤشر الحيرة لديّ. لم أشَأ أن أقاطع صمته فبقيت في مكاني أرقب تردّدات احتدامه وأنتظر لحظةَ البَوح.

في انتظاري رحتُ أرتشف الثواني وأغوص في عمق مخاوفي. طرحـتُ ألف سؤالٍ وانتقَيت ألف جوابٍ..

كم أنا في حالة ارتباك!

أرغب فعلاً أن أستمع إلى رأي شخصٍ عميق الفهم بالحياة مثل العم خلدون، وفي توقيتٍ موازٍ أخشى أن يأتيني بكلامٍ يقوّض نظرية عشقي المتفرّد.

أريده أن يكون مرجعي في كلّ أمرٍ أشرع به، فأنا حديثة العهد بالحريّة وقد أفشل في استخدام تردّداتها.. وفي المقابل أخاف أن أضع نفسي في مهب التبعيّة من جديد فأخسر حلم الانعتاق القديم.

عندما بلغَت حيرتي ذروة التوهّج، تنحنح العم خلدون في محاولةٍ لانتشالي من ذاتي الملتبِسة المشوَّشة، وشرَع بالكلام:

«لقد كبرتِ آنستي الجميلة.. لم أشعر بالزمن الذي عبر فكأنّني التقيتُكِ البارحة.. أراكِ أمامي وقد قدِمتِ حديثاً إلى المبنى وأنا أسارع لمساعدتكِ في نقل الحقيبة إلى المصعد..».

نظر في عينيَّ بحنانٍ دافق، وابتسم لي فارتسم وجهه كالقمر رغم عوامل التعرية التي تركها الزمن على الملامح. ثمّ تابع:

«لمحتُ السيّد آدم أمام المبنى أكثر من مرّة. هو فعلاً شابٌ وسيم.. وبطوله الفارع يشبه أحد أبطال مسلسلٍ كرتونيٍّ قديم»..

ما إن نطق هذه العبارة حتى خانتني جديّة الموقف واجتاحي الضحك كزلزال.. وفي انسجامٍ مع حالتي، أخذ يشاركني الضحك حتى لم يبقَ فردٌ في الحديقة إلا والتفتَ نحونا.

انسدل الظلام سريعـًا والعم خلدون يروي لي قصة لقائه الأول بحبّ عمره في منطقة الجبل موطنه الأصليّ، والصعوبات التي عرفها حتى ارتبطا برباط الشرعيّة وصار له زوجةٌ يفخر بها، وما زال يحمل لها في قلبه حبًّا لا يوصف رغم حضور المَشيب ضيفـًا واستيطانه بمرور السنوات.

على قدر سعادتي بهذا البَوح الجميل، إلا أنّ جوابـًا انتظرتُه لم يأتِ. ورغم ذلك لم يُسعفني قلبي لأقطع سيل مشاعر انبثق منه لحظةَ صدقٍ. بدا كالطفل في صفائه وبساطة عباراته ونظراته وحركات جسده التي أتت عفويةً ومُزدانةً بالحماس.

تحدّث كثيراً كالخارِج من معتقلٍ انفراديّ يعتريه شوقُ التواصل والكلام، أمّا أنا بجمودي فبدوت ككرسيّ اعتراف يحتضن قلبـًا ويمنحه الأمان للكشف عن السرّ الخبيء.

تأخّر الوقت كثيراً ونحن على المقعد.. أنا بكامل إنصاتي وهو في ذروة الحنين.. فجأةً انتفض واقفـًا وبدهشةٍ ملحوظة راح يرقب السماء والمكان، ثمّ صدح:

«يا ويلي.. لقد حلّ الظلام دون أن أتحدّث بالمفيد.. لماذا لم تنبّهيني آنستي؟ أعتذر.. أعتذر»..

ومن شدّة ارتباكه راح يجثو على المقعد ثمّ يقف مرّات متكرّرة، فكأنّ مسّـًا كهربائيـًا صعق هدأته، أو كأنّ قلقـًا انسرب بين أوردته فالتهب كبركان..

«لا داعي للاعتذار عمّي.. سعدتُ كثيراً بحكاية عشقك الطيّب.. وكم أتمنّى أن أحظى برجلٍ يحبّني بطريقتكَ وأسلوبك!»..

بمجرّد أن صرَّحتُ بهذه العبارة، حتى أتاني جوابُه صادمًا:

«أتعتقدين أن السيّد آدم قادرٌ على ارتكاب هكذا حبٍّ دون أن يمسّ بصفاء روحكِ؟».

يا إلهي كم أوجعني هذا السؤال، وجعلني في حالة اضطرابٍ عظيم! هل عليَّ أن أستنبط من كلامه أنّ آدم لا يليق به لقب الحبيب المؤتمَن على الروح؟!

أصابتني الرعشة ورحتُ أرتعد، فضممتُ يديّ في وضعيّة احتضانٍ للذات، وقبل أن أستدير لأغادر، هَمهَم العم خلدون وبصوتٍ منخفض قال:

«غداً صباحًا سأُحضر إليكِ خبزاً طازجًا من صنع زوجتي.. فلنغادر الآن وسيكون لنا موعدٌ لن أُخلفه بإذن الله»..

عندما فتحتُ باب المنزل شعرتُ بانقباضٍ شديد، ورحتُ ألوم النفس على ضعفها أمام كلّ مفترقٍ حاسم. لو كنتُ أملك ثقةً بما أريد لمضيتُ في قراراتي دون أن أقع في فخّ التخمينات.. ولو أنّ جدّتي لم تهجر انتظاراتي لحسَمَت ضياعي ببضع كلمات تبثّها في زيارةٍ خاطفةٍ للأحلام. لكنّي ضعيفةٌ بكلّ ما تحمله الكلمة من معاناة، ووحيدةٌ لدرجة الهذيان.. نعم أنا وحيدة.

***

مع اختلائي بالذات في غرفتي بنفسجيّة النبض، عاودني الهذيان.. فأخذتُ أطوف من هاجسٍ إلى آخر، وأطرق باب الحيرة لألج باب الشرود. تمنّيتُ لو يطول الليل فتطغى الحُلكة وتتمدّد حتى لا تترك فسحةً للنور فينسرب منها.

تحت جناح العتمة سأُسهِب حتماً في الوساوس، لكنّي سأبقى في مأمنٍ بعيداً عن صدمةٍ قد تودي بحلمي نحو المستحيل. ليت العم خلدون يغرق في انشغالاته غداً وينسى وجودي، سأغدو في ذروة البهجة وأكون في غاية الامتنان.

أشعر أنّه سيأتيني بما لن أُطيق احتمالَه، وسيدفعني للعودة إلى عزلتي بعد أن فتحتُ نافذةً صغيرةً أستقبل منها عذب النسمات وأحتضن أرقّ التغريدات..

أهو الهروب من واقعٍ محتوم، أم محاولةٌ عقيمةٌ لتدوير الزوايا واللعب على أوتار الزمن المنسرب؟!!

فجأةً تسلّلَت إلى خاطري صورة أمّي..

ما أخبارها؟! أتراها سعيدةٌ بخيار ارتباطها الثاني، أم أنها وقعت من جديد في دوّامةٍ وإعصارٍ وطوفان؟!!

كم أخشى أن أُجاريها في سوء الاختيار، وأمضي حياتي داخل أسوارٍ وأغلال، بدل الانطلاق حرّة في فضاء سعادةٍ انسربَت من أيامي لأكثر من

عَقدين! ولا أستطيع أن أتخيّل وجودي مع رجلٍ يحمل جينات البشاعة الروحيّة التي امتاز بها أبي.

بالتأكيد عليّ التريّث قدر الإمكان، وعدم الفرار من مواجهة حقيقةٍ قد لا ألمح تجليّاتها بنفسي لكن يراها الآخرون بسطوع الشمس.

مع ترددات هذه الكلمات غفوت، ولم أصحُ سوى في ساعات الصباح الأولى على وقع مطرٍ غزيرٍ أخذ ينقر زجاج النافذة ويفتك بهدأة المكان.

البرد الذي تسلّل البارحة تجلّى اليوم مضاعَفاً، فتغلغلتُ في سريري أكثر. حالتي هذه أعادت إلى ذاكرتي ما كانت تقصّه لي جدّتي عن ليالي الشتاء الجبليّة التي عايشَتها في سنوات طفولتها الأولى..

قالت جدّتي مِراراً إن شتاء الماضي يختلف عنه في أيامنا الحاضرة. بات يأتي ويرتحل دون نكهة حُبٍّ وطعم نشوةٍ وانعتاق.

وصْفُ جدّتي لليالي الشتاء الجبليّة حمل إلى قلبي عشقاً لموسم المطر، ومنذ توقيت حكاياها بتُّ فتاة البنفسج التي تهوى الهطلَ والأعاصير.

من الوقائع التي سردَتها عليّ وتركت بصماتها على جدار الروح، ذاك النهار الغائر في النسيان في قريةٍ جبليّة شبه منسيّة حيث وُلدَت وعاشت زمناً جميلاً..

يومها ظلّ الثلج يتساقط بغزارةٍ ليتراكم فوق السطوح والنوافذ، على العشب وأوراق الشجر، وبين أروقة الدروب العتيقة. وجدّتي الطفلة

الهادئة تقبع أمام مدفأة الحطب في بيت جبليّ يكلّله قرميد أحمر بات أبيض بعد أن كساه الثلج.

البرق الشديد راح يضيء السماء بوهجٍ تظن معه أن النهار تجلّى وباشر بالامتداد. في ذلك اليوم توقّف تساقط الثلوج عند المغيب لتبدأ بعدها الأمطار تنهمر سيولاً أشبعت الأرض وصارت تفيض حتى باتت كنهرٍ جارفٍ يسحب معه كلّ جسم عابرٍ أو مستقرّ.

في جلوسها قرب المدفأة راحت جدّتي تستمع لوَقع المطر فوق سطح البيت عندما أثار انتباهها ضجيجٌ في الخارج وطرقٌ خفيفٌ على الباب الخشبيّ القديم. وحدها في الغرفة، صارت ترتعد وتنادي والدتها التي غابت منذ ساعات في «القبو» مع الجارة حيث غرقتا في تحضير مؤنة «المخلّل» على أنواعه بدءاً من صناعته وصولاً إلى رصفه في أوعية زجاجيّةٍ محكَمة الإغلاق، بعد إضافة كميّات من الملح تساعد في الحفاظ على جودته مدّةً طويلة. عمليّةٌ تأخذ وقتاً طويلاً، وهذا ما لم تحتمله جدّتي ففضلت البقاء بمفردها قرب الحطب المشتعل تلهو بدميةٍ قماشيّةٍ أهداها لها والدها في عيد ميلادها الأخير.

والدها كان رجلاً كادحاً وكعادته غائباً عن البيت بسبب عمله كحارس لدى «خواجة الضيعة»، فحضوره نادرٌ إلى المنزل ومحدّدٌ بأعياد ومناسباتٍ معيّنة.

إذن حائرةً وقفَت جدّتي ترتجف خوفاً، دون أن تنجح النار المتّقدة في تخفيف رعشة قلبها والجسد. تقدّمَت نحو الباب وأنصتَت لتكتشف حفيفاً وخربشات مستمرّة، فما كان منها إلّا أن فتحت الدفّة الخشبيّة المهترئة لتلمح قطّةً صغيرةً قرب العتبة. انحناءةٌ صغيرةٌ من جدّتي في محاولةٍ لإمساكها كانت كفيلة بابتعاد القطّة ووقوعها أسيرةَ سيلِ المياه الجارف. صرخت جدّتي وأسرعت لإنقاذ هذا الكائن الصغير، وفجأة التمعت السماء بشدّة وشيءٌ ما يشبه الصاعقة ضرب الشجر الماثل أمامها فاشتعلت النيران في الجذوع، وصارت تتمدّد من غصنٍ لآخر.

بدا المشهد مأساويّاً.. جدّتي مستلقيةٌ على الأرض والأمطار تنهش جسدها الصغير. وغير بعيدٍ عنها لهيبٌ من النار المستعر يكاد يصل إليها..

من حسن حظّها أن والدتها اضطرت للخروج من القبو لإحضار بعض اللوازم لتكتشف الحادث وتسرع لإنقاذ صغيرتها والنداء لأهالي القرية الذين حضروا سريعاً وساهموا في إخماد الحريق.

حادثةٌ استوطنَت ذاكرتي وصارت تَرِدُ دلوَ أفكاري كلّما أمطرت وبَرَقَت واشتدّ العصف والصقيع.

أنا أيضاً لي مع المطر ذاكرةٌ لا تغيب، وتتردّد في البال كلّما أصابتني وعكةٌ أو اشتدّ بي التعب.

هي ليلةٌ مطيرةٌ من أيام المدرسة الداخلية، عانيتُ فيها من حمّى شديدة صفعَت جسدي وأردَتني في خمودٍ تام لمدّة أسبوع. كنت أنفّذ عقوبة أوقعتها عليّ السيّدة جلجل لذنبٍ لم أقترفه كالعادة، وفرضت عليّ التزام الغرفة وعدم التعاطي مع أيٍّ كان. وعندما مرضتُ لم يلتفت إليّ أحد ورحتُ أصنع كمّاداتي بنفسي وأتناول أدويتي في مواعيد غير منتظمة، حتى أنّي اضطُرِرتُ للذهاب إلى المطبخ عند كلّ وجبة لإحضار طعامي وتناوله في الغرفة.

وقتذاك، وبسبب حرماني أيضاً حتى من دخول المكتبة وغرفة الموسيقى تسلّلتُ إلى الحديقة ليلاً برغم حرارتي المرتفعة وتحذيرات السيّدة جلجل لي بعدم تخطّي حبسي الاجباريّ. كان المطر شديداً والبرد القارس اخترق جلدي ليستقرّ بين العظام. لم أعثر في الحديقة على مكانٍ أختبئ تحته من المطر، وفي الوقت عينه لم أرغب بالعودة إلى الغرفة فبقيتُ مكاني أنتقل من تحت شجرةٍ إلى أخرى والمطر يكسوني من رأسي حتى أسفل قدمَيّ حتى غِبتُ عن الوعي.

لا أعرف لمَ قسَت عليَ السيّدة جلجل بطريقةٍ غريبة لمدّة سنوات، رغم أنها أبدت لي محبّةً كبيرة قبل مغادرتي المدرسة فدفعني سلوكها الطيّب إلى تناسي كلّ سوءٍ اجترحَته بحقّي!

والآن متغلغلةٌ أنا تحت الغطاء أُنصت لضجيج المطر الخارجيّ، وأحاول قدر الإمكان تجاهل صخبي الداخليّ. أدرك تماماً أنّ ما يجول

في البال شائكٌ ولن يستكين بسهولة، لذلك أحاول أن أجمع صوراً من هنا وحكايا من هناك حتى لو كانت حزينةً وتمسّ أحداثًا أرغب نسيانَها، عَلّي أغرق في تفاصيلها وأرتحل في إغفاءةٍ صغيرةٍ ريثما يحين موعدي مع القدر.

***

عندما صحوتُ باكراً كان المطر لا يزال يتراقص على حافّة النافذة متقصّداً إغرائي للبقاء في السرير. بإمكاني طبعًا الاستسلام لتحريضه باعتباري في إجازة من العمل لمدّة أسبوع، لكنّ الوقت تقدّم والعم خلدون سيحضر قريبًا تنفيذاً لوعده. إذاً عليّ أن أنهي استعداداتي الصباحيّة سريعًا، وهذا ما كان..

في الصالة جلستُ أنتظر وقلبي كعقرب ساعةٍ يمضي ويعود، ومع كلّ حركةٍ شيءٌ من سكوني يتآكل.

عادةً يغافلني الوقت وأجدني في تأخير مستمرّ، إلا اليوم أراه متجمّداً، أحاول تحطيم لِحاظه فيأبى أن يستجيب.. وها هو يكابر في مكانه فيعاندني ويمتنع عن الرحيل. شعرتُ به طفلاً خائفًا متشبّثًا بفستاني خشيةً من مجهولٍ أو فَقدٍ أو ضياع.

كما دأبتُ أن أفعل في كلّ مرّة أطلب فيها العم خلدون ليساعدني في شأنٍ ما، فتحتُ باب الخروج واستقرّيتُ أنتظره في الصالة.

إغفاءةٌ صغيرةٌ على مقعدي أخذَتني إلى عالم ضبابيّ الرؤية رأيتُني فيه أركض في مكان بلا ملامح وألهث في هروبي من أمرٍ لا أعلمه. فجأة شيءٌ ما أمسكني من الخلف فرحتُ أستغيث بشدّة وصحوتُ على صرخةٍ نفذَت من أعماقي، فكأن ما حدث واقعٌ لا لَبسَ فيه.

رحتُ أرقب ساعة الحائط فإذا بها السابعة والنصف..

أمر غريب، في العادة يأتيني العمّ خلدون محمّلاً بخبزه الطازج قبل هذا التوقيت بكثير!!

لا بدّ وأنه تأخير مقصود..

ربّما في جعبته كلامٌ ثقيل الحروف يخشى على قلبي من قسوته، لكنّه لا يعلم أنّي، وبعد ليلةٍ طويلةٍ من الأخذ والردّ مع الذات، بتُّ على استعدادٍ لتقبّل كلّ احتمال حتى وإن أنهك الروح والجسد.

حوالي الساعة الثامنة تراءى العم خلدون أمام الباب محمّلاً بالعديد من الأرغفة الطازجة. قدّم اعتذارات عن تأخيره تحت ذريعة تباطؤ زوجته في إنجاز «الخبيز».

هي المرّة الأولى التي أسلُكُ فيها كصبيّةٍ ناضجة عند رؤيتي للخبز الطازج.. لم أُهَلّل، لم أتقافز، ولم أرسل سيلاً من كلمات الشكر والتقدير!!

على العكس من ذلك، اجتاحني شعورُ غثيانٍ جارف مع انقباضٍ شديدٍ في المعدة. حاولتُ أن أفتعل حالةً طبيعيّة وأتذوق قطعةً ساخنة،

لكن دواراً أمسكني كدتُ بعده أن أهوي، لولا أن تدخّل العم خلدون فحالَ بيني وبين الوقوع.

العم خلدون قد يكون جاهلاً بمفهوم الشهادات العلمية، لكن خبراته الحياتيّة تجعله قادراً على فهم الكثير من القضايا التي قد تستعصي على سواه. لهذا، وبمجرّد أن رآني في حالتي المضطربة تلك، استوعب ما يعتريني من تشوُّشٍ نفسيّ فوضع الخبز جانباً وراح يمازحني ويتضاحك في محاولةٍ لتخفيف مؤشر التوتّر لديّ.

وعندما سكَنَت انفعالاتي قليلاً، دعاني للجلوس بادئاً الحديث:

«سبق وأخبرتكِ آنستي أنّ لا شيء في هذا العالم يستحقّ القلق والحزن.. نحن من يملك مفتاح سعادتنا فإما أن نستخدمه بطريقةٍ صحيحة لنفتح طاقة الأمل، أما أن يكون البؤس هو ما ينتظرنا.

لن أُتعبَكِ وأطيل الكلام.. البارحة لجأتِ إليّ لتأخذي برأيي في موضوع علاقتك بالسيد آدم، ولكي أكون على قدر الثقة التي منحتِها لي أخذتُ وقتي في التفكير. كل الأمور التي أخبرتني عنها تدلّ على أنّه رجل محترم ، يهتمّ بعمله ويعتمد على قدراته في تطوير ذاته.. لكنّي فعلاً أخشى أن حياتَه المرفّهة السابقة في أميركا قد تركت أثراً في نفسه، وفي الغالب هذا ما حصل. وبنتيجة ذلك قد لا يكون معَدّاً لمواجهة الصعوبات الحياتيّة التي قد تعترضه هنا خصوصاً في ظلّ الوضع الاقتصادي الرديء الذي أدّى إلى إقفال الكثير من المؤسسات. لا بدّ وأنه بدأ يختبر ذلك مع

التراجع في عائدات مطعمه.. آنستي أنتِ بحاجةٍ إلى سندٍ فعلّي تتّكئين عليه في الأزمات وليس فقط في زمن النجاحات. وهذا سيظهر مع الوقت، فلا أحد يتمكّن من لعب دورٍ لا يليق به طوال الوقت.. لذلك، كوني بخير يا ابنتي وامضي في طريقكِ، لكن الحذر مطلوب وأنتِ لا تفتقدين للذكاء في تحديد الخطأ والصواب.. ثقي بنفسكِ أكثر، وستكونين بخير..»..

أنهى العم خلدون كلماته واستدار مغادراً دون أن يترك أمامي فرصةً لأيّ تعبير أو انفعال أو ردّة فعل.. غادر مغلقـاً خلفه الباب، ماسحـاً عن قلبي عبءَ أفكار نالَت من صفائي منذ ليل البارحة، وأفسح المجال لسحابٍ عابرٍ كي يظلّل ضعفي ويمطرَني قطرات ثقةٍ بالنفس لطالما تمنّيتُ حضورَها.

إذن هواجسي التي أخضعتني لعوامل التعريّة الروحيّة فتآكَلَت راحتي لدرجة الهذيان، كانت كلّها مجرّد سرابٍ ابتكره ذهني المنهَك منذ دهرٍ وفَقد.. شعرتُ بهدوءٍ ينسكب داخلي ويسري مع الدّم في أوردتي ليتغلغل في المسامات. على أثر ذلك، أصِبتُ بنعاسٍ سلبني كلّ طاقةٍ وقدرةٍ وشعور، فانسرَبتُ إلى غرفتي وتحت الغطاء تقوقعتُ في وضعٍ جنينيّ.

رأيتُني في تلك الغابة البعيدة، حيث الأشجار الكثيفة والأغصان المتشابكة وأصوات الطبيعة التي تنفذ في الصميم. وأنا أمشي بفستاني البنفسجيّ، ذاك الذي خاطَته لي جدّتي وارتديتُه يوم ميلادي السادس. بات ضيقاً، ولكن لا بأس في ذلك. صرتُ أخطُر على العشب حافية

القدمين والتربة الرطبة تندسّ بين أناملي لتصيبني بنشوة دون أن تسبّب أيّ إزعاج لانسيابي بين ثنايا الحلم.

هتافات بعيدة راودت مسمعي، وصارت تقترب لتصبح أكثر وضوحًا، وإذا بالأقزام السبعة يسارعون الخطى نحوي وكأنّهم يعرفون من أكون.. سبق والتقَيتُهم في زمنٍ مضى وحلمٍ انقضى. أذكر أنهم كانوا إخوةً لي يتقافزون حولي في قمّة السعادة.. لكنّي الآن أعرف أنهم مجرّد أصدقاء يأتون لبعثرة همومي وإعادة ثقتي بعالمٍ قد يكون خسر الكثير من براءته.

سعدت بهم ورحتُ أستمع لقصصهم المبهرة وأغوص في عوالمهم السحريّة حتى وصلتُ إلى ذروة السكينة والرضا.. ثمّ، ودّعتهم بابتسامة وقبلات ورجعتُ هانئة إلى سريري ووسادتي ووَضعي الجَنينيّ.

***

الفصل الرابع عشر

انقضى ما يزيد على ثلاثة أعوام منذ أن غادرتُ القصر الجبليّ الكبير للسيّدة إلهام واستقرريتُ في منزلي الصغير حيث أُتيح لي نوعٌ من إعادة تأهيلٍ نفسيٍّ، نفض عن روحي بعضاً من تراكماتٍ سلبيّة تكدّست على مرّ السنوات.

زمنٌ قصيرٌ يفصلني عن الامتحان النهائيّ الذي سأخوضه في حياتي الدراسيّة لأنال شهادتي وأنطلق إلى عالم الأعمال، فأنخرط في تجربة الترجمة التي تمنّيتُها وسعيتُ إليها منذ البداية.

زواجي من آدم تقرّر بمجرّد أن أُنهي فترة الاختبارات. سعيدةٌ أنا بحياةٍ جديدةٍ تنتظرني، وبمستقبلٍ بدأتُ أرسمُه بنفسي وأقرّر فيه دون أن تُفرَض عليّ تفاصيله. ولكن، عليّ أن أعترف أنّ ثمّة ما يعكّر بهجتي، يثير مخاوفي، ويقضّ مضجع أحلامٍ كثيرةٍ لطالما راودت الخيال..

نعم، ما زلتُ أفتقد الثقة بالذات!!

أخشى أن يكون مسار طريقي الذي اخترتُه غير صائب.. أخاف أن يعاندَني القدر فتمتلئ جعبتي بقصص الوحدة والفَقد من جديد.

كما أنّ عُزلتي ما فتئت تغازلني باستمرار، فألتجئ إليها على حين بغتةٍ تاركةً خلفي عالماً يضجّ وحكايا غُزل بين ثناياها نسيجُ عنكبوت.

لستُ من أولئك البشر الذين يُتقنون صناعة سعادتهم بأيديهم، بل على العكس من ذلك أراني أستخرج من كل فرحٍ حزناً ومن كل سكينةٍ قلقاً.. أتوجّس من الضحك وأرى فيه إشارةً إلى سيئ قد يأتي، وشجنٍ قد يمتدّ عمراً من الدموع.

في الآونة الأخيرة، صار العمّ خلدون يناديني بـ«العروس». ولأن الهواجس تجاه فكرة الزواج باتت تصارعني كلّ لحظة، رحتُ أهرب من ظلاله وأؤجل مشاريع تتطلّب عوناً منه، وإذا حدث والتقيتُه في أيّ مكانٍ أسارع إلى تقديم اعتذارات وأغادر حتى لا أترك أمامه فرصةً ليستفهم حول أيّ أمر.

لستُ مذنبةً في كلّ ذلك..

ظروف حياتي التي عايَشتُها لم تكن يوماً اعتياديّة. وبرغم كلّ ما عبَرني من خيبات ما زلتُ أحاول لأكون تلك الوردة الجوريّة التي تمنّتها جدّتي.. لا أريد أن أخذلها، فهي لم تفعل قطّ.

لكنّي عاتبةٌ عليها!

منذ وفاتها لم تتركني لضعفي مطلقاً.. رافقَت خيباتي، ذلّاتي، وأوقات بهجتي النادرة. وفي كلّ ذلك كانت القلبَ الناصح الحاضن والأمين.

ثمّ، على حين عشقٍ اجتاحني، تلاشَت!

ما عادت ترتادني في وحدتي، ولا تتفقّد ارتباكي وحيرتي. رسائلُها لي التي اعتدتُها في شكل حلمٍ أو طيفٍ أو فكرة، غابت فتوقّف ساعي البريد عن المرور بي.

التساؤلات كثيرة وجميعها مبهَمة الإجابة. أنطلق منها لأعود إليها من جديد خاليةَ الوفاض من أيّ فَهمٍ أو تفسير.

واليوم، بعد أن شارَفتُ على تخطّي أولى عتبات الأنوثة، صرتُ أحتاج حضورَها أكثر، فلا أحد يستطيع أن يأخذ مكانها كسندٍ، وإن تراءى ذلك في الخيال فقط.

ورغم انشغالي بالدراسة والامتحانات، إلّا أن ذلك لم يكن كافياً لبَعثرة ارتيابي الذي أخذ يتمدّد حتى كاد يملك مني الفكر والوجدان. منذ ما يقارب العام تركتُ عملي كعازفة بيانو في مطعم «حوريّة البحر»، هكذا تمنّى عَليّ آدم طالباً منّي الاهتمام بدراستي أكثر حتى أضمن نجاحاً وتفوقاً ممّا يتيح ارتباطنا دون تأخير. ورغم الغياب الكامل لقناعتي بوجهة نظره، إلّا أنّني لم أُرِد أن أعارضه خصوصاً أن عملي لم يرتبط مطلقاً بأيّ حاجة، ولم يكن سوى شكل من أشكال التسليّة وقتل الملل لا أكثر.

إذاً، في هذه الفترة سأتفرّغ كليّاً للدراسة ولن يشغلني شيء، حتى موضوع الزواج لن أعيره بالاً فلا تحضيرات مسبقة ولا أيّ استعدادات، باعتباري لن أقيم حفل زفاف ولن أرتدي فستاناً أبيض كما تتمنّى معظم الفتيات، فالمسألة لا تعنيني مطلقاً.

كلّ التجمُّعات والاحتفاليات تشعرني بالغثيان، حتى أعياد الميلاد أبَيتُ منذ الصغر حضورَها. تفضيلي للوحدة دفعني إلى أن أرقُب سَكَنات الناس من بعيد، سلوكياتهم، وردّات فعلهم وألمح في تصرّفاتهم تناقضاتٍ تضرب جذور قناعاتٍ يعلنونها للملأ، فحمدتُ الله كثيراً على عُزلةٍ جعلني أتقبّلها بل وأرتاح فيها بعيداً عن أذيّتهم التي قد تتضاعف بمجرّد تغلغلهم في تفاصيل أيامي وهواجسي.

وما أسعدني أنّ آدم لم يعارضني أو يُبدِ تأفّفاً من رغبتي، بل بدا مرتاحاً لقراري خصوصاً أنّ جميع معارفه يقيمون في الخارج.. هكذا أخبرني فحمل إلى قلبي السكينة.

حاولت مراراً أثناء لقاءاتنا المستمرّة أن أدفعه للتواصل مع والديه عبر الإنترنت، فأتعرّف بهما وأحادثهما وأبني شكلاً من أشكال التواصل الايجابيّ بيننا وجسراً متيناً قد نضطر إلى عبوره يوماً. لكنّ الرفض بدا سيّد الموقف في كلّ مرّة، تحت حجّة اختلاف التوقيت أو الحاجة إلى تمهيدٍ مسبق بسبب الخلاف بينه وبين والده الرافض أصلاً لإقامته في بلد آخر، وإن كان موطنه الأصليّ.

هذه المسألة أرّقَت منامي، وشغلَت تفكيري لأيّامٍ وشهور.. قد تكون حُجَجُه صحيحة، لكنّ صوتاً داخليًّا ظلّ متمرّداً ومحرّضاً لتساؤلاتي. فكأنّ ثمّة خبيئة لا يريدني أن أطّلع عليها، أو ربّما يفضّل إقصائي عن أهله وأقاربه لسببٍ ما!!

هل حكايتي التي بات يعرف أدقّ تفاصيلها هي السبب؟!! أتراه يخجل البَوح بها أمام الأهل فيَلقى اللوم منهم على خَياره؟!!

أتراهم لو عرفوا، سيطلبون منه الابتعاد عن فتاةٍ نبذها أهلها وتنازلوا عن مسؤولياتهم إزاءها؟!!

قد لا أكون الزوجة التي يحلمون بها لابنهم الثريّ الوسيم!! أو أنّهم أصيبوا بنفورٍ منّي بسبب ظنونٍ اعترتهم حول كوني السبب في انفصال آدم عنهم، سفره، واستقلاله بنفسه!!

كميّة الأسباب التي راودتني وحمَّلتُ فيها ذاتي السبب في ما يحدث، أنهكَتني.. لذلك، ذات قرار، لفَظتُ هواجسي جانباً وحاولتُ قدر المستطاع أن أجمع شتات روحي وأفكاري وأُهدي ذاتي هُدنةً من كلّ ما قد يعكِّر صَفوَ نبضها..

***

اليوم كنتُ على موعدٍ مع المادّة الأخيرة التي أنجزتُها بعد طول عناء. وها أنا قد تجاوَزتُ الاختبارات على خير والحمد لله رغم ما كابدتُه من توتّرات وتوقّعات بائسة. لأوّل مرّة أخوض امتحاناتي الجامعيّة وأنا في قمّة التوتّر.. واثقةٌ أنا من معارفي ومراجعاتي التي أنجزتُها، لكنّ الغامض الذي ينتظرني فيما بعد هو ما بات يشدّني نحو الوساوس.

والآن أقف على عتبة المصير!

غداً سأنتقل إلى منزلي الزوجيّ، بيت آدم الصغير الذي يملكه في منطقة جبليّة قريبة من العاصمة. اتّفقنا معـاً على بيع شقّتَينا بعد الزواج وشراء واحدة كبيرة في منطقة نختارها فيما بعد، تضمُّنا مع أولادنا المستقبليين.

على قدر توتّري، أنا سعيدة..

أعيش تقلّباتٍ مزاجيّةٍ غريبة، لا أفهمها ولا أستطيع التعبير عنها لكنّها تشبه إلى حدٍّ كبير تلك التي تصيب بعض المرضى النفسيين الذين قرأتُ عنهم. أدرك أنّ شيئاً غير اعتياديّ ينتابني ويجعلني في حالةٍ من الإنهاك الروحيّ والخوف غير المبرَّر.

كانت الساعة قد اقتربَت من الثامنة مساءً، وأنا أجلس وحيدةً منذ وقتٍ مبكّرٍ في الصالة أرقب النوافذ والجدران وأتطلّع إلى الشرفة من خلف الستائر المُسدَلة دون أن أجرؤ على الخروج إليها. هي ليلتي الأخيرة في هذا المكان الصغير الذي زيّنَته أناملي وضمّني كحضن أُمّ. وردتي الجوريّة التي أهداها لي العم خلدون سأصطحبها معي، فهي كلّ ما سأحمله من هذا الركن الذي احتواني كما لم ولن يفعل ما يُسمّى منزل أبي.

طرقاتٌ قويّةٌ على الباب سحبَتني من حالة الحنين التي كُنتُها وأجفَلَت غَفلتي عن الواقع . ارتبَكتُ كعادتي، وسارعتُ لأفتح فإذا بزوجة العمّ خلدون تقف عند الباب وفي يدها كيسٌ كبير وخلفها تختفي بخجلٍ ابنتُها التي لم تزُرني مطلقاً طوال مدّة إقامتي في المنزل.

رحّبتُ بهما وعلامات الاستغراب ترتع بين نظراتي، ثمّ دخلنا إلى الصالة وقلبي قطعةُ جَمرٍ من توتّرٍ وغموض.

جلست «سعديّة» زوجة العم خلدون على سجادة الصالة وقربها تربّعَت ابنتُها «زليخة» بتوترٍ ملحوظ. حاولتُ دعوتهما لتغيير المكان إلّا أنهما أصرّتا بحجّة اعتيادهما على الاستراحات العربية التقليديّة.

لم تتركني «سعديّة» أختال في حيرةٍ مدّةً طويلة، بل بادرت بالحديث:

«أخبرني زوجي أنّكِ ستغادرين المبنى غداً وستنتقلين إلى منزلكِ الزوجيّ.. لذلك أحببتُ أن آتي لتوديعكِ مع ابنتي ولأخبركِ أنّنا فعلاً أحببناكِ كثيراً لأنكِ طيّبة ومتواضعة ولم نلقَ منكِ سوى حسن معاملةٍ لم نعتَدها من سواكِ..

قلتُ في سِيرّي أنه لا يمكن أن تتزوج بنت الأصول وندع الأمر يعبُر بشكلٍ اعتياديّ.. لذلك أحضرتُ معي «الدربكة» فأنا ماهرةٌ في العزف عليها وابنتي ترقص بشكلٍ جميل.. سنُبهركِ آنستي ونجعل هذه الليلة من أجمل لحظاتك معنا»..

وقبل أن أصحو من دَهشتي، أخرجت «سعديّة» الـ«دربكة» من الكيس ووقفت زليخة خالعة منديلها عن الرأس، شدّته فوق خصرها..

وبدأ احتفالٌ بهيج.

صدحَت «سعديّة» بصوتها الشديد وأناملُها في نفس الوقت تتراقص على الـ«دربكة»، وأمامها «زليخة» تتمايل وتصفق، تهبط وتعلو، تهزّ الأكتاف

وتطرق بالقدمين على الأرض في مشهدٍ فريد لم أُعايِنه من قبل. راقَني كثيراً ما بدأتُ أشاهده فاسترخَيتُ على الكنبة وسرحتُ في عَرضٍ مثير.

الأغنيات التي أنشدَتها «سعديّة» ذكرتني بأهازيج جدّتي الجبليّة، وبعضها شدّني في العمق وحملني إلى البعيد حيث أشجار الصنوبر والسنديان و«ساقية» المياه المنحدرة ومشهد الجبال الممتدّة ببياضٍ يُكلِّل قممها.

في جلوسي، سارَت أمامي القطعان مع رعاتها، وامتدت البيادر بسنابلها الذهبية، وعبرَ رجال القرية بـ«الشراويل» وهم يحملون «الزوادة» ويتّجهون نحو الأرض لحرثها أو بذرها أو جني المحاصيل.

رأيتُ النساء يتجمَعنَ حول «التنور» للخبيز، ومجموعة فتيات يرتدين العباءات المزخرفة يحملن الجِرار ويقِفنَ في انتظار دورهنّ قرب نبع المياه الباردة المتدفّقة من أعالي الجبل نحو القرية القابعة أسفل الوادي.

من ضمن الأهازيج التي ردّدتها «سعديّة» أغنية أحبّتها جدتي كثيراً ومن كثرة ترديدها لها أحببتُها وحفظتُها وصرت أعزفها على البيانو بحرفيّة.. هي أغنية الضيعة للسيّدة صباح. وما إن بدأت بها سعديّة حتى أخذتُ أجاريها بنبرةٍ منخفضة وشيئاً فشيئاً ارتفع صوتي ليتفوّق على أيّ صوتٍ آخر:

«عالضيعة يمّا عالضيعة ودّيني وبلا هالبيعة

جينا نبيع كبوش التوت ضيعنا القلب ببيروت

يا شماتة شـــباب الضيعة

عالضيعة يمّا عالضيعة يمّا

لمين بدنا نحكي قصتنا يا مصيبتنا ويا جرصتنا
هالشب اللي سبب لوعتنا بايع قلبو طْنَعشَر بَيعة
جينا نبيع كبوش التوت ضيعنا القلب ببيروت
يا شماتة شـــباب الضيعة
عالضيعة يمّا عالضيعة يمّا»..

أهزوجةٌ بعد أخرى، و«سعديّة» لا تكل ولا تتعب بل تزداد حماساً. أمّا «زليخة» المسكينة فراحت ترقص دون توقّف والعرق يتصبّب من جبينها، فكأنّها تخشى إن هي ارتاحت أن تضيع البهجة من الاحتفاليّة وأُصاب بخذلان كبير.. حاولتُ كثيراً أن أدعوها للجلوس بإشارات بعثرتُها لها لكنها أبَت وبحزمٍ وصارت تزيد من وتيرة اهتزازها حتى ظننتُها ستهوي أرضاً.. لكنّها لم تفعل.

انقضَت الساعات وأنا في قمّة النشوة، أبعثر حيرتي هنا وهناك وأستنشق عطرَ سكينة بدأت تنسرب في أعماقي بعدما افتقَدتُها لدهر..

كم هي طيّبةٌ عائلة العم خلدون! كلّ أفرادها ينبعث من روحهم بخورٌ معتَّق وخلاصة ضوعٍ لم أعهد له مثيلاً من قبل.

***

ستّة شهورٍ انقضَت وأنا أعيش مع آدم حياةً أشبه بقطعة سكّر. بدايةً انتقلتُ معه إلى منزله الصغير، وبعد فترةٍ وجيزة تمكنّا من بيع شقّتينا وشراء أخرى واسعة لطيفة الإطلالة، في منطقة جبليّة فاتنة.

المبنى حيث نسكن حديث البناء وتحيط به حديقةٌ مزهرة وارفة الظلال. تضمّ العمارة ثلاثة طوابق في كلٍّ منها شقّتين.

في الشقّة المقابلة لنا تقطن امرأةٌ عجوز تكاد، من هدوئها، تظنّ المكان فارغاً من أيّ حياة..

وُجودُها بدا مُبهماً!

لا أحد يزورها ولا هي تفعل.. أراها دائماً تجثو على كرسيٍّ هزاز مستقرٍ على الشرفة تغزل الصوف أو تخيط بعض الملابس.

لم أُقِم أيّ علاقة معها، رغم أن وجودي على الشرفة يجعلني ألتقي بنظراتها الحزينة في أحيانٍ كثيرة.

حضورُها يشبه بسكونه وشروده ووَحدته طيف سيّدة القصر.. حتى شجنُها يبدو بملامح متماثلة.. أنا متأكّدة أنّها ليست وحيدة، وربّما لديها أولاد كُثُر، لكنّهم بالطبع مشغولون عنها بمشاريعهم وحياتهم وأنانيّتهم - كحال السيّدة إلهام – ويرتقبون نهايةً لخفقها حتى يسارعوا إلى تقسيم الإرث الذي يستحق ارتداء لباس الشرّ، بمفهومهم.

تعيش جارتي العجوز برفقة خادمةٍ إفريقيّة تقوم بتلبية احتياجاتها وشراء مستلزماتها، وغالباً ما أصادفها تضع أكياس القمامة أمام باب الشقّة، فتبتسم سريعاً وتدخل مغلقةً الباب بهدوء.

بقيتُ على حيادي في علاقتي بالعجوز إلى أن صادفتُها مرّة من على شرفتي تدخل المبنى بمفردها حانية الظهر من ثقل أكياسٍ تحملها. استغربتُ

غياب الخادمة، لكنّي لـم أملك وقتـاً للتمـادي في الدهشـة فمشـهدها تـراءى كئيباً لدرجة البكاء.

وبحركةٍ عفويّة وجدتُني أقفز درجات السلم، أختطف منها الأغراض وأدعوها للاتّكاء عليّ. دموعٌ ناعمةٌ تسلّلت من بين أهدابها وأخذت تشكرني وتدعو لي بالسعادة والراحة والرزق الوفير وبـ«أولاد حلال» ألتقيهم في كل طريق.

من شدّة طيبتها لمحتُ فيها ظلّ جدّتي، ووددتُ لو أحتضنها وأبكي عمراً من فَقدٍ وحنين.. لكنّني لم أفعل!

أوصلتُها إلى شقّتها، رصفتُ الأغراض في مكانها، وأحضرتُ لها كوباً من الماء لترتوي. وقبل أن أغادرها، شكرَتني مرّات ومرّات ودعَتني لزيارتها من وقتٍ لآخر إن سمحت الظروف لي.

رغم عشقي للوَحدة وابتعادي عن أيّ تواصلٍ مع الآخرين، فلا أصدقاء لي ولا جيران ولا معارف، إلّا أن فكرة زيارتها ظلّت تطاردني وتنهش تفكيري حتى فعلتُ ذلك في يومٍ شديد المطر.

كنت عائدةً من لقاء عملٍ في مكتب ترجمة، ومن شدّة فرحي بالقبول لم أتنبّه إلى المطر الذي بدأ يشتدّ وأنا أسير بين خصلاته بنشوةٍ عارمة.

وصلتُ إلى البيت في حالة يُرثى لها من البلل وجميع مفاصيلي ترتعد كأنّ بها مسّاً كهربائيّا. وقبل أن أدخل شقتي، سمعت العجوز تناديني من باب بيتها.. ودعَتني للدخول عندها.

مسلوبةَ الإرادة توجّهتُ إليها وأسناني في حركتها غير الإراديّة تصدر أصوات طرطقةٍ عالية.

في غرفة الجلوس، قرب مدفأة حطبٍ متقنة الزخارف، جثوتُ بعد أن بدّلتُ ملابسي بمعطفٍ صوفيّ أحضرَته لي العجوز. كوبٌ ساخنٌ ارتشفتُه كان كفيلاً بإعادة الدم إلى مسيرته الطبيعيّة في الأوردة.

الشقّة تراءت أكثر اتساعًا من شقّتنا، ومفروشة بذوقٍ رفيع وإمكانيات ماليّة كبيرة.. التُّحف في كل مكان واللوحات الزيتيّة تملأ الجدران.. حتى الستائر الحريريّة تشبه بانسدالها قصور ألف ليلة وليلة.. في المرّة الماضيّة عندما أوصلت أغراض العجوز كنت في قمّة الارتباك، ممّا حجب عني حتى رؤية المكان.

جلسَت جارتي، واسمها «لطيفة»، وصارت تحكي لي أموراً كثيرةً عن المنطقة والطقس المتقلّب الغريب وظروف البلاد المضطربة أمنيًّا.. وشيئًا فشيئًا دخلنا في حالة انسجامٍ روحيّ، وصار الحديث أكثر حميميّة، فتناول حياتها، عائلتها، وأبناءها الذين غابوا في غياهب المصالح وتركوا حضورَها يشيب ويتيبّس في شبه وحدةٍ لا يكسر صلابتها سوى وجود الخادمة الإفريقيّة المصابة بمرضٍ غريب يُقعدها عن العمل كلّ فترة.

كما توقّعتُ تمامًا.. هي قصّة السيّدة إلهام تتكرّر مع جارتي العجوز، وبتفاصيل تعيسة متشابهة.

لم أنطق بكلمة.. فإضافةً إلى كوني لا أُجيد المواساة، لديّ الكثير من الذكريات السلبيّة الراقدة، التي تستيقظ ذات كآبةٍ لتؤرقَني، فأراني عاجزة حتى عن الشعور.

لم تسألني «لطيفة» شيئًا عن حياتي أو خبيئاتي، وأنا لم أجد نفسي مستعدّةً لذلك.. فآثَرتُ الاستماع والصمت.

حلّ المساء، وأنا مع «لطيفة» نتجاذب الأحاديث. يا لها من امرأةٍ فاتنة!!

جميلة الروح، والقلب، والفكر، واللسان.. والأجمل من كلّ ذلك، رغبتُها في الحياة التي تجعلها رغم دخولها في الثمانين محتفظةً بكامل لياقتها الفكريّة والبدنيّة.

في مكوثي عند العجوز «لطيفة» لم أُعِر أهميّةً لانقضاء الوقت.. فآدم، بحكم عمله، يضطر لإبقاء المطعم مشرّعًا للزبائن أطول وقتٍ ممكن حتى يستقطب عدداً مقبولاً من الزوّار، خصوصًا مع تراجع الحركة السياحيّة وتردّي الوضع الاقتصادي والأمني الذي جعل روّاد المطاعم يتناقصون إما خوفًا أمّا عجزاً ماليّا.

في الواقع، بتُّ قلقةً على آدم.. أراه في كلّ يومٍ يزداد كآبة وانطوائيّة وهو يقف مكبّلاً أمام التراجع في موارده الماليّة. لطالما أخبرتُه أنّ هذه المسألة ليست ذات اعتبار، لكنّه دائمًا ما قابل كلامي باستهزاء مُبَطَّن.

أعرف أنه اعتاد حياةً مرفّهةً منذ الصغر، وعندما ترك أميركا ليستقل في مشروعه هنا أتى بأحلام وأمنيات كبيرةٍ معظمها لم يتحقّق. ولأنّه دخل

تحدّياً مع والديه حول قدرته على إكمال المسيرة وحده دون عَون، لم يُدخل أهله في تفاصيل حياته وظلّ منطويّاً على ذاته ومخاوفه.

هذه الظروف مجتمعة جعلته سوداوي التفكير بطريقةٍ لم أعهدها من قبل، وصار كثير الكلام عن بلاد الهنود الحمر ومزاياها والفرص الكثيرة التي تقدّمها للمواطنين والوافدين. وفي كلّ ذلك كنت أعمل على مواساته وحقنه بجرعة أملٍ كما اعتادَت جدّتي أن تفعل في صغري.

مسكينٌ آدم.. رغم قلقه الكبير، يحاول قدر الإمكان أن يحتويني فلا أشعر بأيّ نقصٍ روحيّ أو عاطفيّ.. أقدّر له كثيراً هذا الحنان الدافق، وأتمنّى أن أملك فعليّاً مفتاح سعادته فأقدّمه له مع حبّي الكبير.

ظروفنا الماليّة المتوتّرة نوعاً ما جعلتني أستعجل البحثَ عن عمل، عَلّي أساعد في مصاريف قد تزداد مستقبلاً. أريد أن أكون شريكة آدم ليس فقط في حياته وأفراحه وإنّما أيضاً في مشاكله ومخاوفه وكلّ ما قد يؤرقه. لذلك فإنّ قبولي في مكتب الترجمة اليوم حمل إلى قلبي فرحةً كبيرة، ارتفع مؤشّرها عند موافقة الإدارة على طلبي بإنجاز أعمالي من المنزل.

الإرث الذي تركته لي جدّتي تناقص كثيراً بسبب شرائي لمنزلي السابق ومصاريف جامعتي المرتفعة طوال سنوات الدراسة. ما زال هناك جزءٌ لا بأس به متوفّر، لكنّ آدم طلب منّي عدم التفريط به خاصّةً في زمنٍ نعيشه صار غير مأمون..

***

هناك مقولةٌ شهيرةٌ لطالما ردّدَتها جدّتي مع جارتها المقرّبة - ملقِّبتي بفتاة البنفسج – في أحاديثهما الصباحيّة والمسائيّة. كانت دائمًا تقول:

«لما بِفوت الفقر من الباب، بيطلع الحبّ من الشباك»..

وأنا على سذاجتي كنت أتصوّر الفقر بشكل رجلٍ شرير، ربّما بملامح الشخصيّة الكرتونيّة «شرشبيل»، أمّا الحبّ فقد ارتسم في ذهني دائمـًا على صورة سندريلّا وهي تراقص الأمير بفستانٍ من خيال..

أمّا اليوم، فلم يعد الفقر مجرّد شرشبيل غبيّ سخّر حياته للقضاء على السنافر، بل تجسّد في ظروف حياتيّة قاسية صرتُ ألحَظها حولي في الأحياء والأزقة، في الباعة المتجوّلين، وفي أطفال الشوارع الذين ازدادت أعدادهم ليصبحوا ركنًا أساسيًّا ومَعلَمًا يطبع كل منطقةٍ بطابعٍ متفرّد..

أمّا الحبّ، ذاك الشعور مجهول الهويّة، فلم يعد مرتبطًا بأميراتٍ وفساتين وحفلاتٍ راقصة، وإنّما اختُصِرَت حروفه عندي باسم «آدم»، رجلي الوحيد الذي عشقتُه وما زلت..

لذلك، كلّما رأيتُ آدم في توتّره من أحوالٍ بدأت تتردّى وفي توجُّسه من المستقبل، يداهمني الخوف من نافذةٍ قد تُفتح حين بَغتة فيتسرّب منها النبض واحداً تلو الآخر، ولا يبقى لي منه سوى ذاكرةٍ مُثقَلَةٍ تَعِبة.

دائمـًا ما أحاول أن أبعث في قلب آدم يقينـًا أنّ ارتباطي به هو أسمى الأهداف، ولا أهميّة مطلقـًا لأموال قد تتكاثر أو تقلّ طالما أنّ بين قلبَينا

حديث ودٍّ واهتمام. وفي كلّ مرّة، وبرغم ابتسامات يتوهّج بها سمار وجهه، ثمّة غصّة أراها في انكسار نظراته وسكون حروفه.

قناعتي التي حاولتُ مراراً أن أبثّها لآدم لم تأتِ من فراغ، وإنّما عاينتُها في تجربة أمّي وزواجها من أبي ثريّ الحرب. رغم إغداقه عليها الكثير من الأموال من باب الوجاهة الاجتماعيّة وليس الحب، إلّا أنها كانت الأتعس بين الفتيات. لم يربطها بوالدي حبٌّ أو رحمةٌ أو حتى احترام، فقضَت أيّامها في ما يشبه الجحيم وعجزَت عن الحياة. الثروة لم تستطع أن توفّر لها حضناً تسكن إليه وبهجةً تجعلها تقطر إشراقاً، بل كانت في كلّ يوم تخسر شيئاً من ملامح أنوثتها حتى باتت غريبةً عن نفسها.

وأنا أرفض بشدّةٍ أن أكرّر جريمةً ارتكبَتها أمي بحقّ نفسها أوّلاً ثمّ بحقي في ما بعد.. وإذا اقتضت سعادتي مع آدم أن أخسر كلّ مال، فليكن، فهو كنزي الخبيء وملجئي وأماني.

لكنّ، وللأسف، فإن شعوراً كهذا لم أتمكّن من إيصاله لآدم رغم محاولاتي المتكرّرة والمبعثرة.. صار أكثر انطوائيّة، يقضي معظم أوقاته في المطعم، وإن أتى متأخراً إلى البيت ينزوي في مكتبه يدخّن السجائر وأسمعه من وقتٍ لآخر يبثّ الشتائم واللعنات.. وشيئاً فشيئاً صار يغيب عن البيت لأيّام دون أن يطمئنني عليه، وعندما يعود يكون في حالةٍ يُرثى لها من التعب الروحيّ والجسديّ، فيُقبل إليّ كطفلٍ صغير ويذرف حزنَه سيلاً من دموع

توجعِ روحي فأطرح غضبي جانباً، أحتضن ضعفه، وأواسي خيباته على قدر المستطاع.

مضى حوالي العام على زواجنا، وانفعالاتُه بين شدٍّ وجذب. أحياناً يشتعل كبركانٍ ويثور لأقلّ الأسباب، وأحياناً أخرى وإن ضئيلة يتراءى حملاً وديعاً فتزداد وسامته ويرتفع مؤشّر الحب في قلبي الشريد. في الآونة الأخيرة ساءت أحواله كثيراً، أعرف أن ثمّة خطباً وراء هذا التحوّل لكنّ عناده حالَ دون اعترافه بما يؤلمه.

لماذا لم يفهم آدم حتى الآن أنّني على استعدادٍ لاحتواء ضعفه وخوفه وبَذل الكثير في سبيل إسعاده وتحقيق راحة قلبه؟!

لماذا يُقصيني وباستمرارٍ عن مشاكله ويبتعد عن محادثتي حتى لا أضطره للاعتراف بما يُضنيه؟ في الوقت الذي يُمضي ساعات، في العمل أو في المنزل، قابعاً أمام حاسوبه يحاور أحداً على تطبيق «سكايب» «Skype» لا أدري من يكون، فأستمع إلى نبرة صوته ترتفع وتلين دون أن أتجرّأ على الدخول إليه ورؤية مُحاوره!

حالتُه هذه انعكسَت على ذاتي الضعيفة وبدأتُ أعود شيئاً فشيئاً إلى عُزلتي. استيقظَت ذاكرتي بعد إغفاءةٍ واستراحة، وصرتُ لا أرى حولي سوى صورٍ من الماضي بعَصفه وبرقه ورعده.

وحتى لا أنغمس أكثر فيما صِرتُ إليه، رحتُ أغدق مزيداً من الاهتمام على عملي فأقضي ساعات أنجز ترجماتي وأرسلها إلى المكتب عبر شبكة الإنترنت.

استمرت الحال على ما هي عليه، حتى كانت تلك الليلة مشوَّهة النبض.

كنتُ أتابع عملي في الصالة حين فُتح الباب وامتدّ ظلٌّ جسدٍ طويل من العتبة حتى الكرسيّ حيث كنتُ أجثو. أعشق هذا الظلّ ورؤيته تأخذني إلى عالم الحكايا بعيداً عن هزائمي وانتصاراتي المزعومة. تتبّعتُ الظلَّ في انسيابه لتلتقي نظراتي بملامح كئيبة ومهزومة لرجلٍ يملك كل مقوّمات النصر الروحي..

«آدم.. ما بالك؟»..

انتفضتُ من مكاني وأسرعتُ لأحتضنه. نظراته حملت كثيراً من الانهزام و.. الخجل. ساعدته في الدخول، وعلى الكنبة أجلستُه وركعتُ على ركبتَيّ بجواره. رحتُ أمسِّد شعره المنسدل وأبثّ في أذنه كلمات حبٍّ ومواساة.. كلّ ذلك وهو صامتٌ، يرقب الأرض، وتتسلّل من عينيه دمعة يحاول إخفاءها بفشلٍ ذريع.

وعلى حين صمت، تطلّع إلى وجهي بعد هروبٍ طويل، وجهد في اصطناع ابتسامةٍ باهتة، ثمّ أرسل تنهيدةً عميقة، وبنبرةٍ خافتة قال:

«وَرد.. وَردتي الجوريّة.. يا أجمل من رأيتُه.. أرجوكِ لا تكرهي آدم الذي أحبّكِ بجنون. كم تمنّيتُ أن أجعل منك أسعد فتاة وزوجة! لكنّي فشلتُ معكِ كما فشلتُ في تحقيق أحلامي. أنا رجلٌ فاشل.. فاشل»..

وراح يبكي بين يدَيّ وجسدُه يرتعش وينتفض.

فجأةً رفع رأسه، وبحزمٍ توجّه إليّ بالكلام:

«أعاني تعباً شديداً، وأحتاج أن أنام طويلاً.. تصبحين على خير»..

وهذا.. كان آخر مشهدٍ لي مع آدم..

آدم، فارس أحلامي الذي نَفَذَ بين ثنايا أيامي بكلّ لباقةٍ ليضفي عليها كمشة فرحٍ وتفاؤل.. آدم الذي عشتُ معه في الخيال قصّة صاحب الظلّ الطويل وسعدتُ به كما فعلت جودي مع السيّد جون سميث.. آدم الذي رأيتُ فيه أسطورةً ستهزم صورة الرجل التقليديّ وتُهدي أنوثتي عطرَ حنانٍ يليق بها، فأستعيد وهجاً ضاع مع بؤسِ عقدٍ ذكوريّةٍ عقيمة..

آدم.. الحلم والواقع والخيال!!

***

صحوتُ باكراً على سكونٍ يصخب به المنزل.. آدم كان غائباً عن سريره رغم أن التوقيت تجلّى باكراً جدًّا. نهضتُ بكامل تعبي وانسرَبتُ بتثاقلٍ إلى الصالة وغرفة الجلوس والمطبخ ثمّ الشرفة، ولا أثر لآدم!!

لا يُعقل أن يكون قد غادر إلى عمله، فثمّة زمنٌ مديدٌ يفصله عن الموعد.. ولا يمكنه الخروج لشراء أيّ شيء والنوم لا يزال يُظلّل الجميع.. حتى

ممارسة رياضة المشي التي هجرها منذ أَمَد، تبقى احتمالاً بعيداً بسبب ضعفٍ نال منه الفترة الأخيرة..

إذن، أين أنت آدم؟!!

سيطر القلق على تعبي.. أشعر أنّ سيّئًا ما قد ارتاد يومي، خفْقُ صدري صار قرعًا شديدَ الوَقع وذهني تجلّى فارغًا من أيّ حياة.

رحتُ أبحث عن دليلٍ يُرشدني إليه أو يَهدي ضياعي إلى ضفّةٍ آمنة. فتّشتُ في كلّ مكان ونبَشتُ كلّ خبيئةٍ دون أن أعثر على ما أريد..

فجأةً تذكّرتُ وردتي الجوريّة، وكلامًا سبق وردّده آدم على مسمعي في بدايات زواجنا.

كنا نرتّب أغراضنا في منزلنا الجديد، عندما حمل آدم وردتي الجوريّة هديّة العم خلدون ووضعها على الشرفة، ثمّ التفت نحوي قائلاً أن هذه الوردة ستكون وسيلة التواصل عند حدوث أيّ خلاف بيننا.

لم أفهم يومها هذه العبارة ولم أُعِرها اهتمامًا كافيًا، فقد كان قلبي يرفرف ويصدح بخَفقٍ كالأهازيج وأنا أراني مع آدم نخطُّ أول حروف أبجديتنا.

هرولتُ إلى الشرفة، وما إن وقع ناظري على جوريّتي حتى صرَختُ من اندهاش!!

ورقةٌ مطويّةٌ بعناية تستقرّ على جذع الوردة في وضعيّة تثير الانتباه، سارعتُ إليها وبيدٍ مرتعشةٍ فتحتُها لأعثر على خطّ آدم يتراقص بين السطور:

«حبيبتي الأولى والأخيرة.. وردتي الجوريّة..

كم كنتُ أخشى لحظةً كهذه أخاف فيها مواجهتكِ وأضطرّ إلى محادثتكِ بالكلمات. تبدو الأبجديّة عقيمةً وعاجزةً عن ترجمة شعوري. أعرف أنّي خذلتكِ في كلّ شيء..مشاعري وطموحي وحتى في قدرتي على المواجهة.

أنا إنسان فاشل، ولم أدرك ذلك إلّا بعد أن أصبحتُ مسؤولاً عن عائلةٍ ولو صغيرة. لكم تمنيتُ أن تكون لنا فتاةٌ صغيرةٌ هي امتدادٌ لكِ نسمّيها «جوري» نسعد بها وتنثر ضوءها بين حنايا أوردتنا. لكن جميع خططي المستقبليّة باءت بالفشل. لم أتمكّن من بناء عائلةٍ حلمتُ بها، ولا حقّقتُ النجاح الذي تحدّيتُ والدي في سبيله. حتى «حوريّة البحر» صار من الماضي، خسرته كما أخسركِ الآن..

لم أعرف كيف أحافظ عليه، الانهيار الماليّ كان كبيراً، لذلك اضطررت إلى رَهنه قبل أن أفقده نهائيّاً، وهذا ما لم أُخبركِ به وأصابني بسوداويّةٍ واكتئابٍ مؤخّراً..

لن أُدخلكِ في تفاصيلي المؤلمة حتى لا تزدادي وجعاً وكلّ ما أريده منكِ أن تسامحي ضعفي. أنت فتاةٌ رائعة بكل معاني الجمال الروحيّ والماديّ، وتستحقّين أميراً يحملكِ على جناح الدهشة إلى عوالم من خيال.

اليوم أودّعُكِ الوداع الأخير، سأرتحل إلى البعيد وربّما أعود إلى أميركا التي منحتني ما عجز عنه هذا البلد البائس. سيكون منزلنا ملكاً لكِ وهو أبسط ما يمكن أن أقدّمه لكِ عرفاناً صغيراً بجميلِ مشاعركِ وصدقكِ واهتمامكِ بي رغم أنانيّتي الطاغية.

هي النهايةُ لحكايتنا التي لم تبدأ، وكم تمنّيتُ أن لا تحصل. أرجوكِ سامحيني، وعيشي حياةً هانئةً بعيداً عن عذاباتي التي لا تُحصى.. أستودعكِ الله في أوقاتنا الرائعة ومشاعرنا الطيّبة.. كوني بخير دائماً..

حبيبُكِ الذي خسركِ يا جوهرتي..

«جون سميث»..»..

دَفقٌ من جمرٍ انهمر من مُقلتَيّ، أحرق ملامحي، وفاض سيلاً على ورقتي وفستاني وأرض شرفةٍ هي الشاهد الوحيد على فجيعتي..

لماذا أنا دونْ كونٍ بأسره أصابُ بداء الفَقدِ في كلّ خطوةٍ وكلّ رجاء؟!!

لماذا أُخذَل دائماً وأنا التي تمنح رغم حاجةٍ، تواسي رغم ضعفٍ، وتحلم رغم كابوسٍ أصابها بلعناته منذ ولادةٍ بائسة؟!!

حتى أنتَ يا آدم.. يا طفلي وأسطورتي.. يا حلمي ويقيني!!

أراك تخون أنوثتي وتحذو حذوَ أبٍ سبق وهشّم ثقتي بها..

واليوم فقط خذَلتني..

خسارتكَ المالية وبؤسكَ وحيرتكَ السابقة، كلّها لم تنجح في حَملي على جناح الخيبة، وهجركَ الأخير لي هو ما فعل ذلك وبجدارة.

أتراكَ تغيّرتَ لأني لم أحسن فهمك، أم أنّني أنا من أخطأتُ الاختيار؟!!

الآن فقط أدركتُ أن كلمات العمّ خلدون كانت في مكانها، وتساؤله حول قدرتكَ على احتضان روحي كان صائباً لدرجة الصدمة.

شعرتُ بصدري يضيق وبأنفاسي تستعصي على الخروج.. انقباض في الروح طغى وتسلّل بين الشرايين حتى خِلتُ دمي تصلّب، وكاد قلبي يغلق أوردتَه أمام الخَفق..

كنت على وشك الإغماء عندما أتاني طيف جدّتي وهي تهديني المنديل المطرّز بوردةٍ جوريّة تمتدّ بجذعها من أسفل المنديل لتطال بوريقاتها أعلاه.. انتفضتُ من مكاني، رميتُ الرسالة على الأرض، وأسرعتُ إلى خزانتي أنبش فيها حتى صار المنديل قابعـًا بين أناملي.. ما إن رأيتُه حتى أجهشتُ ببكاءٍ مرير، ورحتُ أحتضن تفاصيله وأنادي جدّتي بصوتٍ اخترق جدار الاحتمال.

انكفَأتُ في ركن الغرفة، ورحتُ أرتجف وأتقوقع على ذاتي ومنديلي غائرٌ في قبضة يدي التي راحت تشتدّ وتقسو في حركة لا إراديّة.. شيءٌ ما أجهل كنهَه صار يشدّني من جميع الجهات، وصرتُ أتخبّط على الأرض في حركاتٍ عشوائيّة في محاولةٍ للإفلات من اللاشيء.. ثمّ صدحتُ بصراخٍ أشبه بالعويل، ورحتُ في غيبوبة تامّة.

***

الفصل الخامس عشر

مستلقية على سريري، رحتُ أرقب الغرفة التي تراءت ضبابيّة.. شيئًا فشيئًا بدأت الرؤية تتّضح وإذا بي أُفاجَأ بالعجوز «لطيفة» تجلس قربي على كنبةٍ صغيرة.

«الحمد لله على سلامتكِ يا ابنتي.. أخيراً صحوتِ من الحمّى بعد انقضاء أربعة أيّام.. كم خشيتُ عليكِ ودعوت الله أن يحفظكِ»..

شريطٌ من الصور والأحداث أخذ يتناسل أمام ناظري، حتى صرتُ بكامل وعيي لخيبتي التي أتَت ذات بغتة فتوّجَت عمراً من الخذلان.

حاولتُ الكلام للاستفهام عمّا حدث لي، لكنّ طاقتي تجلّت على شفير الهاوية.

دمعةٌ وراء أخرى عثرَت على طريقها فوق الوجنات دون أن أجد لقمعها سبيلا. وما إن شاهدتني السيّدة «لطيفة» في هذه الحالة حتى بادرت بالكلام:

«كنتُ أريدكِ أن ترتاحي قليلاً قبل أن أخبركِ بما حدث.. لكنك تبدين بحالةٍ من الضياع تفرض عليّ أن لا أؤجل الموضوع..

في ذلك الصباح كنت كعادتي على الشرفة أرتشف القهوة عندما سمعتُكِ تصرخين.. أسرعت أنا وخادمتي، طرقنا بابكِ بشدّة ولم تستجيبي فاضطررتُ إلى استدعاء الحارس لكسره. الطبيب الذي أحضرتُه أكّد لي أنكِ تعانين من صدمةٍ شديدة، عرفتُ تفاصيلها بالصدفة من خلال هذه

الرسالة التي عثرَت عليها الخادمة. كما أنّ الطبيب أكّد لي حاجتكِ للراحة التامّة خصوصاً أنكِ في الشهر الثاني من الحمل»..

كوَهجٍ تسلّل في حلكةٍ شديدة، أتت كلماتُها الأخيرة لتغرس النور في فؤادي المُعتِم.

هل فعلاً أنا حامل؟!!

هل بداخلي جنين سيمنحني لقب أمٍّ بعد شهورٍ قليلة؟!!

أتُراها «جوري» سوف تأتي لتنير أيّامي وتملأ فراغات عاطفيّة متجذِرة؟!!

يا إلهي.. لو أنّ آدم لم يرتحل.. لو انتظر قليلاً لكان شُفيَ حتماً من كآبته وأقصى عن تفكيره قرار البُعد..

لو أنّه لم يستسلم سريعاً، لسعِد بهديّة من الله لا تضاهيها كنوز الكون..

يا لكَ من تعيسٍ يا آدم.. ويا لغبائكَ الذي هدم حلماً كاد يصير في قبضة اليد.

لو أستطيع أن أخبركَ بكنزٍ خبيءٍ في داخلي، لمسحتُ عن قلبكَ حزناً وقلّةَ حيلةٍ وسوداويّةً حمقاء، لكنّك أدرتَ ظهركَ للحياة دون أن تتركَ عنواناً أو علامةً ترشِد إليك..

ستأتيك الجوريّة ولن تعلم بحضورها.. لن تحتضن براءتَها.. لن تراها تكبر.. ولن تأخذ بيدها لتُدخلها مدرسةَ الحياة وترافقَ نضجَ أنوثتها..

يا لكَ من تعيسٍ يا آدم.. !

رغم حسرتي وشجني وتعبي، أحسستُ بنشوةٍ تنسرب إلى أعماقي وبرغبةٍ في النهوض من كَبوة الخذلان..

وفي أولى محاولاتي لالتقاط الحياة من جديد، استقَمتُ جالسةً في السرير، ونطَقتُ بأولى الكلمات بعد غيابٍ مرير:

«كل الشكر سيّدة لطيفة على كلّ شيء.. إغاثتكِ لي..اهتمامكِ وعنايتكِ بي لأيام.. والشكر الكبير على خبرٍ أتيتِ به إلى حزني فاستحال فرحًا ليس له مثيل»..

دموعٌ صافيّةٌ سالت من عينَيها وانسربَت بين تجاعيد وجهها، فلمسَت قلبي بحنانها، وعصفتُ حنينًا لجدّتي التي استشعرتُ طيفَها هائمًا حولي يبتسم ويرسل لقلبي السلام.

صمتٌ طويلٌ امتدّ بيننا لم يمزّقه سوى صوت عجوزي الطيبة وهي تقول:

«اسمعيني جيّداً يا ابنتي.. أنتِ فتاةٌ جميلةٌ وتملكين داخلكَ طاقةَ محبّةٍ لم أرها في سواكِ. لا أريد لهذه التجربة التي تجرّعتِ مرارَتها أن تُقصيكِ عن السعادة.. إيّاكِ أن تربطي فرحكِ بوجود شخصٍ في حياتكِ. أنتِ صانعةُ السعادة ومكتشفُتها.

ستعرفين مع الأيّام أن الربح والخسارة لا علاقةَ لهما بالمكاسب والنجاحات بقدر ما يرتبطان بفرحٍ نحملُه إلى الغير وحلمٍ نزرعه في قلبٍ وليد.

لذلك اجعلي من طفلكِ القادم وسيلةً لسعادتكِ.. امنحيه ما افتقدتهِ في حياتكِ.. كوني له حضناً وسيكون لكِ حياة».

يا إلهي كم يشبه هؤلاء الطيّبون بعضهم بعضا! في كلماتها نكهةُ طِيبٍ سبق وتذوّقتُها مع العمّ خلدون، وعطرُ بخورٍ معتّقٍ لطالما استشعرتُه في نظرات سيّدة القصر وبين وَقع نبضها. والأروع من كلّ ذلك أنّها تحاكي جدّتي في كلّ شيء.. عمرها، تجاعيدها، دَفق حنانها، ومشاعرها التي تُبدع في الحبّ عندما تدعوها الحياة لذلك. فجدّتي طوَتني تحت جناحها ذات حاجةٍ، بسبب وجود والدَين لا يُغنيان ولا يُسمنان من عطف، والعجوز «لطيفة» فاض اهتمامها ورعايتها لي على حين مرضٍ رغم غياب أيّ رابط عاطفيّ أو مصلحيٍّ بيننا!!

غادرَت عجوزي الطيّبة إلى شقّتها بعد أن أصرَرتُ عليها لترتاح إثر عذابها في رعايتي التي امتدّت لأربعة أيّام، وأكدتُ لها أنّني بتُّ بخير وأستطيع أن أنجز أموري بمفردي، كما عاهدتُها أن ألجأ إلى طلبها بمجرّد أن أشعر بأيّ ضيقٍ أو خوفٍ أو ألم.

مسكينةٌ «لطيفة»، كان بإمكانها أن تترك خادمتها لترعاني، لكنّها أبَت إلّا وجودَها هي لتُعنى بي كأمٍّ وليس كعابر سبيل.

لا بدّ وأنّها تشتاق أولادَها كثيراً وتتمنّى وجودَهم في حياتها وحضورَها في تفاصيل مشاكلهم..

لكنّهم لم يرغبوا في ذلك، وابتعدوا عنها لدرجة النسيان..

نسيانهُم لها ولعمرٍ وارفٍ من العطاء وبَذلِ الروح والجسد، مقابل نسيانها لعقوقهم واستمرارها في انتظار عودتهم لتصير الأسعد والأوفر حياة..

يا له من تناقضٍ غريبٍ.. مريب!!!

أن تعيش في ترَقّبٍ لأمرٍ تدرك أنّه المستحيل، ومع ذلك تربط سعادتكَ بحصوله، وتصير أحلامكَ مجرّد قاطرةٍ تَعبُر سريعاً دون أن تقف عند أيّ محطّة رحيلٍ أو انتظار!!

وحيدةً جلستُ في الصّالة – بعد رحيل السيّدة «لطيفة»- أطالع الجدران والنوافذ والستائر دون أن أرى أيّ تفصيلٍ من تفاصيلها. فذهني كان قابعاً هناك مع «جوري» صغيرتي الجميلة.

رحتُ أتخيّل ملامحها، وأبني لها في خيالي صورةَ فتاةٍ تجمع في صفاتها أجمل ما تملكه أميرات ديزني..

أتمنّى فعلاً أن يكون الجنين فتاةً.. سأبذل كلّ حنانٍ لأجعل من أنوثتها حكايةَ فخرٍ وتميُّز. سأحكي لها عن جدّتي بالتأكيد، وأنقل إليها قصّةَ حبٍّ ومَنحٍ لن تعرف لها مثيلاً في كلّ الأساطير.. سأكون دليلَها في التعرّفٍ على أبٍ أَحبَّها حتى قبل أن توجَد ومنحها اسمها لتكون امتداداً لي. سأُواري حقيقةَ ضعفه وهروبه بين خبيئاتي وأجعلها تحيا باعتزازٍ لانتسابها إلى أبٍ بملامح من طيبة وطموح، وبقامةٍ فارعةٍ تحاكي «صاحب الظلّ الطويل» فارس أحلام كل الفتيات..

وريثما تأتي.. سأهيّئ لها قلبي ليكون وسادةً من حرير، وأنتقي لها من كلّ زهرةٍ ضوعـًا لتغرقَ في طيبٍ ومسكٍ وعنبر..

نامي في سلامٍ يا صغيرتي، وعندما تستفيق الحياة في خَفقك، سأقيم لكِ حفلَ استقبالٍ يليق بأنوثتكِ وعطرك.

❋❋❋

بعد ليلةٍ قضيتُ معظمها وأنا أُحادثُ «جوري»، أحكي لها عنّي وعن والدها، وأغنّي لرقّتها ما كانت جدّتي تردّده على مسمعي.. رحتُ في إغفاءةٍ طريّةٍ احتَجتُها منذ زمن.

صباحـًا، في توقيتٍ لا أعرف له احتسابـًا، صحَوتُ على موسيقى يصخب بها المكان. صرتُ أتقلّب في السرير وأدسّ رأسي تحت الوسادة لعلّ حدّة الصوت تتلاشى، دون أيّ فائدة.

ببلادةٍ شديدة تسلّلتُ من سريري وتتبّعتُ مصدر الصوت الذي تجلّى آتيـًا من الشرفة. ثمّة سيارة حمراء حديثة ملفتة للنظر متوقفة على جانب الطريق، والأغنية تنبعث منها فترتج الأرض من ضجيجٍ لا يُحتمل.

دخلتُ سريعـًا قبل أن يعتريني الصداع، وقبل أن أخطو عائدةً إلى السرير، قُرِع جرس الباب. تقدّمتُ بكامل غضبي وأنا أتمتم بعض الشتائم. ظننتُه الحارس أتى ليسأل عن القمامة، لكنّي فوجئتُ بباقة وردٍ جوريٍّ ضخمةٍ تستقرّ على العتبة.

يا إلهي ما أروعها!!

حملتُها بين ذراعَيّ ورحتُ أشمّ عطرها الذي انساب كحلمٍ داخل شراييني. لم يكن عليها أيّ اسم يشير إلى مُرسلها.

عندما أدرتُ ظهري لأدخل، أثار انتباهي ظلٌّ طويلٌ يمتدّ ليسبقني إلى داخل البيت. لأولّ وهلةٍ ظننتُني أهذي، غير أنّ صوتًا أعشقه أتاني ليعصف في قلبي النبض من جديد..

«وردتي.. هذا أنا.. لقد عُدت..».

من فرط دهشتي تمسمرتُ مكاني تاركةً باقة الورد تقع أرضًا دون أن أملك طاقةً لأيّ ردّة فعل.

هل فعلاً هو آدم؟!!

ودون تفكيرٍ في عتابٍ أو خصومةٍ، صار قلبي يعزف بدل أن ينبض.. واستنشقتُ عطرَ بخورٍ يملأ فضائي والمكان.

التفَتُّ نحو مصدر الصوت، فلم أعثر على أحد.. حاولتُ أن أتتبّع آثار الظلّ الطويل فلم أجد لامتداده أيّ حضور!!

وقفتُ حائرةً.. أطرح ألف سؤالٍ وأعثر على الإجابات تترنّح فارغة من أيّ حياة.

نزلتُ درجات السلّم سريعًا، وأمام المبنى لمحتُ السيارة الحمراء تنطلق مسرعةً حتى كادت تغيبُ عن النظر.

بانفعالٍ لا إراديّ رحت أركض على الرصيف وأنادي بأعلى صوتي:

«آدم.. آدم..»..

وبشهقةٍ قويّـةٍ صحوت من النوم وأنا أردّد اسم آدم.. احتاج الأمر عدّة دقائق لأستعيد وعيي كاملاً، وأفهم أنّ حلماً موجعاً تغلغل بين ثنايا غفوتي وأجفل راحتي بعد أرقٍ طويل.

رغم شهورٍ مرَّت على غياب آدم، إلا أنّني ما زلتُ أحمل في الوجدان قناعةَ عودته، وكلّ ليلةٍ أسرح معه في الخيال فيتجلّى أمامي كحقيقةٍ لا لَبس فيها.

انقضت الأيّام ثقيلةً، واقترب موعد ولادتي التي أخشاها بالقدر الذي أنتظرها فيه بفارغ الصبر.

طوال هذه المدّة، لعبت السيّدة «لطيفة» دور الأم الحنون. من يرَ رعايتها لي واهتمامها بأدقّ تفاصيل حملي، ستصيبه الدهشة لقلبها الرهيف وعطائها الذي يفيض دون انتظارِ كلمة شكرٍ أو تقدير.

رغم كلّ هذه المشاعر الطيبة، حملتُ في نفسي رغبةً بالابتعاد عنها إلى مسافةٍ لا تسمح لها بالتغلغل في حكاياي، فحتى الآن هي لا تعرف سوى جزءٍ مبتورٍ من قصتي يتعلّق بآدم فقط.. أمّا قبل ذلك، فحياتي صندوقٌ مقفل الإحكام أحاول قدر الإمكان أن أُبقي على محتوياته محفوظةً بعيداً عن أيّ تدخُّل.

لذلك أحاول تفادي الجلوس معها لوقتٍ طويل. أفتعل انشغالي بأمرٍ ما أو باتصالٍ هاتفيّ عليّ أن أقوم به، أو بتعبٍ يُغرقني في نعاسٍ لا أستطيع

مقاومتَه.. كلّ ذلك وأنا أشعر بالذنب من هروبٍ أتقصّده للفرار من صفاء روحها..

طوال فترة حملي لم أنقطع مطلقاً عن ممارسة عملي، وأنجزتُ ترجماتي في موعدها.. فإضافةً إلى عشقي لهذه المهنة، بات عليّ الاهتمام بها كثيراً لأنها أمست وسيلةَ استمراري في الحياة وتأمين احتياجاتي واحتياجات طفلي القادم الذي أكدّ طبيبي أنّها فتاة بملامح تقاربني..

ما زلتُ مصرّةً عل الاحتفاظ بما تبقى من إرث جدّتي أكثر من السابق، ليكون سنداً لصغيرتي في مستقبلٍ مجهولٍ لا نعلم خباياه.. أمّا منزل جدّتي القديم، فهو ذاكرتي التي عليّ التمسّك بها لأستمرّ وفيّة لحكايتها التي لو رُويَت ألف مرّةٍ ستظلّ تحمل بين طيّاتها ذات الوهج والاندهاش.

كان عليّ خلال فترة الحمل أن أنجز كامل الاستعدادات لاستقبال «جوري».. من ملابسها، إلى مستلزمات نظافتها، إلى أغراض غرفتها التي قرّرتُ أن أجعلها بألوانٍ زاهية وأشبه بحلمٍ.. بخيال.

ولأنّي لا أملك الخبرة في مثل هذه الأمور، راحت السيّدة لطيفة تكتب على أوراق كلّ ما أحتاجه وترسل معي خادمتها فتساعدني في حمل الأغراض وتنظيمها.. استغرق الأمر مني وقتاً طويلاً وعدّة زيارات إلى السوق حتى تمكّنتُ في النهاية من تأمين ما أريد..

والآن، أنا على استعدادٍ كاملٍ لاستقبالكِ «جوري»..

كم يشتهي قلبي احتضان براءتكِ!

سأكون لك عائلةً وأكثر، كما كانت لي جدّتي عالمـاً من نور.

كلّ أمرٍ اشتاقته روحي ولم تعثر عليه وسط أنانيّةٍ طاغية، سأجعله ملك يديكِ وطوعَ حلمكِ، وسأعطي درسـاً في الحبّ لكل من يفتقد المشاعر، ويظنّ المال وسيلةَ سعادةٍ لا تفنى..

باختصارٍ..

سأكون في علاقتي بكِ، الصورةَ التي أرادتها جدّتي، وعملَت على تحديد ملامحها وإضفاء ألوان زاهية على خطوطها. وعندما تكبرين قليلاً، سأستدعي طيفها ليراكِ، فتفخر بي وتدرك أن جهودَها في غرس الجمال في تربتي لم تذهب هباءً، وأنتجَت برعمـاً يكبر كلّ يوم على وَقع سمفونيّة الحبّ ويزداد رونقـاً ونضارة.

***

ولادة «جوري» لم تكن بالصعوبة التي تهيّأتُ لها، ربّما لأن خوفي من هذا الحدث تجاوز الواقع نحو الوهم، أو ربّما لأن حماسي لرؤيتها فاق توقّعات الشوق بكثير..

«جوري» هي نسختي المصغّرة. فتاةٌ تشبه بطراوتها الورد الجوريّ.. ورديّة البشرة بعينين سوداوين وأنفٍ صغير يتوسط وجهها الملائكيّ. شعرها ما زال قصيراً يجمع بين الأشقر والأحمر، ولها ابتسامةٌ تجعل حزني يقلب فرحـاً برقّة هدب.

عندما احتضنتُها للمرّة الأولى شعرتُ بقطعة سكرٍ تذوب بين حنايا قلبي، وبمياهٍ تترقرق بين ضلوعي فتُنعش ركود الحبّ في أوردتي، لينبثق شعور أمومةٍ وليدٍ رفع مؤشر حناني إلى مستوياتٍ قصوى من الرهافة.

ما أصابني من دَفقٍ في الشعور، أعاد إلى ذاكرتي صورة أمي التي ما عرفتُ لها طريقاً نحو الحبّ.

كيف استطاعت أن تجمع مشاعر أمومةٍ فطريّة في صرّةٍ محكمة الإغلاق، وترمي بها في مستنقع المصالح؟!!

وكيف ارتدَت أنانيّتها وراحت تتبختر بها، دون أن تقع فريسةَ تأنيب ضميرٍ أو تستحي من كونها استثناءً عن أنوثةٍ هي رديفة الحنان الأموي؟!!

أسئلةٌ لو استمرريتُ في طرحها عمراً، ستبقى أجوبتها عقيمةً جوفاء وخالية من رفاهيّة القبول.

السيّدة لطيفة أحبّت «جوري» بأسلوبها فائق الطيبة، وقدّمَت في سبيل راحتي كلّ ما باستطاعتها، حتى إنها تكفّلَت بإبقاء «جوري» تحت رعايتها في كلّ مرّةٍ أضطرّ فيها للخروج لأيّ سببٍ يصنّف تحت باب الضرورة أو الترفيه.

في البداية، لم أستطِب هذه الفكرة، خصوصاً أنّي عاهدتُ نفسي على عدم تركها أبداً وجعل خفقي سَكناً لها في أيّ وقتٍ وتحت أيّ ظرف.. ضحكت السيّدة لطيفة كثيراً من سذاجتي في تقدير الأمور، وظلّت تبذل محاولاتها حتى اقتنَعتُ أن فترةً صغيرةً من الزمن أترك فيها «جوري» لإنجاز

أمرٍ ما، لا يعني مطلقـاً أنّني تنازَلـتُ عن مسؤولياتي تجاهها وأنّ حرمانـاً سيعصف بروحها ويُرديها في عُقَدٍ لا تنفك.

لكنّ الواقع الذي غفلَت عنه عجوزي الطيّبة هو أن العُقَد تعيش في أعماقي أنا، وأنّ الخوف من فَقدٍ وهَجرٍ هو أحد وساوسي التي رافقَت طفولتي ومراهقتي وشبابي حتى صار غيابها أحيانـاً سبباً في توتّرات نفسيّة تنسج غزلها في محيط روحي وتلابيب الوجدان.

مرّت الأيّام وتعلّقي ب «جوري» يزداد بريقه، حتى صرتُ لا أعرف راحةً إلا في أوقاتٍ أكون معها في حالة توأمةٍ روحيّة.. أحتضنها، أغنّي لها، أُلاعبها، أو أهدهد لها كي تنام..

نادراً ما تركتُها لذاتها وانشغَلتُ بأمورٍ أخرى، حتى ترجماتي صرتُ أنجزها وهي بين أحضاني في حالة إغفاءةٍ ملائكيّة.

أحبَبتُها كدميتي، واقتنيتُ لها من الفساتين ما لا يحصى. رحت أُلهو بها وبمظهرها، فأغيّر لها الفستان وربطة الشعر وأقوم بتصويرها لتوثيق لِحظاتنا حتى ملأتُ أعداداً من ألبومات الصور. باتت تسليتي الوحيدة، ووسيلتي لأنغمس في السعادة أكثر.

بوجودها، نادراً ما فكّرتُ بآدم أو راوَد غيابُه ذاكرتي، وشيئاً فشيئاً اعتدتُ ثنائيّة وجودنا، أنا و«جوري» فقط، وغدا العالم الخارجيّ مجرّد هيكلٍ لصورةٍ نحن نجمتاها.

كلّ ما أحصل عليه في مهنتي من نقود صارت وجهته «جوري». ورغم ذلك، لم أتمكّن من تلافي شعورٍ بالتقصير إزاءها. أحسّ برغبةٍ في جمع العالم بكلّ مباهجه في بوتقةٍ أقدّمها لصغيرتي حتى تهنأ بحياتها فلا تشقى ولا تبتئس.

أريد لها أن تحيا مرفّهةَ الشعور والممارسة، وأن لا يغشاها خوفٌ من مستقبل غامض الهويّة، فتبقى بابتسامةٍ تتوّج ثغرها وتضفي على حسنها بريقاً وجاذبيّةً فريدة.

عادةً عندما نكون بمفردنا تمرّ الساعات ثقيلةً، موحِشةً، وبتردّدات سلبيّة. أمّا بوجود من نهوى، فلا قيمة للزمن بدقائقه وساعاته. وهذه حالي مع «جوري».. وأنا معها أراني أرتحل كسحابةٍ وأعبر الزمن سريعاً دون أن أتمكّن من أَسره.

لذلك، لا أصدّق أنّني اليوم أحتفل بعيد ميلادها الثاني.. لا أعرف كيف انسرب الوقت سريعاً، فما زلتُ أشعر بها جنيناً يخفق داخلي!!

يا إلهي.. لقد كبرَتْ صغيرتي وصارت بملامح أجمل وطباع أرَقّ وألطف. غدت بشعر طويل يصل إلى كتفَيها وبقامةٍ تسمح لها بالسير والركض وممارسة شقاوتها المحبَّبة.

لم أُقِم لها احتفاليّة كبيرة بل اكتفَيتُ بحضور السيّدة لطيفة لتكون شاهدةً على تفتّحها كوردةٍ ربيعيّة، كما كانت شاهدةً على انبعاثها للحياة. سنتناول الحلوى معاً، نغنّي للصغيرة، ونقدّم لها الهدايا التي تُسعد طفولتَها بالقدر الذي أسعدنا فيه وجودُها.

يا لكِ من نعمةٍ يا جوريّتي! ويا لعدالة السماء عندما تأتي لتطفئ جمر قلوبٍ تَعِبَة!

عندما أطلّت «جوري» إلى الصالة بفستانها البنفسجيّ تجلّت أميرةً بكلّ معنى الكلمة. احتضَنتَها السيّدة لطيفة، وبحركةٍ لا إراديّة أخذت عيناها تسكب سيلَ دمعٍ لم تتمكّن من إخماده، فتعثّرت كلّ محاولاتها لإخفاء حرقةٍ وحسرةٍ وحزنٍ بحجم كون وأكثر.

أعرف أنّها تشتاق أولادها، وتتمنّى احتضان أحفادها.. وتتساءل بصمتٍ عن أسمائهم وأعمارهم وأشكالهم!!

هي جدّةٌ مع وقف التنفيذ.. وأمٌّ بمرتبة عاقر..

أشفَقتُ على ضعفها كثيراً، فأنا الأكثر إدراكـاً لمعنى الفَقد دون حضور الغياب، وأنا الأولى في ترتيب الخيبة والخذلان.

صرتُ أواسيها بعبارات ما وَرَدَت خاطري يومـاً، وأُرَبّتُ على حزنها. تسلّلتُ في مسامات قلبها، وشرَعتُ بمسح صدأ نال من أوردته وحالَ دون قدرته على السعادة.

وعندما شرَعَت «جوري» بالرقص على وقع أغنية «نانسي».. «عيد ميلاد الليلة مين».. استحوذَت على اهتمامنا، وشيئاً فشيئاً تناسينا وجعَ عمرٍ اندثَر ودخلنا عالم الطفولة ببراءته وصفائه ونقاء وردته الجوريّة.

❊❊❊

اليـوم يعتـبر مـن أكثـر التـواريخ أهميّـةً عنـدي، فهـا هـي «جـوري» تلتحـق بالمدرسة وتبدأ بتكوين عالمها الخاصّ بعيداً عـن حضـني الـذي كـان سَـكَنـًا لها.. لقد تجاوزَت الثالثة من عمرها بشـهور، وبـات علـيّ أن أهتـمّ بمستقبلها الدراسيّ، لذلك اخترتُ لها مدرسةً تعدّ الأرقى في العاصمة.

منذ فترةٍ طويلةٍ ما عـادت جـدّتي تـأتي لتتفقّـد أحـوالي أو تقـدّم لـي نصيـحةً أحتاجها.. لكنّ حضورَها القويّ لا يزال يفرض طيبته على مختلـف جوانـب حياتي، ولولاها لما تمكّنتُ أيضـًا مـن إلحـاق «جـوري» بمدرسـتها الحاليّـة. التكاليف فيها مرتفعة جدًّا، ودخلي لا يمكنه أن يوفّر لها بالطبع هـذه الرفاهيـة في التعليم.

صـار شـعر جـوري طـويلاً، فأنـا لـم ألجـأ إلـى قصّـه مطلقـًا، لـذلك قمـتُ بتضفيره.. وعندما ألبستها الـزيّ المدرسـيّ بـدت فتـاةً ناضـجة الملامـح أكثـر منها طفلةً في يومها المدرسيّ الأول.

حين رأيتها تغادرني لتدخل مع زميلاتها إلـى الصـف، لـم أتمكّـن مـن كـبح عواطفي. شعرتُ بقلبي يكاد ينتثر نُتَفـًا وبأنفاسي تخرج عن مـدارها. صـارت الدموع تنسكب منّي وأنا عـاجزةٌ حتـى عـن اسـتخدام منـديلٍ لمسـح آثارهـا.. العديـد مـن المدرّسـات أتَـين لتهـدئتي، ودعتنـي المـديرة إلـى مكتبهـا حيـث قدّمت لي عصير الليمـون وقامـت بمواسـاتي مؤكّـدةً أن الأمـر لا يسـتحق كـلّ هذا الأسى..

كلّ ذلك، وأنا في عالمٍ آخر، لا أسمع ولا أرى شيئاً سوى صغيرتي وهي تدخل متوجّسة إلى صفّها وتطلق نظراتها الخائفة نحوي..

كم أنا قاسية القلب!!

كان عليَّ أن أرافقها وأُخَفّف وطأة وَحدتها في يومها الأول.. ما كان يجدر بي أن ألتزم بالتعليمات الداخليّة.. في النهاية هي ابنتي أنا، ولن يشعر بضعفها سواي..

إثر هذه الأفكار، هممتُ بالوقوف، وتوجَّهتُ إلى المديرة بكلمات قاسية، وطلبتُ منها أن ألتقي ابنتي حالاً كي أطمئنّ عليها وأخفّف حدّةَ انفعالها وبكائها الأكيد.

أمام إصراري، رافقتني المديرة إلى الصفّ حيث فوجئتُ بصغيرتي تلهو مع زميلةٍ لها وتضحك.. بدايةً لم أصدّق ما عاينتُه!

هل يُعقل لجوري التي ما فارقتني منذ ولادتها أن تتقبّل وجودها في مكانٍ أنا لستُ حاضرةً فيه؟!!

كيف تمكّنَت المعلّمة من استيعاب ضعفها وامتصاص غربتها بهذه البساطة!!

وصغيرتي جوري» التي كنت أظنّها ستدخل معاناة الفَقد بمجرّد رحيلي، كيف اندمَجَت سريعاً مع سواها من الفتيات، وهي التي لم تلتقِ طوال سنوات عمرها الصغير سواي أنا والسيّدة لطيفة؟!!

ما إن رأيتُها على هذه الحال حتى انسحَبتُ خشيةَ أن تلمحني، فأُربكَ راحتها وأبعث في قلبها الحزن من جديد.

لم أستطع أن أتفهّم حالة «جوري» وقدرتها الكبيرة على التفاعل والانسجام مع محيطها، رغم عزلةٍ عاشتها معي وظَنَنتُها اعتادَت ملامحَها.

بقدر سعادتي بالذي حدث، إلّا أن خوفًا تملَّكني على جوريّتي من هذا العالم الغامض. رغبتُها في التواصل مع الآخرين ستضعها في المستقبل أمام تحدّيات وخيبات هي في غنى عنها..

لكنّي أعرف أن أيّ احتمالٍ آخر هو انتهاكٌ للفطرة الإنسانيّة.. من الخطأ أن أطويها تحت جناحي، دون أن أترك لها فرصة التحليق في عوالم الواقع ببريقها وبسحرها الأسود أيضًا..

لا يمكنني أن أجعل منها نسخةً مطابقةً لذاتي الانطوائيّة المُرتابة حتى من سقوط المطر.

كلا..

لن أدَعَ لخطأ ارتُكب بحقّي في السابق، أن يودي بها نحو فراغٍ روحيٍّ وعاطفيّ.. من حقّ ابنتي أن تحصل على فرصتها في الحياة.. من حقّها أن تبني ذاتَها بالطريقة التي تحبّ.. ومن واجبي أن أقدّم لها قلبي قربانًا إذا دعَت الحاجة إلى ذلك.

بعد عودتي إلى البيت مصطحبةً «جوري» لمحتُها في قمّة السعادة. راحت لوحدها تحكي عن الصفّ والمدَرِّسة والزميلات.. عن الأغاني الكثيرة

واللعب والحكايات.. وعن رسومات وحروف وهدايا سيكون لها حظٌّ وافرٌ منها لاجتهادها الكبير كما قالت لها المعلّمة.

لا أدري لمَ زارني الليلة طيف آدم بعد غيابٍ كاد يُنسيني مرورَه ذات قرارٍ في حياتي.

بمجرّد عبوره في البال ارتسمَت ابتسامةٌ صافيةٌ على ثغري.. لا أريد أن أنقم عليه، ولا أن أُحمّلَه ذنباً أو أجعله متّهماً في محكمة الحياة.. هو من منحَني جوهرتي الغالية، وأهداني أروع ما يمكن أن يُسعد القلب والوجدان.

كم أتمنّى أن يعيش فرحةً توازي ما أنا فيه، مع أنّ ذلك قد يبدو بعيداً عن إمكانيّة التحقيق، ففرحتي بـ«جوري» لا يعادلها أيّ شعورٍ آخر.

مع هذه الأفكار، انسحَبتُ في إغفاءةٍ احتَجتُها بعد نهارٍ مترَعٍ بالانفعالات النفسيّة والتوتّرات العاطفيّة المرهقة.

لا أعرف تقديراً للوقت الذي انقضى، عندما رنّ هاتفي المحمول وانتشلني من نومٍ هادئ كنت فيه أشبهَ بسحابة من ياسمين.

- آلو.. من معي؟..
- وَرد عزيزتي.. ألم تعرفي صوتي!!!..

تيقّظَت جوارحي، وتنبّهَت حواسّي في شبه استنفار..

- سيّدة جلجل.. أقصد جلنار.. لا أصدّق، كم أنا مشتاقةٌ إليكِ!
- وأنا كذلك.. أنا أتتبع أخبارك من المحامي، أخبرني أنكِ تزوجتِ وانتقلتِ إلى منزلٍ جديدٍ مع زوجكِ. وأنه هو من ساعد في إنجاز

معاملاتـكِ القانونيّـة..كنتُ أودّ الاتصـال بـكِ منـذ فـترة لأبـارك لـكِ خطوتكِ في الحياة لكنكِ تعرفين المدرسة ومشاكلها التي لا تنتهي والفتيات اللواتي يأخذن كلّ وقتي لمتابعتهنّ بكلّ التفاصيل..

- لا بأس سيّدتي، أنا المقصّرة في حقّك.. لكنّك تعرفين مكانتكِ في قلبي ولا تحتاجين أيّ إثباتٍ لذلك.. ولكن الاتّصال يبدو غريباً بعض الشيء، هل ثمّة خطبٌ ما..
- «ممممم.. في الواقع دائماً أوضَع في مواجهتكِ.. لا أدري لمَ يعاملني أقرباؤك كساعي بريد!!

كلماتها الأخيرة جعلَت قلبي يهوي منّي ويتكسّر ألف قطعة.. من تقصد بأقربائي؟؟ أهي أمّي عادت لتسأل عنّي؟؟ وحدها من يعرف طريق المدرسة. لا بدّ وأنها رجعت من سفرها الطويل وتفقّدَتني لدى سيّدة القصر حيث أودَعَتني قبل الرحيل، وعندما لم تجدني، أتت لتسأل السيّدة جلجل عنّي.

- من تقصدين بأقربائي سيّدة جلنار؟
- مم.. حسناً هو رجلٌ اتّصل بي عرّف عن نفسه بأنّه زوج والدتك.. أخبرني بوجودهما في البلاد.. ولكن الموضوع لا يقتصر على ذلك عزيزتي وَرد..المسألة أكبر بكثير..

لم أستطع أن أتمالك هلعي، وأخذتُ أرتعش دون أن أملك لنفسي تهدئة. تعرّق جسدي حتى خِلتُني أذوب قطعةً قطعة، وتصلّبَت أوتاري الصوتيّة في الحلق.

- أرجوكِ سيّدة جلنار.. لا تطيلي الكلام، أخبريني مباشرةً بما كان..
- كنتُ أفضّل أن تأتي إليّ لنتحدّث ولكن لا بأس.. حسناً، أخبرني زوج والدتكِ أنّ ثمّة مرضاً اجتاح جسد أمك بعد زواجها بفترة، وأخذ يتطوّر حتى نال منها. لم أحفظ الاسم لكنّه يتعلّق بشيء يشبه ضمور الجسد أو العظام.. وقال لي إنّه أتى من ألمانيا تاركاً أعماله فقط ليرافقها ويسلّمها لكِ. أعطاني العنوان ورقم الهاتف وتمنّى الإسراع في الحضور لأنّ وقته لا يسمح بالانتظار طويلاً..

يا إلهي!! أمي مصابة إذن بمرض جدّتي الذي قضى عليها!!

نعم أذكر الطبيب عندما أتى ليعالج جدّتي شرح لها عن مرضها بصراحة.. كنت يومها في السابعة من العمر.. سمعت الكلام ولم أفهم شيئاً..

قال لها إنها تعاني من مرض «ضمور العظام» الذي يؤدي إلى تراجع الصحّة وانكماش الجسد وفقدانه لكل طاقة وحيوية بمرور الوقت.. كما أذكره يحدّثها عن كون المرض وراثيّاً ولا يرتبط بعمرٍ معيّن..

وعندما توفيّت جدّتي، سمعتُ الجارة تقول بأنّ الله يحبّها ولم يُرد أن يعذّبها فتوفّاها قبل أن يشتدّ عليها المرض كثيراً ويحيلها هيكلاً بائساً..

تُرى في أيّ مرحلةٍ من المرض هي أمّي؟

وهذا الزوج الذي لا أعرف له وصفاً، لم يستطع تحمُّل مرضها فجاء يرميها لابنةٍ لم يحاول ولو مرّة السؤال عنها أو حتى التعرّف عليها!!

أهذا هو الرجل الذي من أجله أغفلت وجودي وعانقَت أنانيّتها للمرّة الثانية!!

أقفلتُ السماعة بعد أن أخَذت العنوان ورقم الهاتف على مضض.. وشكرت السيّدة جلنار واعدةً إيّاها بزيارةٍ قريبة. كنت أودّ إعلامها بكوني أصبحتُ أمّاً لفتاةٍ شبه يتيمة، لكن خبراً نقلَته لي أفقدني الشهيّة لكلّ شيء.

في الواقع، لم أشعر بأيّ تعاطف مع حالة أمّي، ولا حتى نال مني تأنيب الضمير بسبب لا مبالاتي تلك.. بل على العكس من ذلك، أصابني الاشمئزاز من ذكرياتٍ انقَضَّت عليّ فجأة وحمَلَت إليّ رغبة بالشماتة التي لم أتجرّأ عليها..

وكيف أفعل ذلك وصوت جدّتي ما زال يتردّد في أذني وهي تدعوني لأظلّ بصفاء الورد الجوري، وأحافظ على نقاوتي وعطري مهما عصفَت أيّامي حزناً وخذلاناً!!

***

الفصل السادس عشر

أمام بابٍ حديديّ ضخم وقفتُ وأنا في حالةٍ يرثى لها من الإنهاك النفسيّ. المنزل عبارة عن طابق أرضيّ يكلّله قرميد أحمر وتسوّره حديقةٌ صغيرةٌ، في منطقةٍ هادئةٍ وسط العاصمة. من الواضح أنّ مالك البيت شخصٌ ثريٌّ، وهذا أكيد وإلّا لما كان وجهةً لارتباط أمّي به منذ البداية.

قضيتُ ليلةَ البارحة وأنا جاثيةٌ قرب المدفأة أراجع ذكرياتي، في محاولةٍ لاستنباط لحظة عاطفةٍ صادقة تجمعني بأمّي.. فلم أجد!!

شعرتُ بغربتي عن هذا العالم بقساوته ومعادلاته التي لم أتمكّن حتى الآن من فهمها أو فكّ بعضٍ من طلاسمها.

لا أعرف لمَ أتتني صورة «أخي» الغريب، وأنا أقف أمام منزل «زوج أمي» الغريب.. !!

ثمّة تشابهٍ كبيرٍ بينهما.. إنه التماثل في الأنانيّة وحبّ الذات والتمحور حولها، وفي قلّة الوفاء.

ذاك الأخ-الغريب الذي لم أدرِ من أين أتى على حين بغتة، أخذ كلّ عطفٍ وحنانٍ كان يُفترض أن أنعم بهما، وعندما اشتدّ عودُه رحل متناسيًّا خفقات انتشلَته من الضياع، ومصطحبًا معه ثروةً عاشت أمّي عمرها كلّه معذّبةً، في سبيل أن تُصبح في قبضتها..

تُرى ماذا قدّمت لها ذكوريتُه؟ وأين هو الآن من السؤال عنها واحتضانها في تعبها؟ وأنوثتي التي احتقَرَتها مع أبّي، هل ستجد سواها كي يرعى ضعفها؟

وذاك الزوج-الغريب أيضاً، الذي لا أعلم كيف ظهر بعد وفاة أبي، اصطحبها معه وهي في ذروة رونقها كي تكون عوناً له وتحت جناح خدمته في البلاد البعيدة. وفي لحظة ضعفها أتى ليرميها كأيّ شيءٍ اقتناه، دون أن يقيم وزناً لقيامها بنَبذ عمرٍ وحياة وابنةٍ خلف ظهرها لتكون معه وحده!

لا أريد أن أنغمس أكثر في ذكرياتٍ بائسة وأفكارٍ ستزيد من نقمتي على كلّ من آذاني، بمن فيهم أمّي المريضة التي أقف الآن أمام منزلٍ يطويها بين جدرانه كوديعة، في انتظار حضوري لاستردادها بعد أن انتهت مهلة الإيداع!

شيءٌ ما في قلبي انقبض!

لا أريد أن أكون هنا، ولا أن أختبر لقاءً مع أمّي التي لا أعلم حقيقة مرضها ومراحله.. لا أرغب في لعب دور الابنة البارّة التي تترك العالم في سبيل أن تكون حضناً ومواساةً ورعاية..

ولمَ أفعل ذلك، وأنا عشتُ عمراً بطوله ابنةً مع وقف التنفيذ؟!!

أعرف أنّ حضوري اليوم ليس بدافع العاطفة أو الشعور بواجب احتواء أمٍّ لي في مرضها، أمّ أقصتني عنها منذ ولادتي لترتاح، وبعد أن ملَكَت مفتاح قرارها سارعت للهروب بعيداً بدل احتوائي..

عشرُ سنوات مرّت وأنا لا أعرف لها مكاناً ولا أعلم عنها أمراً!!

ما دعاني للحضور اليوم هي جدّتي التي لم تفارقني منذ أسبوع، بعد أن غابت عنّي أمداً طويلاً. فكأنها عادت بعد زمنِ هَجرٍ لتذكّرني بنصيحتها لي وبوعدٍ قطعتُه عليها في أن أبقى وَرد الصافية التي لا تنقم ولا تثأر بل تمنح وتعطي وتغفر.

إذن هي رغبتي في عدم خذلان جدّتي ما أتى بي إلى هنا.. لذلك لن أدّعي بِرّاً أو محبّةً أو تعاطفاً، بل وفاءً لعهدٍ قديمٍ قطعتُه مع من تستحق أن تُطاع ولا تُخذَل.

وقفتُ بكامل تردّدي.. مرّة أمسك الجرس وأستعدّ لقرعه، ومرّة أخرى أدير ظهري رغبةً في الانسحاب. وفي كلتا الحالتين أتعثّر بضعفي وارتباكي..

هكذا استمررتُ تحت وطأة حيرتي، حتى أتاني اليقين على هيئة فتاةٍ صغيرة تكاد لا تتجاوز ثماني سنوات.

وقفَت بجانبي على الرصيف ممسكة عجوزاً في يدها في انتظار مساعدتها للانتقال إلى الضفّة الأخرى من الطريق.

مشهدٌ قد يبدو اعتياديّاً في الأحوال العاديّة، أمّا في مثل حالتي وحيرتي وضياعي فلا بدّ وأن يكون له نكهةُ قرارٍ لا يقبل التأجيل.

بحزمٍ، قرعتُ الجرس وانتظرتُ قدَري بكامل تأهُّبي.. وارتعاشي!

لحظاتُ ترقّبٍ قليلة، وشُرِّع باب الحديقة على رجلٍ طويلٍ بعضَ الشيء، في العقد السابع من العمر، عريض الكتفين بكرشٍ كبير، يرتدي ملابس رياضيّة ويدخّن الغليون.

تمسـمّرتُ مكـاني.. نظراتـه بـدَت حـادّةً لدرجـة اختراقهـا جِلـدي حتـى العظام. شعرتُ باشمئزازٍ من شعره المصبوغ بلـونٍ أسـود قـاتم، يكلّـل وجهـه المتآكل من كثرة التجاعيد.

«أهلا بكِ وَرد.. أتيتِ في موعدك.. تفضّلي بالدخول..».

بارتباكٍ شديد تقدّمتُ في الحديقة دون أن أنطق بحـرف. سـار هـذا الكـائن الغريـب بقربـي حتـى ولجنـا إلـى صـالةٍ ضـخمةٍ فخمـة الأثـاث، بـذَوقٍ رديءٍ بامتياز.

«تفضّـلي سـيّدتي.. ارتـاحي قلـيلاً.. والـدتكِ في الـداخل، لكـن علينـا أن نتحدّث قليلاً..».

شعرتُ بصمتي يكبّلني.. يشدّ لساني إلى الداخل فأعجز حتى عـن إصـدار همهمـات. خِفـتُ أن يلمحنـي في محـاولاتي لإعـادة الحيـاة لثَغـري، وتنشـيط عضلات لساني الذي بات عضواً زائداً لا أهمية له.

زاد ارتباكي أكثر عندما سـألني عـن سـبب صـمتي. كيـف أشـرح لـه حالـة خرسي الهستيريّ المفاجئ وأنا بتّ بِثَغر دمية!

«هل أنتِ متوتّرة بعض الشيء؟؟؟».

يا له من غبيّ!

وكيـف لا أكـون بحالـة توتّـر، وأنـا في انتظـار لقـاء إنسانةٍ مريضـة يُفـترض فيهـا أنها أمّي التي لم أرها منذ دَهر؟!

كيـف يريـدني أن أكـون، وأنـا لا أعلـم بـأيّ وجـهٍ سـألقاها، وبـأيّ قلـبٍ ستتلقّاني؟!

بل كيف يجب أن أبدو، وأنا في منزل شخصٍ (يُفترض) به زوجـاً لإنسـانةٍ (يُفـترض) بهـا أمّـي، في لقـاءٍ كـان (يُفـترض) أن يـتمَّ منـذ أكثـر مـن عشـر سنوات؟!!!

يا إلهي.. أظنّني بدأتُ أهذي..

رحتُ أتطلّع إلى زوايا الصالة الواسعة وأتمحّص في أدقّ تفاصيلها، في محاولـةٍ للتشـويش علـى أفكـار بائسـة غـزَت رأسـي وجعَلَتنـي عـاجزةً عـن التركيز.

«أظنّكِ أُعجبتِ بذوقي في انتقاء الأثاث وتنسيقه.. في الحقيقـة لا أحـبّ أن أوجَد في مكـانٍ إلا إذا كنـتُ أنـا مـن اخـترتُ أدقّ تفاصـيله.. حتـى منزلـي في ألمانيا سيُبهركِ ذوقي فيه..»..

لأوّل مرّة منذ الصباح تجتاحني رغبةٌ عاصفةٌ بالضـحك.. مـن أيـن لـه كـلّ هذه الثقة بالذات؟! وهل يمكن لشخصٍ طبيعيّ أن يعتـبر هـذه البشـاعة ذوقـاً رفيعـاً؟!

تململتُ في جلوسي دون أن أقوم بـأيّ ردّة فعـل.. حتـى الآن لـم أكـن قـد أطلقتُ أيّ كلمة، وهو لم يحاول حثّي على ذلك..

يبدو أنّ صمتي قد راق له، ووجده مناسبـاً للانتهاء سريعـاً ممّـا يريـده دون أن يضطر للدخول في أيّ جدال.

هذه الفكرة حفزّتني على الكلام، وأطلقَت لساني الذي أضعتُ بوصلة وجهته منذ أن وصلتُ إلى هذا المكان الكئيب.

«ماذا تريد أن تقول؟.. أنا مستعجلة ولا أستطيع البقاء طويلاً؟»..

هي عبارةٌ واحدةٌ قُلتُها، كانت كفيلةً ليرفع قناع اللطف عن وجهه ويظهر بالملامح التي تليق به.

«اسمعي يا ورد.. أنا رجل أعمال مشهور ووقتي من ذهب.. كان بإمكاني أن أرسل والدتكِ من ألمانيا برفقة أيّ موظّف، لكنّي لم أفعل ذلك احتراماً لمكانتي باعتبارها زوجةً لي.. أو كانت زوجةً لي.. عليكِ أن تأخذيها معكِ لتهتمي بها.. هي تحتاج رعايتكِ بعد أن تطوّر مرضها وعجزَت عن الحركة.. أنتِ ابنتها وأَولى برعايتها منّي..كما أنّ دقّة أشغالي تحتّم عليّ الوجود في أماكن ساكنة بعيداً عن أيّ توتّر وإزعاج..».

رجلٌ في قمّة الانحطاط الخلقيّ وفظاظة القلب.. تمنّيتُ لو أملك جرأةً لأنهال عليه بالشتائم، وقوّةً لأصفعه على وجهه البائس.. لكنّني لن أفعل..

كلّ ما أريده الآن هو الخروج من هذا المكان الذي بدأ يُطبِق بجدرانه وسماجة قاطنِهِ على أنفاسي، ويُشعرني بضيقٍ في الأفق والروح.

وقفتُ مُحتَدّة، وفي عيوني شررٌ واحتقار..

«أين أمّي؟ أريد رؤيتها..» ..

بسكونٍ لا يمتّ إلى صخبه بصِلة، وقف واتجّه نحو باب مغلقٍ يطلّ على الصالة.

«أدخلي.. سأنتظركِ هنا.. »..

وعاد إلى غليونه، في محاولةٍ لافتعال لا مبالاةٍ مصطنعة.

قلبي الذي بدا منذ قليلٍ في قمّة الغيظ والاستنفار، خسر كل انفعالاته السابقة، وراح يخفق بشدّةٍ بمجرّد أن فتحتُ الباب ووقفتُ على عتبته مغمضَة العينين.

ذاتي مرتابةٌ من مشهدٍ أخشاه!

في آخر لقاءٍ لي بأمّي، ورغم شعورٍ بالنقمة ارتداني تجاه أنانيّتها المفرطة، إلّا أنها فاجأتني يومها بأناقةٍ مبهِرة وبقوامٍ رشيق أشبه بعارضات الأزياء.. لا أريد لهذه الصورة أن تتشوّه، فأعثر أمامي على كائنٍ لا أعرفه.

خائفةٌ أنا.. مرتبِكة.. حائرة.. وأكاد أهوي في الفراغ!

ما إن فتحتُ عينَي حتى غشاني دوارٌ كاد يُرديني أرضـًا، لولا أن أمسكتُ بكرسيٍّ كان مستقرّاً جانب الباب.

شهقتُ بصوتٍ مرتفع، وبعيداً عن إرادتي راحت الدموع تنهال سيلاً حارقـًا ألهب وجهي تاركـًا بصماته على الوجنات.

يا ويلي..أين هي أمي؟!!

أين تلك المرأة، من هذا الجسد المهترئ المتدلي عن كرسيّ متحرّك؟!

جسمٌ نحيلٌ محنيٌّ غير قابل للاستقامة.. مثنيٌّ على بعضه ككتلةٍ من قماش. المرض نال من عظامها حتى صارت لينةً غير قادرةٍ على التمدّد أو الحركة.

«أمّي!»..

بحركةٍ خفيفةٍ من العينين تطلّعَت نحوي، مع بريقٍ يلتمع فيهما..

هل هي تبكي؟!!

وقفتُ متخشّبة الأطراف، وفي أعماقي رعشةٌ يهتزّ معها جسدي بكامله، دون أن أكون قادرةً على التحكّم به.

التقَت نظراتنا لمدّة دقيقةٍ تقريباً،تهيّأ لي خلالها أنّها تقدّم اعتذارات أو ما شابه.. لم أستطع أن أحتمل مزيداً من مأساويّة المشهد المتمثّل أمامي، فاستجمَعتُ بقايا نبضي وفتات طاقة أخذَت تنسرب منّي، وانسحَبتُ سريعاً من الغرفة دون حتى أن أُقوم بأيّ شيءٍ سبق وخطّطتُ له بشأن أول لقاءٍ بيننا.

في الصالة انهَرتُ على أقرب كرسيّ صادفني، وغرقتُ في نحيبٍ طويل.

صوتٌ أجشّ أتاني بغتةً، سلب منّي لحظةَ حزنٍ احتَجتُها كما نحتاج فرحاً أو خلوةً أو رحيلاً..

«حسناً.. متى ستأتين لأخذها؟ اعلمي أنّ الوقت يتناسل بسرعة، وعليّ أن أغادر نهايةَ الأسبوع؟؟»..

يا له من وَغدٍ، عديم الشعور!

فليفتعل تعاطفاً مع وضعي قبل أن يصدر أوامره!! ليحاول على الأقل أن يلتزم الصمت احتراماً لخيبةٍ جديدةٍ أعيشُها، قبل أن يبثّ سمومه!!

انتفَضتُ واقفة، مسحتُ عَبراتي بكفّ يدي واتَّجَهتُ مسرعةً نحو باب الخروج، وقبل أن أغادر التفَتُّ ناحيتَه باشمئزازٍ واضح..

«أمهلني يومين، وستنتهي هذه المهزلة..»..

ثمّ.. أغلقتُ الباب بعنفٍ واضح، وخرجتُ بغضبٍ لو قُسّم على مدينةٍ لنال كلّ فردٍ حصّةً وافرةً منه..

***

رجعتُ إلى البيت بنصف قلب، ونصف روح.. جزءٌ منّي هنا، وبعضٌ منّي هناك!!

ما بالي!

ذهبتُ طيفاً لفتاةٍ ناقمة، وعدتُ ببقايا روحٍ متآكلة ربّما شفقةً وربّما حسرةً على ما فات.

لم أطرق باب السيّدة لطيفة لاستدعاء صغيرتي. أحتاج كثيراً أن أبقى وحيدة.. أن أعيش عزلةً ألتقي فيها مع ذاتي فقط..

لا وقت لديّ للتأمّل الطويل، عليّ أن أحسم وأقرّر دون أيّ تدخّلٍ، ماذا أريد وماذا يجب أن يكون!

دخلتُ غرفتي، ودون حتى أن أبدّل ملابسي أو أشعل النور، تقوقعتُ في سريري ودسَستُ وجهي في الوسادة.

ماذا سأفعل؟ كيف سأتصرّف إزاء ما أنا فيه؟

بالتأكيد لا يمكن أن أدَعَ أمّي في ذلك المكان الكئيب وبرفقة ذاك الكائن المريب.. أستطيع أن أتوقّع أسوأ الاحتمالات إن أنا تركتُها تحت رحمته.. لكنّي أيضاً لا يمكن أن أفتعل رغبتي في إيواء ضعفها..

كلّما تذكّرتُها، يطفو على السطح بؤس روحِها وأنانيّتها معي وافتقادها لأدنى درجات الحنان..

ضعفها أمام والدي وانصياعها لكامل أوامره، حتى تلك التي ظلَمَتني وأنهكَت قلبي، إنها خارج مدار نبضي وبعيداً عن اهتماماتي حتى الروحيّة منها.

يا إلهي.. أحتاج أن أتّخذ قراراً صائباً لا أندم عليه، وعقلي بحالة عجزٍ كامل.. !!

رحتُ أعتصر رأسي بين يدَيّ، وأتأوّه من ضعفٍ وحيرة، حتى غبتُ في شبه إغفاءة.

«هل أستطيع الدخول؟».

- رفعتُ رأسي عن الوسادة، لأجدها بكامل هيبتها وطيبة ملامحها تقف عند باب غرفتي، مرتديةً عباءتها البيضاء التي أعشقها.
- «جدّتي.. متى أتيتِ؟!!»
- «أنا لم أغادركِ حبيبتي..كنتُ معكِ في كل لِحظاتك. تابعتُ حكاياكِ ومسيرةَ أيّامك.. لكنكِ كنتِ مشغولة عنّي. لم أُرِد أن أزعجكِ، فتركتُكِ تنقبين في بئر أيامك وتعتمدين على ذاتك.. لكنّي اليوم أتيتُكِ في حيرتِك لأنزع عن قلبك غشاوةً من ارتباك..
- ساعديني جدّتي، ارفعي عنّي حيرتي، أشعر بوَهنٍ ينقر كالإبر في بدني. انتشليني من هرَمٍ فكريٍّ أرداني في فشل..

- عزيزتي وَرد.. أنا لا أستطيع أن أحسم القرار عنكِ.. لكنّي أتيتُكِ وكلّي يقين أنّكِ لن تخذلي ثقتي بكِ. أنا لم أرافقكِ طويلاً في مشوار حياتك، لكن فتاةً من ورق الوَرد شكّلتُها كيفما أريد لن تكون إلّا برِقّة الياسمين. لا تحتاري طالما في صدركِ قلبٌ طريٌّ رطبٌ وقابلٌ للحبّ.. وتذكّري دائماً أنّ سعادتنا تكمن فيما نقدّمه وليس فيما ننتظره..

بعد هذه الكلمات التي ظلَّلَتني بها، رحتُ أتأمّل ملامحَها الساكنة وأرسل لها ابتسامات، حتى اجتاحتني الإغفاءة من جديد.

أخذ هاتفي المحمول يرنّ بصوت مرتفع، ويشوّش على نومي القَلِق، حتى صحوتُ وأنا مُثقلةٌ بأفكارٍ تتنافس وتتدافع بقوّة.

إنّها السيّدة لطيفة تهاتفني!!

الساعة تشير إلى الخامسة، ممّا أثار دهشتي وقلقي. أيُعقل بي غفوت ما يقارب ثلاث ساعات!! وجوري المسكينة ما زالت عند جارتي في انتظار قدومي!!

هرعتُ بشناعة مظهري، حافيةَ القدمين لأطرق باب جارتي وأحتضن جوريّتي مقدّمةً لها اعتذاري عن تأخيري وغيابي الاضطراري.

في البيت منحتُ صغيرتي حَمّاماً دافئاً، احتضنتُها، لاعبتُها.. وجلسنا قرب المدفأة أطعمها وأحكي لها أساطيرَها المحبّبة..

أنا أشعر بالتقصير تجاهها، وكلّ ما أفعله يبدو بلا أهميّةٍ.. يجتاحني خجلٌ من جوريّتي على إهمالي لها نهاراً بأكمله، وعلى أنانيّةٍ لطالما كرهتُها في غيري وارتدَيتُها اليوم بكامل إرادتي.

عذراً جوري.. عذراً حبيبتي..

أمّكِ تطلب السماح عن يومٍ انقضى كنتِ فيه وحيدة.. سأعوّضكِ عنه بما يُسعد روحكِ الطاهرة.. أعدكِ.

بهذا الوعد بدأتُ أستردّ رَوِيّتي شيئاً فشيئاً، ورأيتُني ذات شرودٍ أشعر بوَخزٍ في صدري.

أيُفترض بي أن أعيش حالةً موازيةً من الشعور بالذنب والتقصير إزاء أمّي أيضاً؟ وإن لم أفعل، هل أُلام على ذلك؟

وهي، هل تعرّضَت للعتاب عندما جعلَتني أشعر بيُتمٍ في حضورها الغائب؟! هل مرّت عليها لحظاتُ ندمٍ وتأنيبٍ للذات؟

هل كنتُ محور تفكيرها، أو حتى طيفاً عابراً في منامها طوال سنواتٍ عديدة؟

أسئلةٌ كثيرةٌ تنازعت في رأسي طوال ساعات، ورحتُ أهذي بها في نومي حتى انبلَج الصباح.

ومع إشراقة الشمس، وجدتُني أجمع أفكاري المهترئة من كثرة ترديدها والغوص في تلابيبها، وأرمي بها في عمقٍ سحيقٍ من الذات..

ثم..

أمسكتُ هاتفي، وبدون تردّدٍ التقَطتُ مجموعة أرقامٍ مبعثرة، هي وسيلتي الوحيدة للَملَمة نُتَفي التي انتَثَرَت مني، واسترداد بعض من سكينة أحتاجها لأتمكّن من الحياة من جديد.

***

المبنى يبدو ضخماً، ممتدّاً على مساحةٍ واسعة وتحيط به حديقةٌ كبيرةٌ بسورٍ حجريّ مرتفع. أشجارها من شربين وحور وسَرو تبدو باسقة ممتدّةً بطول فارع بين الأرض والسماء..

عندما وقفتُ أمام بوّابة الحديقة الحديديّة، باغتني رجلٌ لا أدري من أين انبعَث واستقرّ أمام ناظري بضخامته وعضلاته المفتولة..

ابتلَعتُ لعابي بصعوبة، ولم أدَع فرصةً لرهبتي كي تتمدّد، فبادرتُ بالكلام دون أن أنتظر سؤالاً..

«عندي موعد مع السيّدة المديرة.. تواصلتُ معها عبر الهاتف وهي بانتظاري..»..

بدون أيّ انفعال فكَّ السلسال الكبير الذي يطوّق دفَّتَي البوابة، وأفسح الطريق أمامي للدخول.

لم أستسغ المشهد الذي عاينتُه، فالحديقة أبعد ما تكون صالحة لهكذا تسمية.. لا عشب، لا ورد، لا تربة، إذ تمّ استبدال هذه الأخيرة بأرضيّةٍ اسمنتيّة متشقّقة بفعل عوامل التعرية الزمنيّة. حتى الأشجار أكاد أُحصيها،

وتوشك أن تكون فقط قرب السور الحجريّ، أمّا وسط الحديقة فيغزوه الفراغ إلا من بعض الكراسي والطاولات المبعثرة بطريقة عشوائيّة.

بشعٌ هذا المشهد، ومثيرٌ للامتعاض.. تقدّمت نحو المبنى تعتريني ريبةٌ من دمامة المكان وغرابته. حتى الآن لم أصادف سوى حارس البوابة، حتى الأصوات أكاد لا أسمع منها سوى صفيرِ الهواء البارد الذي صفع وجهي وأحال ملامحي كتلةَ لحمٍ متجمّدٍ من صقيعٍ وغرابة!

لم أحتج قرعَ الجرس فالباب كان مشرَّعًا على مصراعيه، وعاملةُ نظافة تقوم بإخراج مياه من الداخل التي تبدو بأنّها تجمَّعَت بعد ليلةٍ مطيرةٍ وانسربَت من خلال تشقّقات تبدو واضحة في الحائط..

المبنى قديمٌ جدًّا، وهذا لا يحتاج إلى تدقيقٍ لتمييزه، فإضافةً إلى التصدّعات المنتشرة على الجدار، تبدو النوافذ الخشبيّة بحالٍ مهترئة، حتى لونها الأحمر، تلاشى ولم يبقَ منه سوى بقايا تَشي بحضوره في زمنٍ ما..

الطوابق الثلاثة للمبنى الكبير، تشبه بعضها بعضا في القِدَم والإهمال والتشقّقات، وتبعث على انقباضٍ في الروح.

ألقَيتُ التحيّة على عاملة النظافة، التي أظهرَت استياءً من حضوري في هذا التوقيت، واكتفَت بهزّ رأسها مُكملةً عملها بصمت.

عندما دخَلتُ، فوجئتُ بالصمت يسيطر أيضًا على المكان الذي تراءى بوضعيّةٍ لا تختلف عنه في الخارج من إهمال وتصدّعات ورطوبة منتشرةٍ على الجدران، مع بعض المحاولات المشوّهة لإعادة تأهيلها.

ممرٌّ كبيرٌ امتدّ أمامي، وعلى يميني بابٌ خشبيٌّ كُتب عليه «الإدارة»..

حسنًا، سعيدةٌ بوصولي إلى غايتي دون اضطراري إلى عبور هذا المكان الكئيب، أو صعود السلالم إلى الطوابق العلويّة التي لن تكون بالتأكيد بحالٍ أفضل.

في غرفة الإدارة، التقَيتُ بامرأةٍ غريبة الأطوار في المظهر والسلوك. ما إن دخلتُ وألقيتُ التّحية حتى أرسلَت نحوي نظراتها شزَراً دون أن تجيب. ثمّ قامت من خلف مكتبها متقدّمةً نحوي، وصارت تدور حولي وكأنّها تُعاين بضاعةً قيد الشراء..

امرأةٌ في العقد الخامس تقريبًا، بدينةٌ بشكلٍ ملفت، حتى تكاد ملامحها تغيب خلف وجنات منتفخة.. قصيرة القامة وترتدي ملابس لا تلائم وضعها الجسمانيّ..

عندما أنهَت مهمّة الاستكشاف، وقفت أمامي مشيرةً إليّ بالإبهام:

«أنتِ وَرد التي اتّصلتِ بي البارحة؟»

صوتٌ لا يشبه أيّ شيء.. لا هو بصياحٍ ولا بهمس.. أقرب إلى الصفير منه إلى الكلام..

كلّ شيءٍ فيها بدا غرائبيّاً، حتى كدتُ أشعر بها كائنًا من فضاءٍ آخر، أو مشعوذةً أتت لتسيطر بعد أن رمَت لعنتَها على المسؤولة التي غابت بفعل سحرها الأسود.

بعد هذا التعارف العجيب بيني وبين المسؤولة الإداريّة، حدّثتُها عن أمّي ووضعها الصحّي وحاجتها إلى عنايةٍ خاصّة. بدَت غير مبالية وكأنّها معتادة على مثل هذا الكلام من قِبَل جميع روّاد الدّار..

هي دار مسنين تقع في نفس المنطقة الجبليّة التي أقطن فيها وتكاد تكون الوحيدة.. قريبةٌ بعض الشيء من منزلي، ممّا قد يسهّل عليّ إمكانيّة الزيارة عندما تتاح أمامي الفرصة لذلك.. لذلك اخترتُها رغم أنّ حالتها متردّية والخدمة تبدو فيها شبه غائبة.

إقامة أمّي هنا ستكلّفني مبلغاً سنويّاً لا بأس به، لكنّه سيبقى ضمن إمكانيّاتي الماليّة خصوصاً أنّ الدار ليست مؤهّلة لتحقيق رفاهيّة العيش للمقيمين فيها، أضف إلى ذلك أنّ المصاريف المدرسيّة لجوري سأقوم بتغطيتها من إرث جدّتي المتبقي.

اتّفَقتُ مع المسؤولة على كل الأمور، وأخبرتُها أنّ زيارتي لأمّي قد لا تتعدّى اليوم الواحد في الأسبوع نظراً لانشغالاتي المتعدّدة، ونبّهتها إلى ضرورة متابعة حالتها الصحيّة التي تتدهور بسرعة..

غادرتُ المكان وقلبي يرتجف.. بينما عقلي في حالة جمودٍ كامل. مرتاحةٌ بعض الشيء من قرارٍ اتَّخَذتُه، لكنّ صوت جدّتي ما زال صداه في بالي وهي توصيني خيراً ورأفة..

أتراني اتّخَذتُ الطريق الصحيح؟ أم أنّ خياراً آخر كان سيتراءى أكثر إنسانيّة؟

لن أستمرّ طويلاً في التساؤل، بل سأتعايش مع قرارٍ رسمتُه بعد تفكيرٍ طويل..

هذا أقصى ما يمكن أن أقدّمَه، وإن كنتُ سأُلام يوماً على حُكمٍ صدر منّي، سأُدير ظهري وأمضي..

يكفيني ما عشتُه وعانَيتُه.. يكفيني انهزاماً وخذلاناً..

***

عندما تفهم الموقف بشكلٍ صحيح، فلن يكون أبـداً بالسـوء نفسـه كـما تظنّ.

جون جراي

واعلم أنّ كلَّ نفسٍ ذائقةٌ الموت، لكن ليست كلّ نفسٍ ذائقةٌ الحياة.

جلال الدّين الرّومي

عدّة شهور مرَّت على ذاك اليوم البائس، وما زلتُ أصحو مفزوعـةً عـلى كابوسٍ يرتادني في نومي ويتكرّر باستمرار.

«أرى نفسي وحيدةً في دهليزٍ طويلٍ مُعتم، والكثير من الأبواب الموصَدة تمتدّ عن يميني ويساري. ثمّة وقع أقدام يلاحق فزعي، وأنا أعدو دون أن أعرف مُطارِدي أو ألمَحه. فجأةً يأتيني صوتُ أنينٍ واضح، أتتبّع الصوت لأصل إلى غرفةٍ مُحكَمة الإغلاق، أحاول دخولَها وأجهَد في ذلك خوفاً من لهاثٍ خلفي بدأ يقترب أكثر فأكثر. وعلى حين بغتة، يُفتح بابٌ لتطلّ منه امرأةٌ تشبه هيكلاً عظميّاً بعيونٍ جاحظة. أحاول الصراخ لكنّني أصاب بخرسٍ فأعجز عن التعبير. ثمّ يأتيني من بعيد صوت أمّي وهي تضحك بصوتٍ عالٍ وتقهقه مع نبرة استهزاء واضحة لم أعهدها بها من قبل.. وأصحو في حالة رُعبٍ على أنامل تلامس كتفي وتشدّني إلى الخلف فأستشعر أنفاساً ساخنةً لاهثة».

هكذا صارت أمّي تستيقظ على صراخي يوميّاً فتأتيني تواسي خوفي وتحتضن وحدتي، فأتغلغل فيها وأستمع لكلماتها الحانية وهي تناديني بـ«جوريّتي» حتى أغرق في النوم من جديد. وفي الفترة الأخيرة، صارت، ومن شدّة قلقها عليّ، تنام في سريري في محاولةٍ لمنحي أماناً ربّما يساعدني على إقصاء الكوابيس.

أعرف أنّ أمّي طيّبة وبداخلها مشاعر طريّة تشبه الوَرد. أدرك أنّها ياسمينة ليس لرقّتها مثيل. وهي تحبّني كثيراً، وتخشى عليّ من أيّ سوء، لا تتركني وحيدةً أبداً، وإن اضطرّت إلى ذلك تدعني عند جارتنا الطيّبة «جدّتي لطيفة» وعندما تعود تُغدق عليّ من حبّها فيضاً كسيلٍ جارف.

تقدّم لي أمّي كل ما باستطاعتها حتى أكون راضيةً وسعيدة. ورغم أنّي ما زلتُ في السادسة، إلّا أنّها تعير انتباهًا لكلّ ما أحتاجه وأحبّه.. أدخلتني مدرسة باليه، وأحضرَت لي مُدرِّسة بيانو تتابعني في البيت، كما أنّها لا تتوانى مطلقًا عن اصطحابي إلى أيّ مكان قد أجد فيه سعادةً أو تسلية، برغم ميلها الواضح إلى العزلة.

أمّي التي تحتفظ بمنديلٍ مطرَّزٍ بوردةٍ جوريّةٍ، هو هديّة جدّتها لها قبل وفاتها بما يزيد على العقدين.. ما زالت كلّما حملَته تدمع عيناها حنينًا واشتياقًا. وتحرص على اصطحابه معها في جميع مشاويرها القريبة والبعيدة فقط لتستشعر أمانًا منبعثًا من حضورٍ وهميّ لطِيب جدّتها.

من أجل كلّ ذلك، ما استطَعتُ أن أتفهّم ما جرى!

كما أنّ ما رأيتُه في ذلك اليوم الغائر في البؤس، ترك آثاراً على جدار روحي، وألهب حزني لدرجة البكاء. ورغم مرور زمنٍ ليس بالقصير، إلّا أن قلبي ما زال رافضًا لقسوةٍ لم أعهد أمّي بها من قبل.

كيف استطاعت أن ترتكب إثم العقوق، فتُودِع والدَتها المريضة دار مسنّين وتمارس بحقّها سوءَ معاملةٍ كالتي رأيت؟!!

بل كيف تمكّنَت طوال سنوات من أن تُضمِر في نفسها وجود جدّةٍ لي على قيد حياةٍ تعيسة؟!!

رغم صغر سنّي، إلّا أنّ طاقة حبٍّ غرسَتها أمّي في تربتي، جعلتني أملك قدرة التمييز بين الخطأ والصواب، لذلك كانت صدمتي شديدةً وأنا أرى حبيبتي وقدوتي ترتكب ممارسات لا تمتّ لواقعها بصِلة.

بقيتُ طويلاً على هذه الحال من التوتّر النفسيّ والحيرة بين واقعين متناقضين، إلى أن نادَتني أمّي ذات قرار، وكانت يومها تجلس على الشرفة بقرب وردتها الجوريّة المحبَّبة.

وضعتني على حِجرِها، احتضنَتني، قبَّلَتني، وأخذت تحكي لي..

ما روَته فاجأ طفولتي، حمَلَني على الدّهشة من قدرتها على تخطّي عَقباتٍ كثيرةٍ عَبرَت أيّامها، وهي طفلة طريّة العود.

شعرتُ بضيقٍ في الصدر وهي تشير لي إلى سوء معاملةٍ تعرضَّت لها من أسرةٍ كان يُفترض بها رعايتها. أخبرتني القليل عن معاندة القدر لها بواسطة والدتها، ورغم محاولاتي حثَّها على الاستفاضة إلّا أنّها رفضت. بدت خائفةً على روحي من الانهزام إزاء عمق وجعها، فأَبَت أن تضعني في مواجهةٍ مع أحداث بائسة قد تنال من سكينتي وثقتي بمن أُحبّ.. ورغم ذلك، ما عرَفتُه عن جدّتي أَوجعَ قلبي الصغير الذي أشفقَ على والدتي المسكينة.

وفي المقابل حدّثَتني مطوّلاً عن قلوبٍ ملائكيّة رافقت مسيرتها، وجعلَتها تستردّ بعضاً من تقبُّلها لهذا العالم الذي لم يكن طيّباً معها. جدّتُها نالَت حظّاً وافراً من الكلام الجميل والوصف الذي حمَلَني على تمنّيها جدّةً لي أنا

أيضـًا.. أدهشني كلامها عنها وعـن طيفهـا الـذي ظـلّ حاضـراً ليخفّـف وطأةَ تعبها ولحظات خذلانها الحرجة.

عرَفـتُ أيضــًا عـن السـيّدة جلجـل التـي تصـوَّرتُها كمشـعوذة تتحـوّل في الأمسيات القمريَـة إلـى امـرأةٍ طيّبـة لتسـتعيد سـحرها الأسـود في مـا تبقّـى مـن أيّام..

وسـيّدةُ القصـر، أتَتنـي صـورتُها شـبيهةً بـ«سـيّدة القلـوب» في المسلسـل الكرتونيّ «أليس في بلاد العجائب». أمّا العم خلدون فأحببتُ حكايته.. لـو أنّـه جدّي لكنّا صنعنا كثيراً مـن القصـص الجميلـة معـًا كمـا فعلـت «هايـدي» مع جدّها «شيخ الجبل».

جدّتي لطيفة أيضـًا كان لها حظّ وافر من الكلام، هي الوحيدة التـي أعرفهـا من بين أولئك الذين رافقوا أمّي في مسيرتها، لكنّها وعـدَتني أن نـذهب معـًا في زيارةٍ تفقّديّةٍ لهم واحداً واحداً في وقتٍ ليس بالبعيد.

لو أنّ أمّي عانَقَت وجعي منذ ذلك اليوم، وحكَت لي شـذَرات ممّـا عرَفتُه الآن، لكانَت اختصرَت دربَ آلامٍ مَشَيتُه محتـارةً بـين ثقتـي بهـا مـن جهـة ومـا عاينتُه من جهةٍ أخرى.

شـعرتُ برغبـةٍ في تقبيلهـا، والتغلغـل بـين ثنيـات فسـتانها كمـا اعتـدتُ في لحظات انفعالاتي المختلفة.. وهي كعادتها التقَطَت نبضـي، فأخـذَت تضـمّني وتمسّد شعري الطويل، ثمّ راحت تدندن لي:

«يارا الجَدايِلها شِقِر

الِفيهُن بيتمَرجَح عِمر
و كِل نِجمِة تْبوحْ بِسْرارا .. يارا
يارا الغِفِي عا زِندا خَيّا الزغير
وْضَلِّت تغَنّي والدِّني حَدّا تْطير
و الرّيحْ تْدَوْزِن وْتارا .. يارا
الحِلوي الحِلْوايي تِعْبو زْنودا
وْنِتْفِي اصْفَرّوا خْدُودا
وبْإيدا نِعْسِتْ الإِسْوارَة
وْلَمَّنْ إجِت يارا تْحِطّ خَيَّا بِالسْرير
تْصَلِّي يا ربّي صَيِّرو خَيِّي كْبير».

***

آخر مرّةٍ خرجتُ فيها من المنزل برفقة أمّي، كانت في ذلك اليوم المشؤوم، حين أدركتُ أنّ جدّةً لي عاجزةً لا تزال تترنّح بين الموت والحياة.. بعد ذلك، تبدَّلت حياتي السابقة، فلا مدرسة ارتَدتُها ولا معهد الباليه، حتى معلّمة البيانو غابَت وصارت أمّي تهتمّ بدروس الموسيقى خاصّتي.

تقول أمّي إنّ وباءً عالميّاً انتشر، وبوصوله إلينا ما عدنا قادرين على الاستمرار في حياةٍ طبيعيّة، وريثما يتلاشى، علينا أن نلتزم بتعليمات وأوامر صارمة، أهمّها عدم الخروج من المنزل إلّا عند الحاجة، والامتناع عن

استقبال أيّ شخص قريبٍ أو غريب.. حتى جارتنا «جدّتي لطيفة» ما عدتُ أدخل إليها أو تأتينا زائرة.

لم أفهم كثيراً ما يجري حولي، لكنّ ثقتي بأمّي تجعلني أتقبّل أيّ إجراءٍ تفرضه، فهي الأقدر على حمايتي، وهي حِصني والأمان.

مضى الشتاء سريعًا، وبعده الربيع.. وها نحن في منتصف الصيف الحارق، وما زال الوباء يفرض هيمنته على العالم. هذا الفصل الذي لا أستطيع أن أتقبّله رغم أنّه رديفٌ دائمٌ للإجازة والرحلات.

أنا شتويّة المزاج كأمّي.. أحبّ المطر والثلوج التي تتميّز بها منطقتنا الجبليّة الجميلة. الصقيع لا يزعجني مطلقًا، وأكثر ما أحبّه فيه هو تغلغلي في أحضان أمّي الدافئة والاستماع للحكايا التي تُبدع في سردها وتُضفي عليها سحراً خاصًّا.

اليوم هو الرابع من شهر آب ويكاد القيظ يُذيبني.. أَتَتني أمّي، وأنا غارقةٌ في مقطوعة موسيقيّة أعزفها، لتخبرني أنّها مضطرةٌ لحضور اجتماع في مكتب الترجمة في العاصمة، وعلى أساسه سيتقرّر مصيرها المستقبلّي في العمل. هي بالتأكيد لن تتمكّن من اصطحابي خوفًا عليّ من ذاك الوباء الملعون، ولن تسمح لي أيضًا بدخول منزل جارتنا «جدّتي لطيفة» لأقضي معها فترة الغياب.. لذلك طلبت منّي أن أنتبه لنفسي، وأبتعد عن أيِّ شقاوة.. وحتى أطمئن أخبرتني أنّها أعطت مفتاح الشقة لجارتنا العجوز حتى تتمكّن من

تفقّدي إذا احتاج الأمر لذلك. وعدَتني بعدم التأخير، وبهديّةٍ رائعة ستقدّمها لي عند عودتها، إن أظهَرتُ حسنَ تصرّف.

هي المرّة الأولى التي سأبقى فيها بمفردي في المنزل. أشعر بقلق أمّي واضطرابها، أرى خوفاً يتطاير من نظراتها، وريبةً ترتع في ارتعاشة يديها.. لذلك، وحتى لا أزيد من ارتباكها، وعدتُها أن أكون كما عهدَتني في الهدوء، رغم توجّسٍ تسلّل داخلي ليسري مع الدمّ في الشرايين.

لا أريد أن أزيد من توتّر أمّي التي تبدو في قمّة الارتياب من فكرة بقائي وحيدة، لكنّي مرتاعة..

بعد مغادرة أمّي، تمكّنَ الفزع منّي فشتّت تركيزي وعجزتُ عن إكمال مقطوعتي الموسيقيّة. صرتُ أروح وأجيء في الصالة، أحمل دمية وأرمي بأخرى.. لن أخرج إلى الشرفة كما وعدتُ أمّي، ولن أُمسك آلاتٍ حادّة.. لكنّي لستُ بحالةٍ تسمح بقراءة القصص ولا حتى اللهو باللُّعب الكثيرة التي عندي.

جلستُ على الكرسيِّ أتأمّل حولي في تضجّرٍ كبير.. كلّ شيءٍ بدا باهتاً في غياب أمّي، حتى الورد التي أعشقه والذي يملأ الشقّة، أشَحتُ نظري عنه حتى لا تأتيني صورة أمّي وهي تقوم بتنسيقه وتوزيعه بحبّ.

من فرط الملل، واللاشيء الذي أقوم به، رحتُ في إغفاءة على الكرسيّ. لا أعلم مقدار الوقت الذي سلبني فيه النوم يقظتي، لكنّي صحوتُ على صخبٍ شديدٍ..

نظـرتُ حـولي فـإذا بـي أفاجَـأ بجـدّتي لطيفـة مـع خادمتهـا الإفريقيّـة تتحدّثان بصوتٍ عالٍ، وبكلام لـم أفهم منه شيئـًا. صوت التلفاز بدا عاليّـًا وصورة مذيعٍ يقف وسط خراب ودمار ينقل حدثًا مباشراً من مكانٍ ما..الدخان خلفه بدا خانقـًا وبلونٍ أسود يشبه إلى حدٍّ كبير بركانـًا شاهدته ينفجر في برنامجٍ تلفزيونيّ مع أمّي..

أمّي.. ألم تعُد بعد؟!!

تطلَّعتُ إلى «جدّتي لطيفة»، لمحتُها وقد زادت تجاعيدها كثيراً، وخطوط جبينها بدت كأثلامٍ تقسم الجبهة قسمين.

عبوسٌ شديدٌ غزا نظراتها التي راحت تتنقّل على شاشة التلفزيون وكأنها تبحث عن شيءٍ ما.

«جدّتي.. ماذا يحدث؟؟.. وأين أمّي؟ لم تأخّرَت كثيراً؟؟.. وعدَتني أنّها لن تطيل الغياب، ستنهي اجتماعـًا طارئـًا وتعود مع هدايا تمنحها لي إن أنا أحسنتُ التصرُّف.. وأنا التزَمتُ بكل تعليماتها.. أتراها تشتري لي الآن هديّة؟؟

لم تجبني جدّتي ، ولا نطقَت بأيّ حرف.. بل تراءَت مذهولةً، ولمحتُ عَبرَةٍ تتسلّل من بين جفنَيها لتسيل على تجاعيد وجنتها.

نعم، إنّها تبكي!

لأوّل مرّة أرى جدّتي العجوز بدمعٍ وحزنٍ كبيرين.. اقترَبَت منّي، احتضنَتني وشعرتُ بخفقها كوقع طبلٍ في الصدر.

ربّما ما يُعرض على التلفاز جعلها بهذه الحال! هذه الفكرة حفزّت حشريتي لمتابعة الأحداث الجارية ومحاولة فهم ما يدور.

المشهد حيث يقف المذيع بدا شنيعـًا .. حاولت أن أتتبّع كلامه في سَعيٍ للفهم..

«شدّة انفجار المرفأ، تعادل طاقة زلزال بقوة 4.5 درجة على مقياس ريختر. فالانفجار ضخم وقد حدث على مرحلتين في العنبر رقم 12 في المرفأ، ونتجت عنه سحابةٌ دخانيّةٌ ضخمةٌ على شاكلة سحابة الفطر ترافقت مع موجةٍ صادمةٍ هزّت العاصمة، مما أدّى إلى أضرار كبيرة في المرفأ وتهشيم الواجهات الزجاجية للمباني والمنازل في معظم الأحياء المجاورة والبعيدة نوعـًا ما، وقد أفادت الوكالة الإخباريّة بأن عدد الجرحى كبير ولا يُحصى، بالإضافة إلى عددٍ غير محدّدٍ من المفقودين..»..

التفَتُّ إلى «جدّتي لطيفة» وسألتها عن معنى الانفجار.. فلم تُجِبني وظلّت عيناها متجمّدتين على شاشة التلفاز.. فعُدتُ أنا أيضـًا إلى المشاهدة، والدهشة تنهش ملامحي ممّا أُعاين..

شيءٌ ما يُشبه أرضـًا يابسة، خاوية على عروشها، كالصّريم.. وممتدّة على مساحةٍ شاسعة من الشاطئ، يتخلّلها الرّدم المبعثر، الذي يُفترض أنه بقايا مبانٍ كانت في الماضي القريب جدًّا منتشرة في المكان.. الدخان الأسود يغطّي المشهد ويتصاعد من كلّ زاوية، وأرى أجساداً شبه مكتملة ممدّدة

على الأرض بدماء تغطّي الأرض.. بقايا سيارات وشاحنات متفحّمة، وحفرةٌ عميقةٌ جدًّا تملؤها المياه تتوسّط الدّمار، تكسر امتداد السّواد، وتزيد من تشوُّه المكان. سيارات إسعاف موجودة بكثرة وصوت صفيرها العالي يتراءى كعويلٍ أو نحيب أمّهاتٍ ثكلى..

صوتُ مذيعٍ كسر رتابة العرض، وبدأ يتحدّث عن أضرار جسيمة في المناطق المجاورة للانفجار، وحتى البعيدة بعض الشيء.. ذكر المناطق والشوارع الأكثر تضرّراً وما إن نطق باسم «الجمّيزة» حتى صرخت الجدّة العجوز وراحت تضرب يديها وتلطم خدّيها، ثمّ احتضنَتني بقوّةٍ حتى كادت تعتصر هشاشتي، وراحت دموعها تتساقط على وجهي وتبلّل جمود ملامحي وذهول قلبي الصغير الذي لم يستطع أن يستوعب كارثةً تراءت في أفق الوطن.. والقلب!

***

في العاصمة، كان ثمّة رجال مدنيّون يساعدون في عمليّات الإنقاذ.. يقومون بتتبُّع أصوات الأنين المنبعثة من تحت الردم، يرفعون الأنقاض، ويسحبون أجساداً بعضها بارد لا نبض فيه، وبعضها الآخر ما تزال الخفقات تُرشد إلى حياةٍ تسري في أوردتها..

وأثناء انتشال جسدٍ بدا غارقًا في عمقٍ سحيق، شيءٌ ما تجلّى ملفتًا وسط الأنقاض.. امتدَّت يدٌّ صلبةٌ لتسحب منديلاً مطرّزاً بوردةٍ جوريّةٍ

ممتدّةٍ بجذعها الأخضر من الأسفل لتصل بوريقاتها الحمراء إلى الطرف العلوي من المنديل..

نفَضَت اليدُ غباراً متراكماً، فتراءت الوردة في أبهى حلّتها.. تبعث على التفاؤل، وتوحي أنّ ثمّة أنثى ناعمة وطريّة كالورد مرّت من هنا، ذات زمنٍ قريبٍ أو بعيد وتركت أثراً .. ربّما ترجع للبحث عنه وربّما يكون دليلاً على ذاكرةٍ جميلةٍ غابت ولن تعود!!